

يطيب.لنا أن نقدم للأمة الإسلامية
الجزء الثالث من موسوعة :

رَحَائِلُ وَنِسَاءُ

أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ قُرْآنًا

الرَّكُوتُ جَعَلَ الرَّحْمَنُ حُرَيْرَةً

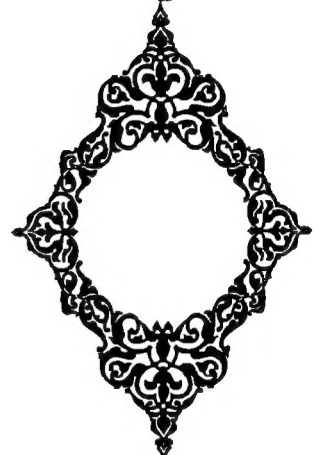
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

45 سوق الكتاب الجديد بالعتبة - القاهرة

ت : 5916021

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET



رِجَالٌ وَنِسَاءٌ

أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ مِّنْ قُرْآنًا

اسم الكتاب: رجال ونساء أنزل الله فيهم قرآنا

اسم المؤلف: د/عبدالرحمن عميرة

الناشر: دار الحرم للتراث

العنوان: ٤٥ سوق الكتاب الجديد بالعتبة - القاهرة

التليفون: ٥٩١٦٠٢١ - ٥٩١٦٠٢٢ - ٥٩١٦٠٢٣ - ٥٩١٦٠٢٤ - ٥٩١٦٠٢٥

رقم المجلد: الثالث

رقم الإيداع: ٢٠٠٥/١٨٠٠٥

الترقيم الدولي: ٩٧٧-٦٠٣٨-٢٦-٣

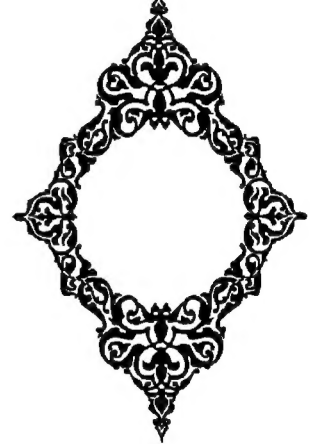
تجهيزات الكمبيوتر: H 4 للكمبيوتر ٠١٠٦٦٧٤٣٣٥

تصميم الغلاف: ياسر فوده ٠١٣١٦٨٤٥٠٦

جميع حقوق الطبع محفوظة
لا يجوز نشر أى جزء من هذا الكتاب
أو تخزينه أو تسجيله بأى وسيلة
أو تصويره دون موافقة خطية

الطبعة الأولى

يناير / ٢٠٠٦



مقدمة

قلنا فى مقدمة الجزء الأول من الموسوعة: إن التاريخ يحدثنا أن العربى كان شديد الاحترام للمرأة، كثير الحذب عليها، ويعطف عليها ويحرص على صيانتها. وكان فرسانهم ينزلون إلى حومة الوغى والسنتهم رطبة بذكر زوجاتهم أو أخواتهم أو أمهاتهم، وكانوا يطلبون منهن أن يشهدن شجاعتهم واقتحامهم غمرات الحرب فى سبيل مجدهم ومفاخرتهم.

يفعل الفرسان ذلك لأن المرأة من يوم أن أوجدها الله تعالى وهى الأم الحنون لأبنائها، والزوجة الودود لزوجها. والأخت العطوفة لإخوتها.

ويشهد التاريخ أن دورها عبر قنواته كان هو الدور المشارك فى تبعات الحياة حلوها ومرها وما يمكن للحياة أن تمتد بدون النساء الحاملات للأجنة الحاضنات للطفولة، الصانعات للبطولة، نقول ذلك لأن المرأة كانت تدخل حلبة القتال جنباً إلى جنب مع فرسان قومها وتشارك برمحها وسيفها فى قتال الأعداء وتشتيت جموعهم. ولقد سجل التاريخ على صفحته الكثير من البطولات لنساء مقاتلات.

من ذلك ماحدث فى إحدى المعارك الطاحنة التى دارت بين المسلمين وجموع الروم على أرض الشام حيث كان قائد معركة اليرموك خالد بن الوليد رضي الله عنه يرقب فارساً طويلاً ملثماً لا يظهر منه إلا الحديق، وتلوح عليه شمائل الفروسية وهو يرتدى ثياباً سوداء، وقد حزم وسطه بعمامة خضراء سحبها على صدره وتركها من خلفه، وكان يتقدم صفوف الرجال وكأنه النار التى تتخلل العشب اليابس فتقضى عليه.

فقال خالد: من هذا الفارس...؟ وايم الله إنه لفارس شجاع.

وظل يرقب هجماته على عساكر الروم كالنار المحرقة فيزعزع كتائبهم، ويحطم مواكبهم، حتى خرج من بين صفوفهم وسانه يقطر دماً بعد أن قتل رجالاً وجندل أبطالاً، واخترق الموت غير خائف ولا وجل.

فقال رافع بن عميرة رضي الله عنه: ليس هذا الفارس إلا خالد بن الوليد.

ولكن خالد بن الوليد ظهر بعد قليل أمام رافع، فتعجب رافع، واقترب من خالد وقال:

إذن من الفارس الذي يتقدم مواكب الجند ويبذل نفسه ومهجته؟
فقال خالد: والله إنى أشد إنكاراً منكم له، ولقد أعجبنى ماظهر منه ومن شمائله.

فقال رافع: أيها الأمير إنه منغمس في عسكر الروم يطعن يميناً وشمالاً.
فقال خالد: يامعشر المسلمين احملاوا بأجمعكم وساعدوا هذا المدافع عن دين الله.

وعلى الفور اندفع المسلمون وعلى رأسهم خالد كتلة واحدة واقتربوا من الفارس فوجدوه لا يزال شعلة من النار والخيول في أثره، وكلما لحقت به الروم لوى عليهم وجندل فرسانهم، فحمل خالد ومن معه حتى انجلت المعركة عن نصر المسلمين.

وحين عاد الفارس المخضب بالدماء إلى صفوف المسلمين صاح خالد بن الوليد قائلاً:

لله درك من فارس بذل مهجته في سبيل الله، وأظهر شجاعته على الأعداء اكشف لنا عن لثامك.

لكن الفارس ظل صامتاً، ولوى عنان فرسه ولم يرد على خالد بن الوليد فصاح رجل من القوم:

أيها الرجل الكريم أميرك يخاطبك وأنت تعرض عنه اكشف عن اسمك وحسبك لتزداد تعظيماً.

لكن الفارس لم يرد عليهم بكلمة واحدة، بل همز فرسه وابتعد عنهم. وهنا اندفع خالد وراءه وصاح به:

«ويحك لقد شغلت قلوب الناس وقلبي بفعلك من أنت...؟»

وحين شعر الفارس بالحاح خالد عليه، خاطبه بلسان التأنيث من تحت اللثام قائلاً:

«إننى يا أمير لم أعرض عنك إلا حياء منك، لأنك أمير جليل وأنا من ذوات الخدور وبنات الستور».

فقال لها من أنت...؟

قالت: أنا خولة بنت الأزور، وإنى كنت مع بنات العرب حتى أتانى الساعى وأخبرنى أن ضرار أخى قد وقع أسيراً فى قبضة الأعداء، فركبت إليكم وفعلت ما فعلت.

فتعجب خالد من قولها وفعلها وأكبر شجاعتهما وإخلاصها لأخيها.

ولم تهدأ خولة حتى أرسل خالد كوكبة من الفرسان ترافقهم خوله، وتم فك أسر أخيها ضرار بن الأزور. بعد معركة ضارية مع الأعداء.

وفى وقعة «صحورا» فى بلاد الشام وقعت خولة أسيرة فى قبضة الأعداء مع بعض النسوة. ولكنها وهى فى معسكر الأعداء جمعت هؤلاء النسوة المأسورات وقامت فيهن خطيبة وهى تقول:

يابنات حمير، وبقية تبع أترضين لأنفسكن علوج الروم، ويكون أولادكن عبيداً لأهل الروم، فأين شجاعتكن وبراعتكن التى تتحدثيها عنكن أحياء العرب ومحاضر الحضر، وإنى أراكن بمعزل عن ذلك، وإنى أرى القتل النازل أهون عليكم من هذا الهوان، وما نزل بكن من خدمة هؤلاء العلوج؟؟

فقالت لها عفراء بنت غفار الحميرية: صدقت والله يابنت الأزور ونحن في الشجاعة كما ذكرت، وفي البراعة كما وصفت، غير أن السيف يحسن فعله في مثل هذا الوقت، ولقد دهمنا العدو على حين غفلة، وما نحن إلا كالغنم بدون سلاح؟

فقالت خولة: يابنات الإسلام خذوا أعمدة الخيام وأوتاد الأطناب، ونحمل بها على هؤلاء اللثام فلعن الله ينصرنا عليهم فتستريح من معرة العرب.

فقالت عفراء: والله مادعوت إلا ما هو أحب إلينا مما ذكرت.

ثم تناولت كل واحدة عموداً من أعمدة الخيام، وصاحت صيحة واحدة وألقت خولة على عاتقها عموداً ومن ورائها عفراء وبقية النساء وقالت لهن خولة: «لا ينفك بعضكن عن بعض، وكن كالحلقة الدائرة ولا تفرقن فتتمكن فيقع بكن التشتيت، وحطمن رماح القوم واكسرن سيوفهم. وهجمت خولة وهجمت النساء من ورائها وقاتلن قتالاً شديداً حتى تمكن من الخروج وفك الأسر. ولقد أنشدت النساء بعد وقعة الصحورا:

نحن بنات تبع وحمير	وحرينا في القوم ليس ينكر
لأننا في الحرب نار تسفر	اليوم تسقون العذاب الأكبر

وإذا كنا نذكر بكل الفخر ما فعلته النساء المسلمات في ساحة الوغى فلا ننسى بعض النسوة اللاتي سارعن إلى الإسلام، وتحملن ألم التنكيل والتعذيب حتى فارق البعض الحياة منهن أسماء أم عمار بن ياسر وأهل بيتها ولقد مرّ عليهم رسول الله ﷺ وهم يعذبون فقال: «صبراً آل ياسر فموعدكم الجنة» ومنهن نسيبة بنت كعب الأنصارية (أم عمار) التي قاتلت في غزوة أحد ودافعت عن رسول الله ﷺ وظلت تتلقى عن النبي الضربات وتستقبل الطعنات بصدرها وكتفها دون أن تفارق مكانها، وقد قال الرسول ﷺ: «ما

التفت يميناً وشمالاً إلا وأنا أراها تقاثل دونى».

ومنهن فاطمة بنت الخطاب التى دخل عليها أخوها عمر بن الخطاب فقال لها ولزوجها ما هذه الهيمنة التى سمعتها...؟ فقالا له: ما سمعت شيئاً، وكانت فاطمة قد أخفت صحيفة من القرآن تحت فخذها.

فقال: بلى والله لقد أخبرت أنكما تبعتما محمداً فى دينه، ثم هجم على صهره سعيد لبيطش به، وحين هرعت فاطمة لتبعده عن زوجها، ضربها ضربة قوية فشج رأسها وسال الدم على وجهها. وهنا قالت له أخته: نعم لقد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك، وحين رأى عمر أخته بهذا الوضع والدم يسيل على وجهها ندم على ما صنع وأحس بتسرعته وتهوره ثم تناول الصحيفة بعد أن تطهر فقرأ قول الله تعالى:

﴿طه (١) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢) إِلَّا تَذَكُّرٌ لِّمَن يَخْشَى (٣) نَزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى (٤) الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٥)﴾ (١)
فأسلم وحسن إسلامه.

ونحن فى هذا الجزء من الكتاب: نقدم المرأة التى ترفض الذهب والفضة مهراً لها ليكون مهرها الإسلام.

والمرأة: التى تولت الملك والحكم، ولكن زهدت فيه وعادت إلى طبيعتها لتكون أما ترعى الطفولة وتصنع الرجولة، وتشارك فى الدعوة إلى دين الله. والمرأة: التى استقر الإسلام فى قلبها فتركت الزوج والولد، وفارقت الأهل والأحباب وهاجرت بدينها إلى ربها، وفرت إلى مولاها مقتدية بذلك بالصفوة المختارة من الأنبياء والرسل عند قولتهم: ﴿إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّى﴾ (٢).

إننا فى هذا الكتاب نقدم المرأة كما أبان عن خلقتها ربنا بقوله تعالى:

(٢) سورة العنكبوت آية رقم: ٢٦.

(١) سورة طه الآيات من ١ - ٥.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾^(١)

والمرأة التي هي آية من آيات الله في قوله تعالى:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾^(٢)

وبذلك ندرك حكمة الخالق جل وعلا في خلق كل من الجنسين على نحو يجعله موافقاً للآخر، ملبياً لحاجته الفطرية، بحيث يجد عنده الراحة والطمأنينة والاستقرار ويجدان في اجتماعهما السكن والاكتفاء والمودة والرحمة.

والمرأة التي هي لباس وستر، ووقاية وحفظ ومستودع من الحنان والحب قال الله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لِهِنَّ﴾^(٣).

واللباس ساتر وواق، وكذلك هذه الصلة بين الزوجين تستر كلا منهما وتقيه والمرأة التي أرشدنا الله إليها بقوله:

﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتُمْ وَقَدِمُوا لأنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾^(٤).

إن نظام الأسرة في الإسلام هو النظام الطبيعي الذي يتولى حماية الطفولة وتنمية أجسادها وعقولها وأرواحها في بيت يحاط بسياج من الألفة والمحبة وتبنى قواعده من شرع الإسلام ومبادئه.

إن وظيفة الإنسان هي أكبر وظيفة لأنه خليفة الله في أرضه.

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٥)

ودوره في الأرض أضخم دور، لأنه يقوم على تنفيذ شرع الله، وإخلاص

(٢) سورة الروم آية رقم: ٢١.

(٤) سورة البقرة آية رقم: ٢٢٣.

(١) سورة النساء آية رقم: ١

(٣) سورة البقرة آية رقم: ١٨٧.

(٥) سورة البقرة آية رقم: ٣٠.

العبودية له، وتفرد بالعبادة والوحدانية.

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (١).

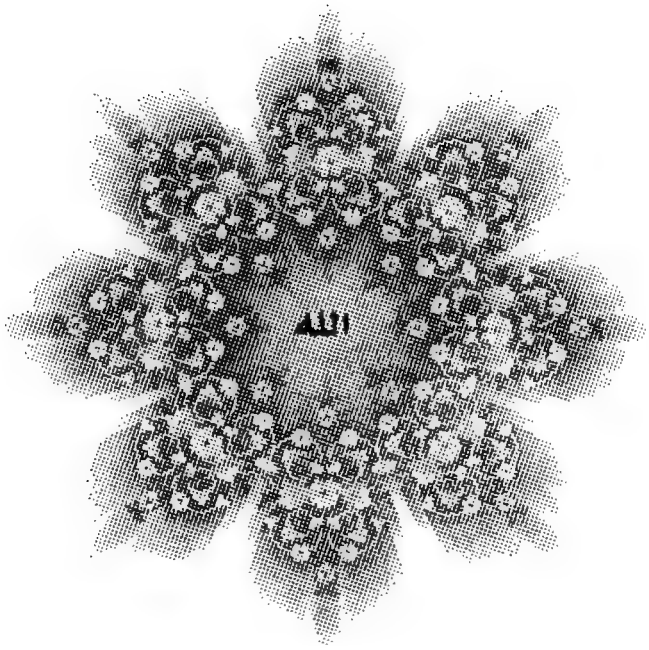
من هنا امتدت طفولته فترة أطول ليحسن إعداده وتدريبه لتلك المهمة المتفردة ومن ثم كانت حاجته للملازمة أبويه أشد من حاجة أى طفل لحيوان آخر، وكانت الأسرة المستقرة الهادئة ألزم للنظام الإنسانى، والصق بفطرة الإنسان وتكوينه ودوره فى هذه الحياة.

وأخيراً إن الآيات التى نزلت فى هؤلاء النسوة المؤمنات تتناول بعض أحكام الزواج والمعاشرة والإيلاء والطلاق والعدة والنفقة والمتعة والرضاعة والحضانة. ولكن هذه الأحكام لم نذكرها مجردة كما اعتاد الناس أن يجدوها فى كتب الفقه ومصطلحات المشرعين. ولكنها ذكرت فى جو يشعر القلب البشرى أنه يواجه قاعدة كبرى من قواعد المنهج الإلهى للحياة البشرية بعامة، ودور المرأة فى تكوين الأسرة، وامتداد نسل الخليقة ودورها المعطاء فى ذلك كله بصفة خاصة.

ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير.

د. عبد الرحمن عميره

(١) سورة الأنبياء آية رقم: ٢٢.

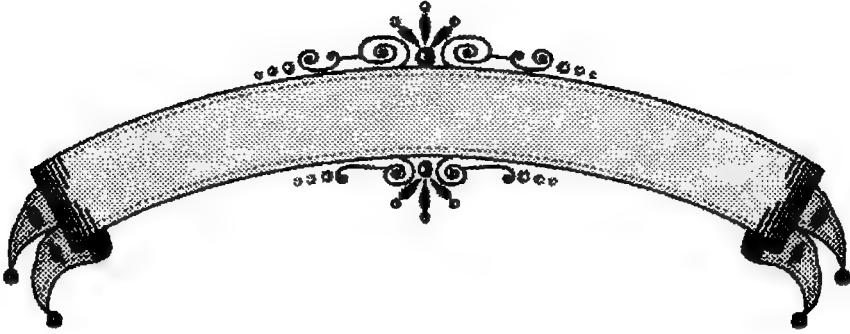


بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ
أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً
وَرَحْمَةً﴾ .

(سورة الروم: ٢١)



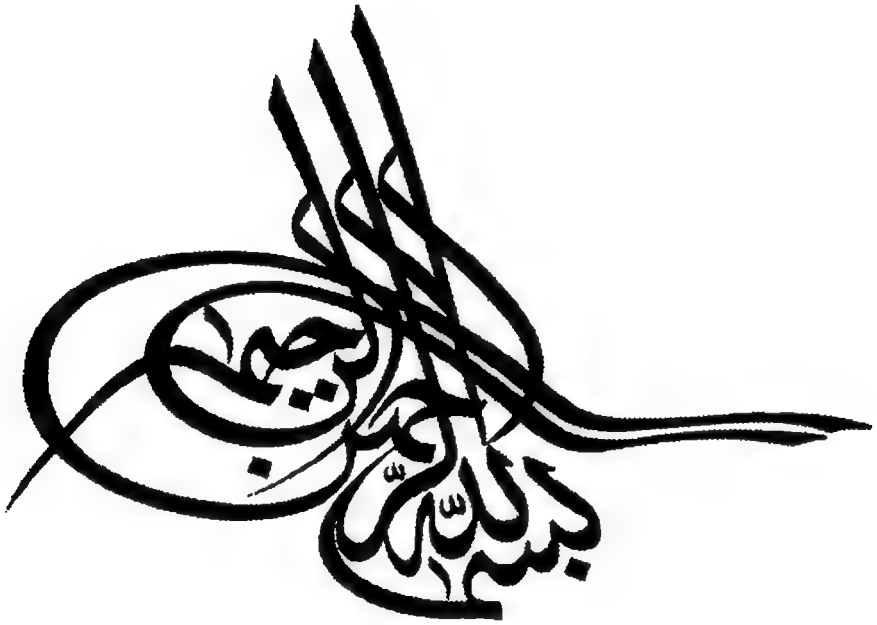
قال الرسول - ﷺ:

«النساء شقائق الرجال».

سنن الترمذی ۱۱۳ - ۱۲۷

خديجة بنت خويلد

رضى الله عنها



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى:

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَئِكَ
الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ
مِّنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾.

(الواقعة: ١٠ - ١٤)

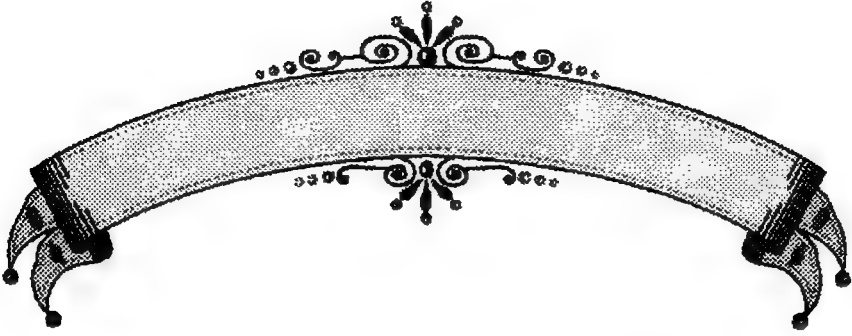
أقوال العلماء والمفسرين فى نزول هذه الآية

قال ابن الجوزى: إنهم السابقون إلى الإيمان من كل أمة ج ٨ ص ١٣٣
وخديجة رضي الله عنها من أول المؤمنات.

وقال الحسن: الذين صلوا إلى القبلتين وخديجة بنت خويلد منهم.

وقال القرطبي: السابقون إلى الإيمان من كل أمة وخديجة من السابقات
إلى الإيمان والتصديق بمحمد - صلى الله عليه وسلم - ج ٩ ص ١٩٩.

فمن هى خديجة بنت خويلد - رضي الله عنها - ؟..



يقول الرسول ﷺ:

«أمرت أن أبشر خديجة ببيت من قصب لا صخب فيه ولا نصب. وقال

ﷺ:

«يا خديجة هذا جبريل يقرئك السلام من ربك»

هذا الحديث رواه مسلم متصلاً

عن هشام بن عروة عن أبيه





حياتها ونشأتها

أم المؤمنين صاحبة الصفاء والنقاء والطهر.

كانت أول من نطق بشهادة التوحيد بعد الرسول - ﷺ - وكفرت بعبادة الأصنام والأوثان.

نشأت في رحاب مكة وبيت الله الحرام والتقطت أذنائها من أبيها خويلد ابن أسد وأمها فاطمة بنت زائدة.. أسس الأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة وعرفت مع لداتها مرح الطفولة وهن يتسمعن إلى شقشقة العصافير عندما يظهر على الوجود ضوء الفجر الوليد..

وكثيراً ما كان يصحبها والدها إلى بيت الله الحرام. فتشاهد الأصنام المرفوعة والأوثان الموضوعة- وجماعات الناس وهم يقدمون لها القرابين وهي لا تفصح ولا تبين.

خديجة بنت خويلد وفيل أبرهة

تقول خديجة ﷺ أيقظني والدي أنا وإخوتي مبكرين وأخذ يهرول بنا مع المهرولين خارج مكة- لنقيم في الشعاب بعيداً عن غضب الفيل وزمجرته- والذي جاء به أبرهة ملك الحبشة لهدم بيت الله الحرام. وعرفت فيما بعد أن أبرهة طلب سيد قريش عبد المطلب بن هاشم ليقول له: إنني لم آت لحريكم إنما جئت لهدم هذا البيت فإن لم تعرضوا لنا بحرب فلا حاجة لنا بدمائكم.

وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم- فلما رآه أبرهة أجله وأكرمه ثم قال لترجمانه.

قل له ما حاجتك؟..

فقال له ذلك الترجمان.

فقال عبد المطلب: حاجتى أن يرد الملك مائتى بغير لى استولى عليها جنده.

فلما قال ذلك قال أبرهة لترجمانه قل له: قد كنت أعجبتى حين كلمتى؟..

أتكلمنى فى مئتى بغير. وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه، لا تكلمنى فيه؟..

قال عبد المطلب: إنى أنا رب الإبل، وإن للبيت رباً سيمنعه.

قال: ما كان يمتع منى..

قال عبد المطلب: أنت وذاك؟..

ثم انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر، وأمرهم بالخروج من مكة والاحتفاء فى رؤوس الجبال والمواقع الخلفية منها. تخوفاً عليهم من هجوم جيش أبرهة.

ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستتصرونه على أبرهة وجنده وقال عبد المطلب وهو ماسك بحلقة باب الكعبة:

لا هُمَّ إن العبد يمنع رحله فامنع حلالك

لا يغلبن صليبهم ومحالهم غدواً محالك

ثم لحق بقومه الذين خرجوا من مكة وتركوا ديارهم وما حوت فى رعاية

ربهم ولما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وهياً فيله وعباً جيشه. وكان اسم الفيل محموداً وأبرهة مجمع على هدم البيت.

فلما وجهوا الفيل إلى مكة أقبل نفيل بن حبيب وأخذ بأذن الفيل فقال ابرك يا محمود أو ارجع راشداً من حيث أتيت.

يا محمود إنك في بلد الله الحرام. ثم أرسل أذنه فبرك الفيل.

ثم ماذا؟.. ضربوا الفيل ليقوم فأبى.

واستعملوا معه كل أنواع التعذيب فتحملها صابراً وأبى.

فوجهوه إلى الشام فاشتد عوده إليها. ووجهوه إلى المشرق فاشتد عوده إليها.

ثم وجهوه إلى مكة مرة ثانية فبرك. ثم ماذا؟..

فكروا في العودة إلى اليمن ولكن رب الحرم لم يتركهم حتى يعودوا سالمين. فأرسل عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والزرزير مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها حجراً في منقاره وحجرين في رجليه، لا تصيب منهم أحداً إلا هلك.

ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله حرمة شهرهم.

خديجة - رضى الله عنها -

وتعرفها بمحمد - ﷺ -

قال ابن إسحاق: كانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال وكانت تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم. تفعل خديجة ذلك لأن قريشاً كانت مشهورة بتجارتهما.

وفى يوم من الأيام بلغها عن محمد بن عبد الله الأمين الصادق ما بلغها من صدق حديثه، وعظيم أمانته، وكرم أخلاقه.

عندها بعثت إليه وعرضت عليه أن يخرج في مالها إلى الشام تاجراً، وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار.

ويرافقه في رحلته هذه غلام لها يقال له ميسرة.

فقبل الرسول ﷺ هذا العرض، ثم خرج في مالها ومعه ميسرة حيث قدما الشام.

عندها نزل رسول الله ﷺ من على ناقته وجلس تحت شجرة وكانت الشجرة قريبة من صومعة راهب من أهل الكتاب.

فاطلع الراهب من نافذة صومعته وقال لميسرة.

من هذا الرجل الذى نزل تحت هذه الشجرة؟

قال ميسرة: هذا رجل من قريش من أهل الحرم.

فقال الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي..

ثم باع رسول الله ﷺ تجارته التى خرج بها، واشترى ما أراد أن يشتري. ثم أقبل راجعاً إلى مكة ومعه ميسرة.

فكان ميسرة يقول: إذا كانت الهاجرة واشتد الحر - يرى ملكين يظلان رسول الله ﷺ من الشمس وهو يسير على بعيره.

فلما قدم محمد على خديجة بمالها: باعت ما جاء به من أرض الشام بضعف ما كان يشتري به. ثم ماذا؟

حدثها ميسرة عن قول الراهب. وعما كان يرى من إضلال الملكين له عند سيره.

وكانت خديجة رضى امرأة حازمة شريفة راجحة العقل والفكر فلما أخبرها ميسرة بما أخبرها به بعثت إلى رسول الله رضى.

رغبة خديجة في الزواج من محمد رضى

جاء الرسول رضى إلى خديجة. فلما جلس أمامها قالت له: «يا بن عم: إنى قد رغبت فيك لقربائك وسمعتك الطيبة بين قومك وأمانتك وحسن خلقك. وصدق حديثك.

ثم عرضت عليه نفسها.

وكانت خديجة فى ذلك الوقت من أوسط نساء قريش نسباً، وأعظمهن شرفاً.

وأكثرهن مالاً وعزاً. وهى خديجة بنت خويلد بن أسد. وأمها فاطمة بنت زائدة. من كرام الأسر فى قريش وما جاورها من البلاد والعشائر.

ثم انصرف رسول الله رضى بعد أن وعدها خيراً ثم عرض هذا الزواج على أعمامه. فخرج معه عمه حمزة بن عبد المطلب فارس الفرسان وأكرم الرجال وأشجع الشجعان ثم دخلا على خويلد بن أسد وخطبا منه خديجة فوافق على الزواج.

ثم أصدقها رسول الله رضى عشرين بكرة من الإبل. وكانت خديجة أول من تزوجها محمد رضى وغنى الوجود كله لخديجة. وأصبحت زوجة للرجل الذى عما قريب ستسمع به الكرة الأرضية كلها عندما يأتيه الوحي من ربه

ويقف على الصفا والمروة ويقول لآل قريش إني رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة.

وقد ولدت خديجة من زوجها محمد ﷺ: القاسم، ثم الطيب ثم الطاهر هذا من البنين. أما البنات فكانت أكبرهن رقية ثم زينب ثم أم كلثوم ثم فاطمة- رضوان الله عليهم أجمعين.

ولقد أدركت بناته كلهن الإسلام فأسلمن. وهاجرن معه ﷺ إلى يثرب مدينة الرسول ﷺ.

حديث خديجة مع ورقة بن نوفل

قال ابن إسحاق:

وكانت خديجة قد ذكرت لورقة بن نوفل بن أسد، وكان ابن عمها. وكان نصرانياً قد تتبع الكتب وعلم من علم الناس- ما ذكر لها غلامها ميسرة من قول الراهب.

فقال ورقة:

لئن كان هذا حقاً يا خديجة إن محمداً لنبي هذه الأمة.

وقد سبق أن عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبي ينتظر. وهذا زمانه. الذي أخبر به الأنبياء من قبله.

حديث بنيان الكعبة وحكم رسول الله ﷺ بين قريش فى وضع الحجر

لما بلغ رسول الله ﷺ خمساً وثلاثين سنة- اجتمعت قريش لبنيان الكعبة، فلما أجمعوا أمرهم فى هدمها وبناؤها قام أبو وهب بن عمرو فتناول حجراً، فوثب الحجر من يده حتى رجع إلى موضعه.

فقال: يا معشر قريش: لا تدخلوا فى بنائها من كسبكم إلا طيباً، لا يدخل فيها مهر بفى.

ولا بيع ربا.

ولا مظلمة أحد من الناس.

ثم إن الناس هابوا هدمها وخافوا منه.

فقال الوليد بن المغيرة: أنا أبدؤكم به فأخذ المعول ثم قام عليها وهو يقول اللهم لم ترع. اللهم إنا لا نريد إلا الخير.

فتريص الناس تلك الليلة. وقالوا: ننظر فإن أصيب الوليد لم نهدم منها شيئاً. ورددناها كما كانت، وإن لم يصبه شيء فقد رضى الله صنعنا فنهدمها.

فأصبح الوليد من ليلته غادياً على عمله فهدم وهدم الناس معه، حتى انتهى الهدم بهم إلى الأساس أساس إبراهيم عليه السلام الذى وضعه وقد وجدت قريش فى الركن كتاباً بالسريانية فإذا فيه: «أنا الله ذو بكة خلقتها يوم خلقت السماوات والأرض وصورت الشمس والقمر. وحففتها بسبعة أملاك حفاء لا تزول حتى تزول جبالها، ثم إن قريشاً أخذت فى البناء حتى بلغ البنيان موضع الركن، فاختصموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى- حتى انحازت كل قبيلة إلى جهة وتحالفوا وأعدوا أنفسهم للقتال.

ثم إنهم اجتمعوا فى المسجد وتشاوروا وتناصحوا، وتناصفوا ثم قام

أبو أمية بن المغيرة وقال: يا معشر قريش:

«اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم فيه ففعلوا.

فكان أول داخل عليهم رسول الله ﷺ.

فلما رأوه قالوا:

«هذا الأمين: رضينا، هذا محمد. فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر. قال ﷺ: هلم إليّ ثوباً.

فأتى به فأخذ الركن فوضعه فيه بيده ثم قال:

لتأخذ كل قبيلة بناحية الثوب. ثم ارفعوه جميعاً ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه الرسول بيده ثم بنى عليه.

وهكذا استطاع محمد الأمين- أن يوقف القتال بين القبائل في مكة وأن يرضى الجميع بحسن التفكير والإلهام من الله ولهذا كان قوله: «اتقوا الله ويعلمكم الله». يعلمكم الحكمة والتدبير.

يعلمكم حسن التعامل مع الآخرين لتكونوا يداً واحدة وصدق ربي في قوله: «وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ»^(١).

تذهب قوتكم ويذهب عزكم وتكونوا أذلاء ضعفاء أمام عبدة الشيطان فمتى يعي المسلمون هذا الدرس..؟

متى يكونون يداً واحدة ضد الباطل وجنوده.

متى يقفون صفاً قوياً ضد الفساد والإفساد التي تحاول أن تتال من مقدساتنا؟

(١) سورة الأنفال آية رقم: ٤٦.

مبعث النبي ﷺ

لما بلغ محمد رسول الله ﷺ أربعين سنة، بعثه الله تعالى رحمة للعالمين، وكافة للناس أجمعين بشيراً ونذيراً.

وكان الله تعالى قد أخذ الميثاق على كل نبي بعثه قبله بالإيمان به والتصديق له، والنصر له على من خالفه يقول الله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ (١).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: أن أول ما بدئ به الرسول ﷺ الرؤيا الصادقة.

لا يرى رسول الله ﷺ رؤيا في نومه إلا جاءت كفلق الصبح.

قالت: وحبب الله تعالى إليه الخلوة، فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده.

وكان ﷺ إذا خرج لحاجته أبعد حتى تبعد عنه المنازل ويفضي إلى الأماكن الخفية من الجبال المحيطة بمكة.

وكان لا يمر رسول الله ﷺ بحجر ولا شجر إلا قال: السلام عليكم يا رسول الله.

قال: فيلتفت رسول الله ﷺ حوله عن يمينه وعن شماله وخلفه فلا يرى إلا الشجر والحجارة.

فمكث رسول الله ﷺ كذلك يرى ويسمع ما شاء أن يمكث.

ثم جاءه جبريل الأمين عليه السلام بما جاءه من كرامة الله وهو بفار حراء في شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان.

(١) سورة آل عمران آية رقم: ٨١.

الرسول - ﷺ - وجبريل عليه السلام

قال رسول الله ﷺ جاءني جبريل وأنا نائم بوعاء من ديباج فيه كتاب.
فقال: اقرأ.

قلت: ما أقرأ..

قال: فضمني إليه حتى ظننت أنه الموت..

ثم أرسلني. وقال: اقرأ..

قال: قلت.. ماذا أقرأ...

قال: فضمني به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني.

وقال: اقرأ.

قال: فقلت: ماذا أقرأ.

فقال ﷺ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (١).

قال: فقرأتها. فانصرف عني وهبت من نومي. فكانما كتبت في قلبي كتاباً.

قال: فخرجت حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول: «يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل».

قال: فرفعت رأسي إلى السماء أنظر: فإذا جبريل رجل صاف قدميه في أفق السماء يقول:

«يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل».

قال: فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء.

(١) سورة الملوك الآيات من ١ - ٥.

قال: فما أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك. فمأزلت واقفاً ما أتقدم ولا أتأخر حتى بعثت خديجة رسولها في طلبى. فبلغوا أعلى مكة ورجعوا إليها وأنا واقف في مكانى ذلك. ثم انصرف عني.

رسول الله - ﷺ - يقص على خديجة ما كان من أمر جبريل

يقول الرسول ﷺ ثم انصرفت راجعاً إلى أهلى حتى أتيت خديجة فجلست على فخذي ملتصقاً بها.

فقالت: يا أبا القاسم: أين كنت؟ فوالله لقد بعثت رسلى في طلبك حتى بلغوا مكة. ورجعوا إلى.

قال: ثم حدثتها بالذى رأيت. فقالت:

«أبشري يا بن عم وأثبت فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة.

خديجة بين يدى ورقة تحدث عن رسول الله ﷺ

ثم قامت خديجة فجمعت ثيابها، ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل بن أسد وهو ابن عمها وكان ورقة قد تنصر وقرأ الكتب، وسمع من أهل التوراة والإنجيل، فأخبرته بما أخبرها رسول الله ﷺ.
كانه رأى وسمع.

فقال ورقة بن نوفل: قدوس. قدوس. والذى نفسى بيده لئن كنت صدقتنى يا خديجة: لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى وإنه لنبى هذه الأمة.

ثم استأنف حديثه قائلاً: فقولى له فليثبت.

فرجعت خديجة إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بقول ورقة بن نوفل فلما قضى رسول الله جواره وانصرف.. صنع كما كان يصنع بدأ بالكعبة فطاف بها فلقية ورقة بن نوفل وهو يطوف بالكعبة فقال:

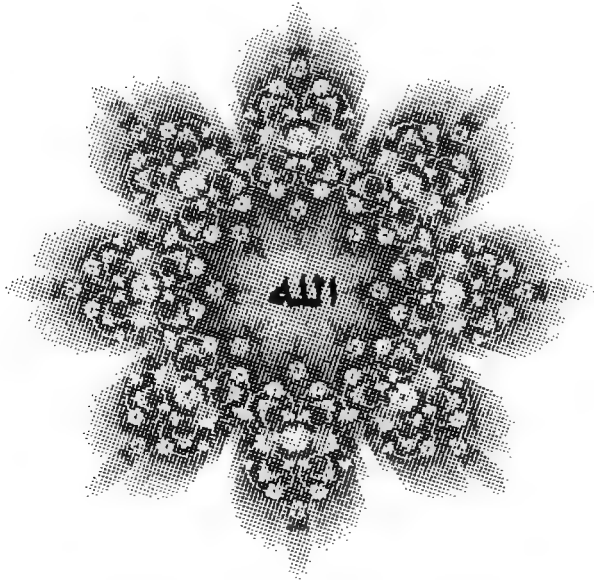
يا ابن أخى أخبرنى بما رأيت وسمعت..؟

فأخبره رسول الله ﷺ .

فقال له ورقة: والذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى ﷺ :

ثم قال: ولتكذبن. ولتؤذين، ولتخرجن ولتقاتلن. ولئن أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه.

ثم ماذا؟ أدنى ورقة رأس الرسول ﷺ فقبلها- ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى منزله.



امتحان خديجة برهان الوحي

قالت خديجة ﷺ لرسول الله ﷺ أى ابن عم أتستطيع أن تخبرنى بصاحبك هذا الذى يأتيك إذا جاءك؟..

قال ﷺ: نعم.

قالت خديجة: فإذا جاءك فأخبرنى به.

فجاءه جبريل فقال ﷺ: يا خديجة: هذا جبريل؟..

قالت خديجة: قم يا ابن عم فاجلس على فخذى اليسرى.

قال: فقام رسول الله ﷺ فجلس عليها.

قالت خديجة: هل تراه؟..

قال: نعم.

قالت: فتحول فاجلس على فخذى اليمنى.

فتحول رسول الله ﷺ وجلس على فخذه اليمنى.

فقالت: هل تراه.

قال ﷺ: نعم.

قالت: فتحول فاجلس فى حجرى.

قالت: فتحول رسول الله ﷺ فجلس فى حجرها.

قالت: هل تراه؟..

قال: نعم.

قال: فتحسرت وألقت خمارها ورسول الله ﷺ جالس فى حجرها.

قالت: هل تراه؟..

قال ﷺ: لا.

قالت: يا بن عم أثبت أثبت وأبشر فوالله إنه لملك وليس بشيطان.

ابتداء تنزيل القرآن

على الرسول ﷺ

قال ابن إسحاق: فابتدئ رسول الله ﷺ بالتنزيل في شهر رمضان الذي قال الله تعالى فيه.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ (١).

وقال تعالى:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ (٢).

وقال الله تعالى: ﴿حَمِّ (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ (٣).

إسلام خديجة بنت خويلد رضي الله عنها

آمنت خديجة بنت خويلد، وصدقت بما جاءه من الله. ووازرته على أمره وكانت أول من آمن بالله ورسوله، وصدق بما جاء منه فخفف الله بذلك عن نبيه ﷺ. لا يسمع شيئاً مما يكرهه من رد عليه وتكذيب له. فيحزنه ذلك إلا فرج الله عنه إذا رجع إليها تثبته وتخفف عليه وتصدقه وتهون عليه أمر الناس.

(١) سورة البقرة آية رقم ١٨٥.

(٢) سورة القدر كاملة.

(٣) سورة الدخان الآيات من ١ - ٥.

تبشير خديجة ببیت من قصب

قال ابن إسحاق: بسنده عن جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ.

«أمرت أن أبشر خديجة ببیت من قصب» (١) لا صخب فيه ولا نصب» (٢).

قال ابن هشام: وحدثني من أثق به أن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ فقال: «أقرئ خديجة السلام من ربها».

فقال رسول الله ﷺ - يا خديجة: هذا جبريل يقرئك السلام من ربك.

ف قالت خديجة: الله السلام، ومنه السلام وعلى جبريل السلام.

قال ابن إسحاق: ثم فتر الوحي عن رسول الله ﷺ فترة حتى شق ذلك عليه فأحزنه. فجاءه جبريل عليه السلام بسورة الضحى يقسم له ربه، وهو الذى أكرمه بما أكرمه به» ما ودعه وما قللاه فقال: «وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣)

وما أبغضك منذ أحبك.

﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ (٤).

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ (٥)

من النصر فى الدنيا والثواب فى الآخرة.

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ (٨).

يعرفه الله ما ابتدأه به من كرامته فى عاجل أمره، ومنه عليه فى آجله

(١) القصب ههنا اللؤلؤ المجوف.

(٢) هذا الحديث رواه مسلم متصلاً عن هشام عن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها.

(٣) سورة الضحى آية رقم ١ - ٣. (٤) سورة الضحى آية رقم ٤.

(٥) سورة الضحى آية رقم ٥. (٦) سورة الضحى آية رقم ٦ - ٨.

وحفظه من الضلالة واستنقاذه من ذلك كله برحمته.

﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (١) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ (١).

أى لا تكون جباراً ولا متكبراً.

ولا فاحشاً فظاً على الضعفاء من عباد الله.

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (٢).

أى اذكرها وادع إليها، فجعل رسول الله ﷺ يذكر ما أنعم الله به عليه وعلى العباد به من النبوة سرّاً إلى من يطمئن إليه من أهله.

وفاة خديجة - رضى الله عنها -

توفيت أم المؤمنين خديجة عليها السلام قبل هجرة الرسول ﷺ إلى يثرب بثلاث سنوات فى مكة ولها من العمر خمس وستون ولما حضرتها الوفاة. دخل عليها النبى ﷺ فقال: تكرهين ما أرى منك وقد جعل فى الكره خيراً».

وذلك لقوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٣).

وعند دفنها نزل رسول الله ﷺ فى حفرتها. وأدخلها القبر بيده الشريفة فى الحجون» (٤).

ووجد عليه السلام لفقدها وتركت وفاتها فى نفسه أثراً عميقاً إذ كانت الزوجة الوفية التى يجد فيها سكن النفس وراحة الزوج.

كما كان لموت عمه أبى طالب قبلها أثر كبير فى نفسه أيضاً حتى أطلق النبى ﷺ على ذلك عام الحزن لشدة ما كان فيه من الشدائد فى سبيل الدعوة أيضاً.

(٢) سورة الضحى آية رقم ١١.

(١) سورة الضحى آية رقم ٩ - ١٠.

(٤) أحد جبال مكة المكرمة.

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢١٦.

والنبي ﷺ لم يحزن على فراق عمه، وفراق زوجه ذلك الحزن الشديد ولم يطلق على تلك السنة عام الحزن لمجرد أنه فقد بعض أقاربه فاستوحش لفقدهم بل سبب ذلك ما أعقب وفاتهم من انغلاق معظم أبواب الدعوة الإسلامية في وجهه. فقد كانت حماية عمه له تترك مجالات كثيرة للدعوة، وسبلاً مختلفة للتوجيه والإرشاد والتعليم، وكان يرى في ذلك بعض النجاح في العمل الذي أمره به ربه (١).

ولقد ترك موت أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها فراغاً كبيراً في حياة رسول الله ﷺ.

أحس به إحساساً قوياً حتى خشى عليه.

لقد غدا البيت بموتها خلاء موحشاً لا أنيس به ولا سميع. ولما قالت له خولة بنت حكيم يا رسول الله كأنى أراك قد دخلتك خلة لفقد خديجة؟

قال ﷺ: أجل كانت أم العيال وربة البيت.

ولقد صدق الشاعر المتنبى في قوله:

وما التأنيث لاسم الشمس عيب

ولا التنكير فخر للهلال

ولو كان النساء كمن فقنا

لفضلت النساء على الرجال

لقد بقيت خديجة مع الرسول - ﷺ - زوجة صالح مؤمنة أربعاً وعشرين سنة وأشهرًا ثم توفيت.

يقول ابن كثير في كتابه «الفصول» وللسيدة خديجة رضى الله عنها أوليات كثيرة لم تسبق إليها من ذلك:

أول من تزوج رسول الله ﷺ «خديجة» وأول من آمن به وصدقته خديجة.

(١) في ظلال القرآن سيد قطب.

وأول من صلى مع الرسول ﷺ الصلوات المفروضة.

وأول النساء التي رزق الرسول منها بالولد.

وأول من بشرها رسول الله ﷺ بالجنة.

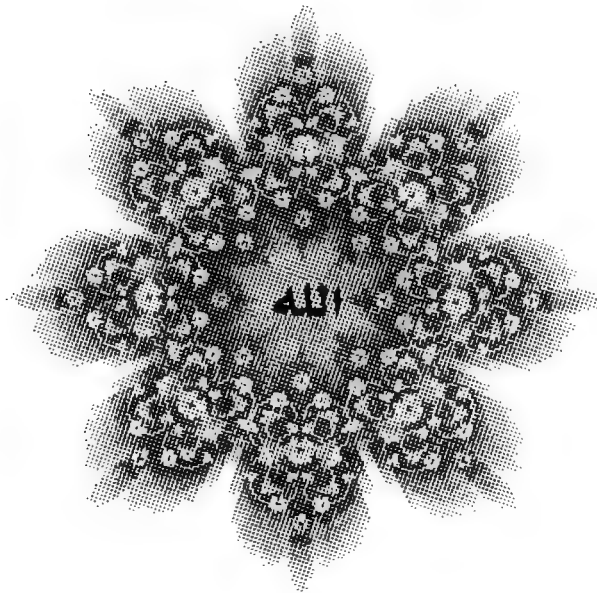
وأول من أقرأها ربها السلام.

وأول صديقة من المؤمنات.

وأول زوجات النبي ﷺ وفاة.

رحم الله أم المؤمنين واسكنها فسيح جناته في الفردوس الأعلى عند

ملك مقتدر.





المرأة هذا الجهاز العجيب..؟؟

المرأة جهاز روحى عجيب، يلقي فى قلب الرجل أسرار القوة ومعانى الثقة بالنفس.

والمرأة إنسان كريم وأسمى ما فيها إنسانيتها الرفيعة، وقد قضت سنة الله أن تجعل كرامتها منوطة برعاية أماناتها الخاصة، وأن تجعل سعادتها منوطة بأداء وظائف تلك الأمانات، أمأً وزوجة وربة بيت.

فإن كانت أمأً ففى طاعتها رضوان الله تعالى. وتحت أقدامها الجنة وإن كانت زوجة صالحة فهى أفضل ذخريستفيده المرء من دنياه بعد تقوى الله.

وهى الحسنه التى يطلبها المؤمن من ربه صباح مساء ويتمناها فى دنياه وآخرته كما قال تعالى:

﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (١).

وإن كلمة واحدة منها- لزوجها- وهو يشكو جور الزمان أو منافسة الأقران أو مكائد الرجال كفيلا أن تمدد بطاقات عجيبة من الهمة والأمل والثقة بالنفس، فإذا هو خلق جديد، وبناء غير الذى كان يوشك أن ينهار.

إن المرأة فى منهج الإسلام هى الستر والوقاية، هى الحفظ والرعاية تلتقى بزوجه فتكاشفه بسرهما، ويفضى بين يديها بجملة حاله... تعرف ماضيه وحاضره، وتتطلع إلى مشاريعه ومستقبله، وتساهم معه فى معركة الحياة الضارية التى يخوضها بنية توفير الحياة الهادئة التى يريدانها معاً، حتى يوفقهما الله سبحانه وتعالى فى تربية الأولاد ويقيما دعائم عشهما الصغير على الود والمحبة.

إن الله سبحانه وتعالى عبر عن الحياة الزوجية باللباس قال تعالى: ﴿هُنَّ

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٠١.

لِبَاسٍ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴿١﴾.

واللباس فى حقيقته لا يستغنى عنه الإنسان فى هذه الرحلة رحلة الحياة: فهو الذى يحول بينه وبين وقدة الصيف ولفحة الشمس، وهو الذى يدثره ويبعث الدفء فى أوصاله فى ليالى الشتاء. وهو فوق ذلك يستر تشوهات الجسم وعيوبه بالنسبة لكل منهما فلا تمجها العيون أو تنفر منهما الآخرين.

وهو بالنسبة للمرأة ستر ووقاية أيضاً يستر محاسنها ومفاتنها ويقي جسدها من عيون الرجال المتلصصة ومن فى قلوبهم مرض وإذا كان هذا بالنسبة للباس... فماذا بالنسبة للرجل والمرأة فى حياتهما الزوجية...؟

إن كلاهما ستر للآخر، ستر لأقواله وأفعاله، وحفظ لأسراره وما يخفيه. فالمرأة ستر للرجل ووقاية، عندما يوشك أن تغلبه الإرادة. والرجل ستر للمرأة وصيانة عندما تغلبها العاطفة وسيطر عليها ضعف الأنثى.

والله سبحانه وتعالى يقول بالنسبة للنساء فى وصفهن والقيام بواجبهن تجاه أزواجهن وأمام ربهن:

﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ (٢).

حافضة لزوجها فى حياته الخاصة والعامة. وحافضة على ماله وأولاده، وحافضة لأسراره وأقواله.

وحافضة لماء وجهه فلا تكلفه من المطالب المعيشية ما لا يقدر عليه. لأن هذا يؤذيه فى شعوره. وقد يضطر أن يبحث عن وسائل للكسب الحرام حتى يرضى زوجته.

وقد كانت الزوجة من السلف الصالح تقول لزوجها إذا خرج إلى عمله: اتق الله وإياك والكسب الحرام فإننا قد نصبر على الجوع والضر، ولكننا لا

(١) سورة البقرة آية رقم ١٨٧.

(٢) سورة النساء الآية رقم ٣٤.

نصبر على النار.

ومن جملة ما يحفظ ما يكون بينهما من علاقات خاصة فلا تكون حديثاً في المجالس أو سمرأ في الندوات مع الأصدقاء والصديقات ففي الحديث عن رسول الله ﷺ: «إن من أشر الناس منزلة يوم القيامة الرجل يفضي إلى المرأة، والمرأة تفضي إليه ثم ينشر سرها»^(١). وفي رواية لمسلم: «إن من أعظم الأمانة... على حذف المضاف، أي أعظم خيانة للأمانة.

والحديث الآخر رواه أبو هريرة من قوله: صلى بنا رسول الله ﷺ، فلما سلم أقبل علينا بوجهه فقال: مجالسكم هل منكم الرجل إذا أتى أهله أغلق بابه وأرخى ستره، ثم يخرج فيحدث فيقول فعلت بأهلى كذا..؟ فسكتوا.

فأقبل على النساء فقال: هل منكن من تحدث..؟

فجث فتاة كعاب على إحدى ركبتيهما، وتناولت ليراها رسول الله ﷺ ويسمع كلامها فقالت:

إي والله إنهم يتحدثون، وإنهن ليتحدثن.

فقال ﷺ: «هل تدرون ما مثل من فعل ذلك؟ مثل شيطان وشيطانة لقي أحدهما صاحبه بالسكة فقضى حاجته منها والناس ينظرون إليه»^(٢).

وبعد هذا الأدب النبوي الكريم لأمته، هل يجوز للمرأة التي عرفت القليل والكثير عن حياة زوجها أن تكشف سره..؟ وأن تتحدث للآخرين به، وأن توضح لهم ما يريد أن يخفيه عنهم أو يكتمه عن دنياهم..؟

الحقيقة أن بعض النساء يفعلن ذلك، وينشرن على الآخرين ما يجب أن يخفى، ونتيجة هذا الإفشاء، غالباً ما تكون وخيمة وقد يؤدي إلى الانفصال أو الطلاق.

(١) أخرجه مسلم (١٤٣٧) وأبو داود (٤٨٧٠) وأحمد ٢/ ٦٩ من حديث أبي سعيد الخدري.

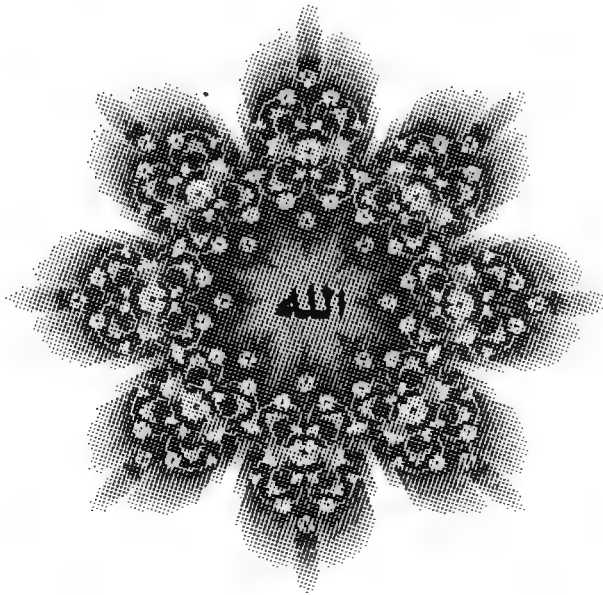
(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» ٢/ ٥٤١، وأبو داود (٢١٧٤) في النكاح.

... وقد يكتُم الرجل سرّاً يخفيه عن كل ما حوله. وتأتى المرأة فتكشف هذا السر، فيكون نتيجة ذلك القتل أو السجن أو مشاكل لا تقف عند حد. والدليل على ذلك سر رسول الله الذى ألقى به لأم المؤمنين حفصة فأفشته، فكان ما كان، من هجر زوجاته شهراً على ما يقال، والتفكير فى الانفصال عنهن جميعاً...

فالمراة العاقلة هى التى تحافظ على أسرار زوجها.. ولا تعلنها للآخرين.. ولو كانوا أقرب المقربين إليها- حرصاً على سلامة الأسرة، وسعادة البيت وتربية الأطفال.

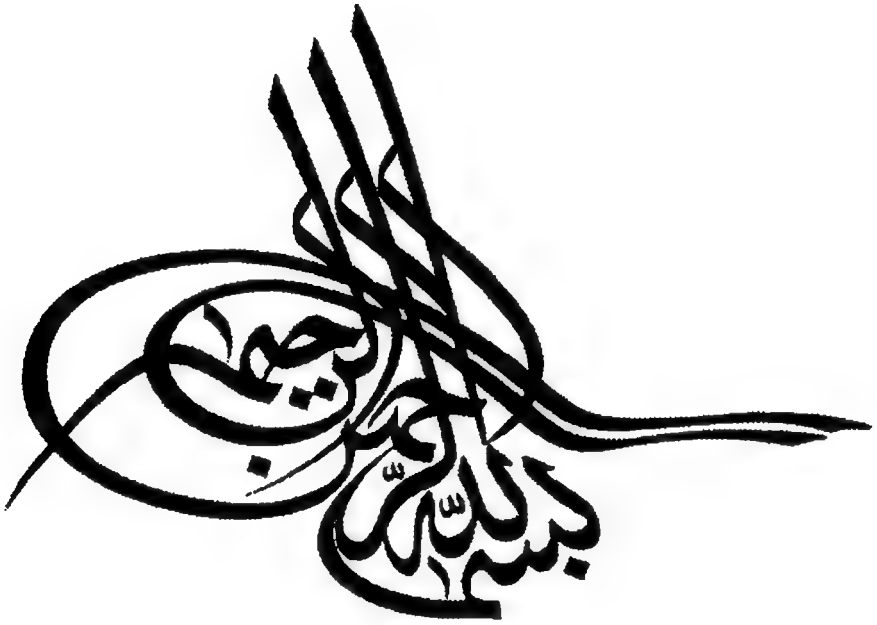
فهل تراهن فاعلات..؟

نرجو من الله ذلك.



ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين

رضي الله عنها



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ
أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ
وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ
خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ
وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا
خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا
عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا
يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾

(الأحزاب: ٥٠)

أقوال العلماء والمفسرين فى نزول هذه الآية

قال كثير من رجال التفسير والحديث نزلت هذه الآيات فى ميمونة بنت الحارث، وخولة بنت حكيم وأم شريك

قال ذلك الإمام الطبرى فى التفسير ج ٢٢ ص ٢٣

وقاله الإمام القرطبى فى التفسير ج ١٤ ص ٢٠٨ ط دار الكتب المصرية

وقاله ابن كثير فى التفسير ج ٣ ص ٧٠٥

وقاله ابن الجوزى فى زاد المسير فى علم التفسير ج ٨ ص ٤٠٥، ٤٠٦

وقاله ابن سعد فى طبقاته ج ٨ ص ١٣٢

فمن هى ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها ٥٠٠



حياتها ونشأتها

والدها الحارث بن حزن، من قبيلة هوازن أصحاب معركة حنين التي نزل فيها قول الله تعالى مخاطباً جماعة المسلمين:

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ (١).

وأما هند بنت عوف من كريمات الأسر من قريش، ويتحدث التاريخ عن زفافها للحارث بأنه كان يوماً مشهوداً بين القبائل نحت فيه كرائم الإبل وتتسابق إليه عليه القوم وشهدت ساحته فرسان القبيلتين. على صهوات خيولهم بسواعدهم المفتولة،

وسيوفهم المرفهة.

وبراعتهم في اقتناص الطيور الجارحة.

واصطياد الحيوانات الشاردة.

ثم عاش العروسان عيشة سعيدة، وحياة هنيئة رغيدة، ورزقهما الله بالعديد من البنات الصبوحات الوجه المعتدلات القد.

ومن هؤلاء البنات أم الفضل لبابة الكبرى زوج العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ.

(١) سورة التوبة آية: ٢٥.

ووالد حبر الأمة عبد الله بن عباس الذي دعى له الرسول بقوله: «اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل»^(١).

ولبابة الصغرى: زوج الوليد بن المغيرة المخزومي الذي نزل فيه قول الله تعالى: ﴿ذُرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ۖ (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً ۖ (١٢) وَبَيْنَ شُهُوداً ۖ (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً ۖ (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۖ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً﴾^(٢).

ومن أولاده: خالد بن الوليد سيف الله المسلول، والقائد الذي لم يهزم قط. والذي قال عنه رسول الله ﷺ:

«خالد بن الوليد سيف من سيوف الله سله الله على المشركين».

وعصماء بنت الحارث كانت تحت أبي بن خلف الجمحي الذي كان يلقي رسول الله ﷺ بمكة فيقول:

يا محمد إن عندي فرساً أعلفه كل يوم فرقاً من ذرة أقتلك عليه. فيقول رسول الله ﷺ: «بل أنا أقتلك إن شاء الله»^(٣).

فلما كانت غزوة أحد والرسول ﷺ جالساً في الشعب أدركه أبي بن خلف وهو يقول: أين محمد؟ لا نجوت إن نجا.

فقال رسول الله ﷺ: «دعوه» فلما دنا منه تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة ثم استقبله فطعنه طعنة مال منها عن فرسه مراراً.

فلما رجع إلى قريش احتقن الدم من هذه الطعنة فقال: قتلني والله محمد.

قالوا له: ما بك من بأس. قال: «إنه كان قال لي بمكة: أنا أقتلك. فوالله لو بصق عليّ لقتلني. فمات عدو الله بمكان يقال له سرف بالقرب من بيت الله الحرام»^(٤).

(١) رواه البخاري في فضائل الصحابة ١٢٨ وأحمد بن حنبل في المسند ١: ٣٦٦.

(٢) سورة المدثر الآيات: ١١-١٦.

(٣) راجع سيرة ابن هشام عند الحديث عن غزوة أحد. (٤) المصدر السابق.

وعزة بنت الحارث التي تزوجت زياد بن عبد الله بن مالك الهلالي. يصمت التاريخ فلا يذكرهما من قريب أو بعيد.

هؤلاء النسوة هن أخوات شقيقات لأم المؤمنين ميمونة بنت الحارث وأمهـن هند بنت عوف.

أما أخواتها لأمها فمنهن: أسماء بنت عميس زوج جعفر بن أبي طالب - رضي الله عنه - والتي هاجرت مع زوجها جعفر بن أبي طالب، ثم هاجرت إلى المدينة فلما قتل جعفر بن أبي طالب في غزوة مؤتة تزوجها أبو بكر الصديق رضي الله عنه فلما مات تزوجها علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ^(١).

ولقد كانت أم المؤمنين تسمى برةً فسماها رسول الله ﷺ ميمونة. ويحدثنا التاريخ عنها حديثاً عجيباً لقد نشأت على بطاح مكة، وترعرعت على ثراها الطيب، وهي واحدة من عشر أخوات نشأت بين أحضان أم أحسنت تربيتهن وقامت بتدريبهن على حسن معاملة الزوج، وإجابة مطالبه، وتجميل الحياة في عينيـه. وأب عرف بالشفقة والحدب عليهن.

ولقد تزوجت ميمونة قبل الرسول ﷺ حويطب بن عبد العزى. ولكننا نقف حيارى أمام حويطب هذا. لأن المصادر التي بين أيدينا لا تسرف في ذكره ولا تقدم لنا ما يجلى حياته وسيرته. فهل كان فارساً من فرسان قريش؟

هل عرفته ساحات الحرب وحلبات الصراع؟ هل كان تاجراً من تجار قريش يقطع دائماً إلى أرض الشام رحلة الشتاء والصيف التي حدثنا عنها كتاب الله تعالى بقوله:

﴿لَا يَلَفُ قَرِيْشٌ (١) إِلَّا فِيْهِمْ رِحْلَةُ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣)﴾

(١) راجع الاستيعاب في معرفة الأصحاب ٤: ١٩١٦.

الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (١)

أم أنه كان راعياً للابل والغنم وسائساً للخيـل، ومدرّباً لها يسرح في الصحراء الممتدة، وتراه دائماً عند تجمع العشب، ووجود المياه في الغدران؟ لا ندرى عن ذلك شيئاً.

وكيف كانت حياة ميمونة معه.. هل كانت سعيدة؟

هل أنجبت له البنين والبنات؟ وهل انفصل عنها إلى غيرها؟

أم ترى جاءه أجله، وفارقت روحه جسده، وغيب تحت الثرى؟

إن ذاكرة التاريخ لا تعي من ذلك شيئاً؟ ولكن هذه الذاكرة التي تجاهلت الكثير من حياة ميمونة، تعود إليها لتسجل نبضات قلبها وهي تستمع لأخبار الرسول ﷺ وهو يأمر بإخراج يهود بنى النضير من جزيرة العرب.

والتي نزل فيهم قول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنْهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِ الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ (٢)﴾.

وأخذت ميمونة تسترجع هذه الأحداث أحداث هزيمة بنى النضير وإجلالهم.

وهم أصحاب الحصون العالية، والقوة الضاربة.

والأدعياء الذين يقولون نحن أبناء الله وأحباؤه.

كيف تغلبت عليهم هذه القوة المحدودة من أتباع محمد؟

وماذا فعل محمد لهؤلاء الرجال حتى أصبحوا القوة الضاربة التي لا تقهر؟

(١) سورة قريش كلها.

(٢) سورة الحشر الآية: ٢.

والفئة المؤمنة فوق سطح الكرة الأرضية التي لا يمكن أن ينال منها ٩.

واسترجعت ميمونة أن هؤلاء الرجال هم الفئة الغالبة: لأن النصر من عند الله ولقد وعدهم ربهم لذلك بقوله:

﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (١)

ولقد أنجز الله لهم وعده فتمكنوا من قهر بنى النضير، وإخراجهم جميعاً من جزيرة العرب.

وما كادت ميمونة تتفرض يدها من هذه التأملات- حتى سمعت طرقةً شديداً على الباب، وسارعت لفتحه فראت أمامها أختها من أمها أسماء بنت عميس تزف لها بشرى جديدة لانتصار المسلمين في معركة خيبر ضد فئة أخرى باغية من هؤلاء اليهود. وتابعت حديثها أسماء فقالت لميمونة- بعد أن تم النصر وفتحت حصون خيبر أبوابها أمام القوة الضاربة للمسلمين تقدمت امرأة سلام بن مشكم بشاة مصلية مسمومة لرسول الله ﷺ فلما وضعها بين يديه تناول الزراع فلاك منها مضغة فلم يسفها- ومعه بشر بن البراء بن معرور قد أخذ منها كما أخذ الرسول ﷺ أما بشر فاستساغها وأما رسول الله ﷺ فلفظها ثم قال: «إن العظم يخبرني أنه مسموم»

ثم دعاها فاعترفت، فقال: «ما حملك على ذلك؟»

قالت: قد بلغت من قومي ما لم يخف عليك. فقلت: «إن كان كذاباً استرحت منه، وإن كان نبياً فسيخبر»..

قال: فتجاوز عنها رسول الله ﷺ وفرحت ميمونة بنجاة الرسول ﷺ وتذكرت قول الله تعالى في هؤلاء اليهود:

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٢).

(١) سورة محمد الآية: ٧.

(٢) سورة المائدة الآيتان: ٧٨، ٧٩.

ثم قالت ميمونة لأسماء: ثم ماذا يا أسماء؟

قالت أسماء: وقبل أن يتحرك جيش المسلمين لحصار خيبر. جاء عبد حبشى أسود من أهل خيبر كان فى غنم لسيده، فلما رأى أهل خيبر قد أخذوا السلاح سألهم ماذا تريدون؟

قالوا: نقاتل هذا الرجل الذى يزعم أنه نبي فوقع فى نفسه ذكر النبي فأقبل بغنمه حتى وقف أمام الرسول ﷺ.

فقال: إلى ما تدعو؟ قال: أدعو إلى الإسلام، وشهادة أن لا إله إلا الله، وأنى رسول الله.

فقال العبد: فماذا يكون لى إن شهدت بذلك وآمنت بالله؟

قال رسول الله ﷺ: «الجنة».

فاسلم العبد: ثم قال: يا نبي الله إن هذه الغنم عندى أمانة. فكيف أردتها لصاحبها؟ قال ﷺ: أخرجها من عسكرنا وارمها بالحصا. فإن الله سيؤدى عنك أمانتك بإيصالها لصاحبها.

ففعل العبد فعادت الغنم إلى سيدها وعرف أن غلامه قد أسلم.

ثم قالت أسماء: ثم إن رسول الله ﷺ أعطى راية الجيش لأبى بكر الصديق - رضى الله عنه - وأمره بمقاتلة اليهود حتى تستسلم حصونهم.

وفى اليوم الثانى أعطى راية الجيش لعمر بن الخطاب فقاتلهم قتالاً شديداً ولكنهم لم يستسلموا.

وفى اليوم الثالث أخذ الراية على بن أبى طالب، وبعد القتال المريع كان الفتح وكان النصر. واستشهد العبد الأسود فحملة المسلمون إلى معسكرهم فادخل على رسول الله ﷺ فنظر إليه ثم قال لأصحابه :

«لقد أكرم الله هذا العبد وساقه إلى خير. ولقد كان الإسلام فى قلبه حقاً وقد رأيت عند رأسه اثنين من الحور العين»^(١).

(١) راجع البداية والنهاية ٤: ١٩٠ - ١٩١.

لقد كانت ميمونة تستمع إلى حديث أسماء وكلها آذان صاغية، ولقد بهرها حقاً أعمال هؤلاء العمالقة الصيد من جيش الإسلام، وأصبحت تواقه لرؤية الرسول ﷺ الذي استطاع في فترة وجيزة من عمر الزمن أن ينقل هؤلاء الرجال رعاة الإبل والشاة إلى سادة وقادة.

مدنوا الدنيا وهذبوا العالم وقرروا الحق للإنسان.

ولكن كيف يتحقق لها ذلك؟ ومتى وكيف تظفر بهذه الأمنية؟

وهل هناك من وسيلة تنقلها إلى رحاب خاتم الأنبياء وسيد المرسلين؟

أم أن ذلك من أحلام اليقظة، ومن هواجس النفس؟

واستيقظت ميمونة رضيها من تخيلاتنا تلك وكأنها قد وضعت يدها على الوسيلة التي تنقلها إلى أحب الناس إلى قلبها وقلوب المسلمين أجمعين، ولم تكن تلك الوسيلة سوى الهجرة إلى يثرب موطن الرسول الكريم؟

ولم لا: لقد سبقتها إلى هذه الهجرة أم كلثوم بنت عتبة رضيها والكثيرات غيرها من المسلمات اللاتي فررن بدينهن إلى الله.

ولم يغب عن ميمونة رضيها أن أختها أسماء قد هاجرت مع زوجها إلى أرض الحبشة ثم عادت وهاجرت مرة أخرى إلى المدينة. إذن لابد من الهجرة تنفيذاً لقوله تعالى: ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ (١).

ولكنها وسط هذه الرؤى والتأملات استدركت أن أختها أسماء هاجرت الهجرتين ولم يعترض عليها أحد لأنها كانت في صحبة زوجها.

ولكنها هي- لا زوج لها- فهل يسمح رجال القبيلة وشيوخها بالهجرة قاطعة تلك الفياض والقفار بمفردها حتى تصل إلى المدينة؟

لا: إن دون ذلك خطر القتاد.

وما أن وصلت ميمونة رضيها بعد أن علمت أن رسول الله ﷺ بعد فتحه

(١) سورة الذاريات الآية: ٥٠.

خير قد عاد إلى المدينة مرة أخرى. ولم يبق أمامها إلا التعرف على أخبار الرسول ﷺ وصحبه الكرام من الركبان الطاعنين من المدينة، أو الزاهبين إليها.

وأراد الله سبحانه وتعالى ألا يطول انتظارها، وفي يوم ليس كمثله يوم طرق أذانها صوت المنادى مطالباً أهل مكة بالخروج إلى الشعاب وقمم الجبال- وتخليتها لمحمد وصحبه تنفيذاً للشروط التي أقرها الطرفان في صلح الحديبية.

عمرة القضاء والزواج من ميمونة

قال موسى بن عقبة عن الزهري: ثم خرج رسول الله ﷺ من العام القابل من عام الحديبية معتمراً في ذي القعدة سنة سبع وهو الشهر الذي صده المشركون عن المسجد الحرام حتى إذا بلغ يأجج «مكان قريب من مكة» وضعوا فيه كل أدوات الحرب ما عدا سلاح الراكب: السيف.

وبعث رسول الله ﷺ بين يديه جعفر بن أبي طالب يأمر أصحابه أن: اكشفوا عن المناكب واسمعوا في الطواف ليرى المشركون جلدهم وقوتهم، وكان المشركون قد جمعوا الرجال والنساء والصبيان ينظرون إلى رسول الله ﷺ وهم يطوفون بالبيت.

والصحابي الجليل عبد الله بن رواحة يرتجز بين يدي الرسول ﷺ متوشحاً بالسيف وهو يقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله	أنا الشهيد أنه رسوله
قد أنزل الرحمن في تنزيله	في صحفٍ تتلى على رسوله
فاليوم نضربكم على تأويله	كما ضربناكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله	وينهل الخليل عن خليله

وتغيب رجال من أشراف المشركين أن ينظروا إلى رسول الله ﷺ غيظاً وحنقاً، ونفاسة وحسداً. وخرجوا خارج مكة من مكان يسمى «الخندمة» وفي هذا عرض على الرسول ﷺ الزواج من ميمونة.

فقام جعفر بن أبي طالب فخطبها عليه. فجعلت ميمونة أمرها إلى العباس بن عبد المطلب زوج أختها أم الفضل بنت الحارث^(١).

فلما أتى الصبح من اليوم الرابع أتاه سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى ورسول الله ﷺ في مجلس الأنصار يتحدث مع سعد بن عباد.

فصاح حويطب بن عبد العزى: «يا محمد نناشدك الله والعقد إلا خرجت من أرضنا فقد مضت الثلاث».

فقال سعد بن عباد: كذبت لا أم لك ليس بأرضك ولا أرض آبائك والله لا يخرج^(٢)

عندها خشي رسول الله ﷺ احتدام الموقف، وقد يتطور إلى قتال فقال مخاطباً سهيلاً وحويطباً: «إني قد نكحت فيكم امرأة فلا يضركم أن أمكث حتى أدخل بها ونصنع الطعام فنأكل وتأكلون معنا» فقالا: نناشدك الله والعقد إلا خرجت عنا.

عندها أمر رسول الله ﷺ أبا رافع فأذن بالرحيل.

وركب رسول الله ﷺ حتى نزل ببطن سرف وأقام المسلمون معه. وعندما استقر المقام بالرسول ﷺ كلف الصحابي الجليل أن يحمل له ميمونة- وبقي «بسرف» حتى قدمت عليه. فزوجها العباس له، وأصدقته عنها أربعمائة درهم. وذكر السهيلي: أنه لما انتهت إليها خطبة رسول الله ﷺ وهي راكبة بعيراً قالت: الجمل وما عليه لرسول الله ﷺ.

(١) راجع البداية والنهاية وسيرة ابن هشام عند الحديث عن عمرة القضاء.

(٢) المصدر السابق ٤: ٢٢٣.

وفيهما نزلت الآية: ﴿وَأَمْرَأَةٌ مُؤْمِنَةٌ إِن وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَكْبِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١).

وغردت الدنيا، وأشرق بصبح جديد بنور ربها حيث انضمت إلى أمهات المؤمنين العابدة الساجدة.
والقانتة الصادقة.

والصابرة الخاشعة ميمونة بنت الحارث رضوان الله عليها وعلى أمهات المؤمنين أجمعين.

وتقول ميمونة: في ليلة من الليالي ورسول الله ﷺ ينام في حجرتي قام في هجعة الليل فأسبغ الوضوء ثم قام يناجى ربه قائلاً:

«اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن.

ولك الحمد أنت قيوم السموات ومن فيهن.

ولك الحمد أنت الحق ووعدك الحق، وقولك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والساعة حق، والنبيون حق ومحمد حق..

اللهم لك أسلمت وعليك توكلت، وبك آمنت، وإليك أنبت، وبك خاصمت وإليك حاكمت أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت».

فكانت ميمونة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا تقول هذه الكلمات كلما هجع الليل وداعب الكرى بأجفان اليقظان. وكان صلوات الله وسلامه عليه يعلمها أن تقول إذا استيقظت من نومها:

«اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي بصرى نوراً، وفي سمعى نوراً، وعن يمينى نوراً، وعن يسارى نوراً، وفوقي نوراً، وتحتى نوراً، وأمامى نوراً، وخلفى نوراً، واجعل لى نوراً».

وكثيراً ما كان عبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يأتي في حجرة خالته ميمونة-

ليقدم الضوء إلى رسول الله ﷺ ويتفقه في أمور دينه فجلس حتى خرج الرسول ﷺ وركب دابته- وأردف عبد الله بن عباس خلفه- وكان عبد الله كثير السؤال في القليل والكثير- يريد أن يعرف ما قل وما كثر من أمور الوحي المتتابع على رسول الله ﷺ وما يتعلق بشئون الدين والدنيا. عندها قال له الرسول ﷺ:

«يا غلام ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن؟»

فقال: بلى يا رسول الله.

قال: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله جف القلم بما هو كائن، ولو اجتمع الخلق على أن يعطوك شيئاً لم يكتبه الله عز وجل لك لم يقدروا عليه، ولو اجتمع الخلق على أن يمنعوك شيئاً كتبه الله عز وجل لك لم يقدروا عليه.

فاعمل لله تعالى بالرضا في اليقين،.

واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً، وأن النصر مع الصبر.

وأن الفرج مع الكرب. وأن مع العسر يسراً» (١).

ولقد عاشت ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين مع رسول الله ﷺ أجمل أيامها- وأسعد لحظات حياتها- وفي يوم ليس كمثله يوم والرسول ﷺ في حجرة عائشة- نعى الناعى- خاتم الأنبياء وآخر المرسلين إلى الأمة الإسلامية واستقبلت بقلوب مكلومة، ونفوس مفعوجة قول الله تعالى:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبِهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (٢).

(١) الحديث رواه الترمذي في القيامة (٥٩) وأحمد بن حنبل في المسند (١: ٢٩٣، ٣٠٣).

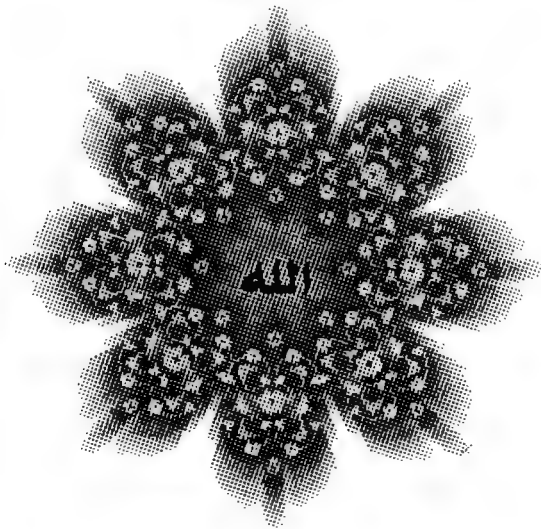
(٢) سورة آل عمران الآية: ١٤٤.

وعاشت ميمونة بعد وفاة رسول الله ﷺ عابدة ساجدة. قانتة خاشعة. تعبد ربها، وتبتهل إلى مولاها، أن يعينها على أداء ما فرضه الله عليها، فإذا جاء أجلها، جعلها في زمرة عباده الصالحين، وأوليائه الذين قال فيهم:

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١).

وفي خلافة معاوية بن أبي سفيان خرجت ميمونة بنت الحارث مع ابن أختها عبد الله بن عباس رضي الله عنهما للحج فلما أدت المناسك وتم حجها اشتكت، فأوصت أن تدفن في مكان القبة التي أعرس فيها رسول الله ﷺ بها في سرف.

وأن تكون حجرتها داراً للعلم ومدرسة للفقهاء ومأوى للراغبين ثم ماذا؟ فارقت روحها جسدها. فصلى عليها عبد الله بن عباس وجماعة المسلمين واستقرت كما وعد الله عباده الصالحين ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ (٢).



(١) سورة يونس الآيات: ٦٢ - ٦٤.

(٢) سورة القمر الآية: ٥٥.



قضية المهر

قضية المهر من القضايا التي اهتم الإسلام بها اهتماماً كبيراً وأولاهها عناية خاصة قال الله تعالى: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ (١).

قال أبو عبيدة يعنى عن طيب نفس بالفريضة التي فرضها الله تعالى على عباده. وقيل النحلة: تعنى الهبة لأن كل واحد من الزوجين يستمتع بصاحبه، وجعل المهر عطية للمرأة بغير عوض لقوله تعالى: ﴿وَأَتَوْهُنَّ أَجُورُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (٢) أى مهورهن.

ولقد جاء عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله إنى تزوجت.

قال ﷺ: ما أصدقتها؟ أى ما أعطيتها مهرأ؟ قال: وزن نواة ذهباً.

فقال ﷺ: «بارك الله لك أولم بشاة».

واتفق الفقهاء على أن المهر واجب شرعاً في كل عقد نكاح على الزوج لزوجته بمجرد عقد النكاح لقوله تعالى: ﴿أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ (٣).

فإذا لم يقدر المهر في مجلس العقد، وجب مهر المثل، لما روى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه سئل عن امرأة مات عنها زوجها قبل أن يدخل بها ولم يكن قد سمى لها مهرأ في عقد النكاح.

فقال: «لم أسمع في هذا شيئاً عن رسول الله ﷺ ولكن أجتهد برأى فإن أصبت فمن الله، وإن أخطأت فمنى ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان- أرى أن لها مهر نساءها لا وكس ولا شطط».

(١) سورة النساء الآية: ٤.

(٢) سورة النساء الآية: ٢٥.

(٣) سورة النساء الآية: ٢٤.

فقال الصحابي الجليل معقل بن يسار وأنا: أشهد أن رسول الله ﷺ قضى في بروع بنت واشق الأشجعية مثل قضائك. ثم قام رجال من قبيلة أشجع وقالوا: إنا نشهد بمثل شهادته. ففرح عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فرحاً لم يفرح مثله في الإسلام لموافقة قضائه قضاء رسول الله ﷺ.

ويرى الكثير من الفقهاء أن في المهر حقاً لله تعالى. فلا يملك الزوجان نفيه باتفاقها، فدل ذلك أن في المهر حقاً لله تعالى لا يملكان إسقاطه.

ويؤيد هذا أن بعض الفقهاء من أتباع أبي حنيفة اشترط حداً أدنى من المهر وجعل هذا الحد حقاً للشرع لا يجوز النزول عنه بتسمية ما هو أقل منه، فإذا سمي أقل منه وجب إبلاغه إلى الحد الأدنى^(١).

ولهذا يستحب أن يسمى المهر في عقد النكاح.

قال ابن قدامة الحنبلي: ويستحب أن لا يعرى النكاح عن تسمية الصداق.

وقال الفقيه الرملي الشافعي: «وتسن تسميته» أي تسمية المهر.

ولقد كان النبي ﷺ يزوج بناته وغيرهن ويتزوج هو، فلم يكن يخلو ذلك من مهر. وقال ﷺ للذي زوجه المرأة الموهوبة: «التمس ولو خاتماً من حديد»^(٢).

فلما لم يجد شيئاً: زوجه إياها بما معه من القرآن. وأيضاً فإن تسمية المهر في عقد النكاح أقطع للنزاع وللخلاف فيه.

ويرى ابن قدامة: أن كل ما كان مالاً جاز أن يكون مهراً لقوله تعالى: ﴿وَأَحِلُّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾^(٣).

وإذا كان ذلك فهل يجوز أن يكون تعليم العلم، والفقه في دين الله وتعليم القرآن للزوجة مهراً؟ لقد اختلف العلماء في ذلك.

فعند الشافعية وبعض المذاهب الأخرى جواز ذلك التزاماً بالسنة.

(١) راجع الهداية وفتح القدير (٢: ٤٣٤ - ٤٣٧).

(٢) متفق عليه.

(٣) سورة النساء الآية: ٢٤.

واختلفت الرواية عن الإمام أحمد في جعله صداقاً. فقال في موضع: أكرهه. وقال في موضع آخر: لا بأس به. وهو أن يتزوجها على أن يعلمها سوراً من القرآن الكريم.

وحجة هذه الرواية الأخيرة ورود جواز ذلك في السنة النبوية الشريفة كما في حديث سهل بن سعد الساعدي. وفيه قول النبي ﷺ: «زوجتكها بما معك من القرآن».

ووجه الرواية الأولى في عدم الجواز: أن الفروج لا تستباح إلا بالأموال تجعل مهرأ في عقود النكاح قال الله تعالى: ﴿أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فِتْيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَأَتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (٢).

والطول هو المال، ولأن تعليم القرآن لا يجوز أن يقع إلا قرية لفاعله فلا يصح أن يكون صداقاً كالصوم والصلاة. والصورة التي يرضاها الإسلام للعلاقة بين الرجال الأحرار وغير الحرائر، وهي ذاتها الصورة التي رضيها من قبل من زواج الحرائر.

فأولاً: يجب أن يكن مؤمنات ﴿فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فِتْيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾.

وثانياً: يجب أن يعطين أجورهن فريضة لهن لا لسادتهن. فهذا حقهن الخالص ﴿وَأَتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾.

وثالثاً: يجب أن تكون هذه الأجور في صورة صداق، وأن يكون الاستمتاع بهن في صورة نكاح لا مخادعة ولا سفاح، والمخادعة أن تكون لواحد، والسفاح أن تكون لكل واحد.

﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ (٣).

(٢) سورة النساء الآية: ٢٥.

(١) سورة النساء الآية: ٢٤.

(٣) سورة المائدة الآية: ٥.

أقل المهر

يكاد يكون اختلاف بين الفقهاء في تحديد مقدار أقل المهر ومن الأدلة على ذلك:

١- ما يروى من أحاديث في أقل المهر لا يثبت منها شيء قال الإمام ابن حجر العسقلاني: «وقد وردت أحاديث في أقل الصداق لا يثبت منها شيء» (١).

٢- ما رواه جابر رضي الله عنه عن الرسول ﷺ أنه قال: «لو أن رجلاً أعطى امرأة صداقاً ملء يديه طعاماً، كانت له حلالاً» (٢).

وعن أبي داود بمعناه: «أى لو تزوج امرأة وجعل مهرها ملء يديه طعاماً لانعقد النكاح وصح بهذا المهر وصارت له زوجة حلالاً».

٣- أخرج الإمام الترمذى في سنته: أن امرأة من بنى فزارة تزوجت على نعلين فقال رسول الله ﷺ: «أرضيت من نفسك ومالك بنعلين؟». قالت: نعم.

قال الراوى: فأجازه النبى ﷺ وقد استدل بهذا الحديث من قال بجواز كون المهر شيئاً حقيراً له قيمة» (٣).

(١) راجع صحيح البخارى شرح المسقلانى (٩: ٢١١).

(٢) رواه الإمام أحمد وأبو داود بمعناه.

(٣) راجع سنن الترمذى وشرحه تحفة الأحوذى (٤: ٢٥٠، ٢٥١) وابن ماجه في سنته (١: ٦٠٨).

أكثر المهر

إذا كان الفقهاء قد اختلفوا في تحديد أقل المهر المسمى فإنهم لم يختلفوا في أنه لا حد لأكثره، فيجوز أى مقدار تراضى عليه الزوجان.

قال ابن قدامة الحنبلى- رحمه الله:- وأما أكثر الصداق فلا توقيت فيه بإجماع أهل العلم. قال ابن عبد البر. وقد قال الله تعالى:

﴿وَأِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ (١).

إن الإسلام ينظر إلى البيت بوصفه سكناً وأمناً وسلاماً.

وينظر إلى العلاقة الزوجية على أنها مودة ورحمة.

ويقوم هذه الرابطة على الاختيار المطلق، فإذا تبين بعد الزواج أن الحياة بين الزوجين غير مستطاعة، وأنه لا بد من الانفصال واستبدال زوج مكان زوج فعندئذ تتطلق المرأة بما أخذت من صداق، وما ورثت من مال لا يجوز استرداد شيء منه، ولو كان قنطاراً من ذهب.

وفى المجموع فى فقه الشافعى: وأما أكثر الصداق فليس له حد وهو إجماع لقوله تعالى: ﴿وَأَتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا﴾.

قال ابن عباس: القنطار سبعون ألف مثقال.

وقال أبو سعيد الخدرى: القنطار ملء مسك ثور ذهباً ومسك الثور جلده.

وإذا كان ذلك كذلك فهل يجوز المغالاة فى المهور؟ وما هى الوسيلة أو المعيار الذى يمكن عن طريقه معرفة المغالاة من عدمها؟

(١) سورة النساء الآية: ٢٠.

المغالاة في المهور

يطيب لنا أن نستعرض أقوال الفقهاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا﴾.

قال الإمام القرطبي: في هذه الآية دليل على جواز المغالاة في المهور لأن الله تعالى لا يمثل إلا بمباح^(١).

وقال ابن كثير: في هذه الآية دلالة على جواز الإصداق بالمال الجزيل.

وقال الحافظ أبو يعلى بسنده عن الشعبي عن مسروق قال: ركب عمر ابن الخطاب منبر رسول الله ﷺ ثم قال: «أيها الناس ما إكثاركم في صداق النساء؟ وقد كان رسول الله ﷺ وأصحابه والصدقات بينهم أربعمائة درهم فما دون ذلك، ولو كان الإكثار في ذلك تقوى عند الله، أو كرامة لم تسبقوهم إليها، فلأعرفن ما زاد رجل في صداق امرأة على أربعمائة درهم».

قال: ثم نزل فاعترضته امرأة من قريش فقالت: يا أمير المؤمنين نهيت الناس أن يزيدوا في مهر النساء على أربعمائة درهم؟ قال: نعم.

فقالت: أما سمعت ما أنزل الله في القرآن؟

قال: وأي ذلك؟

فقالت: أما سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَأَتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا﴾.

قال: اللهم غفرا كل الناس أفقه من عمر.

ثم رجع فركب المنبر فقال: «أيها الناس إنني كنت نهيتكم أن لا تزيدوا النساء في صدقاتهن على أربعمائة درهم. فمن شاء أن يعطى من ماله ما أحب». قال أبو يعلى: وأظنه قال: «فمن طابت نفسه فليفعل».

وقال ابن كثير: إسناده قوي^(٢).

(١) راجع تفسير القرطبي (٥: ٩٩).

(٢) راجع تفسير ابن كثير (١: ٤٦٧) ط دار المعرفة بيروت- لبنان.

ولنا أن نتساءل هل خفيت هذه الآية على عمر بن الخطاب حتى ذكرته بها هذه المرأة؟ وإذا كانت لم تخف عليه فما تبرير رجوعه؟ وقد أجاب العلماء على ذلك بعدة وجوه:

الأول: أن نهى عمر عن جعل المهر مالا كثيراً هو على وجه الندب لا التحريم.

قال الإمام ابن العربي المالكي:

وهذا أى نهى عمر سالف الذكر- لم يقله عمر على طريق التحريم، وإنما أراد به الندب إلى التعليم.

وقد تناهى الناس فى الصدقات- أى فى المهور- حتى بلغ صداق امرأة ألف ألف، وهذا قل أن يوجد من حلال^(١).

الثانى: أن الآية الكريمة أباحت إيتاء المرأة الكثير- القنطار- مهراً لها ولم توجب ذلك، ولالإمام أن يجتهد فى تقييد المباح بالنهى عنه أو الأمر به فى بعض الأوقات والأحوال لمصلحة يراها.

الثالث: يحتمل أن يكون رجوع عمر عن اجتهاده فى تحديد أكثر المهر عندما سمع كلام المرأة وما فى اعتراضها من دلالة على أن النساء لا يرغبن فى التنازل عما أباحه الشرع لهن من الزيادة فى المهور، وأن هذا إذا كان فيه مصلحة للرجال ففيه عدم رضا النساء ويعتبرنه من الضرر بهن.

(١) راجع تفسير ابن العربي (١: ٣٦٤، ٣٦٥).

المستحب عدم المغالاة في المهور

إذا كان الاتفاق حاصلًا على عدم وجود حد لأكثر المهر المسمى في الإسلام فإن الإجماع قائم على استحباب عدم المغالاة في المهور لما ينشأ عن ذلك من أخطار اجتماعية تحول دون انتشار الزواج وتكاثر العنوسة. وقد تناول الأئمة الأعلام عدم المغالاة في المهور بالتوضيح والتفصيل.

من ذلك ما يقوله الشافعي رحمته الله: «الاقتصاد في المهر أحب إلى من المغالاة فيه»^(١).

ويقول ابن قدامة الحنبلي: «يستحب أن لا يفلى الصداق»^(٢).

ومن الأدلة التي ساقها العلماء في استحباب عدم المغالاة في المهور ما يأتي:

أولاً: ما رواه الإمام أحمد بسنده عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «أعظم النكاح بركة أسره مؤنة»^(٣).

ثانياً: ما رواه البيهقي في سننه بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: «قال رسول الله ﷺ من يمن المرأة أن تتيسر خطبتها، وأن يتيسر صداقها، وأن يتيسر رحمها»^(٤). قال عروة يعنى يتيسر رحمها للولادة.

ثالثاً: قول أبو هريرة رضي الله عنه: «كان صداقنا إذ كان فينا رسول الله ﷺ عشر أواق»^(٥).

رابعاً: ما رواه البيهقي بسنده عن محمد بن سيرين عن أبي العجفاء السلمي قال سمعت عمر بن الخطاب يقول: «إياكم والمغالاة في مهور النساء فإنها لو كانت تقوى عند الله أو مكرمة عند الناس لكان رسول الله ﷺ

(١) راجع المجموع (١٥: ٤٨٣).

(٢) المسند (٦: ٨٢، ١٤٥) «حلبى» وسنن البيهقي (٧: ٢٣٥).

(٣) المسند (٦: ٨٢، ١٤٥) «حلبى» وسنن البيهقي (٧: ٢٣٥).

(٤) سنن البيهقي (٧: ٢٣٥). (٥) المصدر السابق (٧: ٢٣٥).

أولادكم بها، ما نكح رسول الله ﷺ شيئاً من نسائه ولا أنكح واحدة من بناته أكثر من اثنتى عشرة أوقية وهى أربعمائة درهم وثمانون درهماً، وإن أحدهم ليغالى بمهر امرأته حتى تبقى عداوة فى نفسه. فيقول: لقد كلفت لك علق القرية»^(١).

وفى نهاية هذا البحث نحب أن نقول: الزواج فى منهج الإسلام التقاء نفسين عن رغبة واختيار. والصداق حق للمرأة تأخذه لنفسها فيجب أن يكون كافياً ومحددًا لتقبضه المرأة فريضة لها، وواجباً لا تخلف فيه وأوجب أن يؤديه الزوج هبة خالصة لصاحبته وأن يؤديه عن طيب نفس، وارتياح خاطر، كما يؤدى الهبة والمنحة.

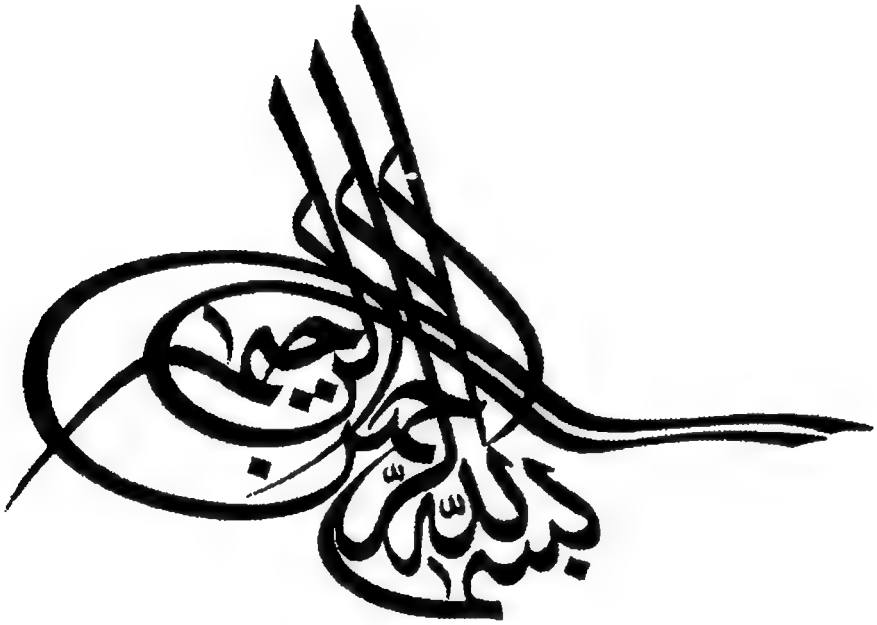
فإن طابت نفس الزوجة بعد ذلك لزوجها عن شيء من صداقها - كله أو بعضه - فهى صاحبة الشأن فى هذا، تفعله عن طيب نفس، وراحة خاطر، والزوج فى حل من أخذ ما طابت نفس الزوجة عنه، وأكله حلالاً طيباً هنيئاً، لأن العلاقات بين الزوجين ينبغى أن تقوم على الرضا الكامل والاختيار المطلق والسماحة النابعة من القلب.

والشريعة الإسلامية عندما تركت تحديد المهر وعدم حصره فى مقدار معين راعت فى ذلك عرف الناس وعاداتهم، والفلاء والرخص فى قيم الأشياء وأثمانها والفقر والغنى، وتباين طبقات المجتمعات، وعلينا فى مثل هذه الأمور أن نقتدى بحديث الرسول ﷺ: «أنتم أعلم بأمور دنياكم».

(١) المصدر السابق (٧ : ٢٣٤) وسنن الترمذى (٤ : ٢٥٥).

مارية القبطية

رضى الله عنها



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ
تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ
(١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ
وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

(التحریم: ١، ٢)

أقوال العلماء والمفسرين فى نزول هذه الآية

- قال رجال التفسير نزلت هذه الآيات فى: مارية القبطية أم إبراهيم.
قال ذلك صاحب الدر المنثور (٦ ص ٢٣٩ - ٢٤٠).
وقاله ابن كثير فى التفسير (٤ ص ٢٨٦، ٢٨٧).
وقاله ابن جرير الطبرى فى التفسير (٢٨ - ٤٦٠).
فمن هى مارية رضي الله عنها...



حياتها ونشأتها

سرية الرسول ﷺ وأم إبراهيم بن محمد، قرة عين أبيه، وقلدة كبده، والريحانة التي ملأت حياته شذى وعطراً، وهدية المقوقس إلى محمد ﷺ.

تقول عنها أم المؤمنين عائشة - رضيها - ما غرت على امرأة كما غرت من مارية. لأنها كانت جميلة بيضاء، جمدة الشعر لطيفة الحيا.

ولدت في صعيد مصر، وكانت أمها رومية.

وترعرعت طفولتها على الثرى الخصب والخير الوفير.

وفتحت عيونها على مياه النيل، وهي تتساب إلى الشمال في سهولة

ويسر.

واستمعت بشمس الصعيد الدافئة، ونسماته العليلة.

ولكن كيف انتقلت هذه النقلة البعيدة؟ وكيف تابعت هذه الرحلة الشاقة،

الممتدة حتى وصلت إلى أرض يثرب؟

إن أوثق المصادر التي بين أيدينا تسجل عقد الهدنة بين محمد ﷺ

وقريش، ثم عودته ﷺ إلى يثرب وما كاد يستقر به المقام حتى أرسل

الصحابي الجليل حاطب بن أبي بلتعة برسالة إلى المقوقس عظيم القبط في

مصر قائلاً فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم- من محمد بن عبد الله إلى المقوقس عظيم القبط. سلام الله على من اتبع الهدى.

أما بعد: فإنني أدعوك بدعاية الإسلام. أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم القبط.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^(١).

وما كادت تصل الرسالة وتقرأ على مسامع المقوقس حتى قال: «قد كنت أعلم أن نبياً قد بقى وكنت أظن أنه يخرج بالشام، حيث مخرج الأنبياء، فأراه قد خرج من أرض العرب».

ثم بعث إلى بطارفته، فجاءوا سراعاً إلى مجلسه، وأخبرهم بما حوته رسالة النبي العربي. ثم التفت إلى حاطب وقال له: إني سائلك بكلام فأحب أن تفهم عني.

قال حاطب: هلم هات ما عندك.

قال المقوقس: أخبرني عن صاحبك أليس هو نبي؟

قلت: بلى هو رسول الله.

قال: فما له حيث كان هكذا لم لم يدعو على قومه حيث أخرجوه من بلده إلى غيرها؟

قال حاطب: قلت: عيسى ابن مريم أليس تشهد أنه رسول الله؟

قال: بلى.

قلت: فما باله حيث أخذه قومه فأرادوا أن يصلبوه ألا يكون دعا عليهم بأن يهلكهم الله حيث رفعه الله إليه؟

فقال لي: أنت حكيم جاء من عند حكيم.

(١) سورة آل عمران آية رقم ٦٤.

ثم قال له: سأبعث معك إلى محمد جاريتين هما مارية وسيرين وغلام أسود، وبغلة بيضاء، وكوكبة من الفرسان حتى تصل إلى مأمك.

وتذكر الروايات أن حاطب بن بلتعة، قد عرض عليهما الإسلام- وهما في الطريق إلى يثرب فأسلمت مارية وأختها.

لم تتلثم عندما عرض عليها الإسلام، ولم تتأخر، لأن حياتها في مصر الذي كان شعبها يعرف عقيدة التوحيد، وأن نبي الله ﷺ دعى أهلها إلى عبادة الله وحده، ونبذ كل ألوان الشرك. كان دافعاً قوياً لها لقبول الإسلام.

ويقال: إن قدماء المصريين كانوا يؤمنون بالبعث ويصدقون بما يكون بعد الموت فحرصوا على إقامة القلاع، وتشيد الحصون من أهرامات وخلافه إيماناً بالخلود والبقاء. ويحدثنا تاريخهم القديم عن ملامح تصورهم للحياة الآخرة، وما يكون فيها من حساب وعقاب وجزاء عن طريق محكمة مكونة من أربعين قاضياً يرأسها قاضى القضاة (أوزيريس).

وكانت مارية تعتقد كقومها: أن الإنسان لا يفنى، والموت مرحلة انتقال إلى حياة أخرى حياة الأبدية والخلود^(١).

وعندما وصلت إلى يثرب أنزلها رسول الله ﷺ في العالية التي يقال لها اليوم مشربة أم إبراهيم- وكان رسول الله ﷺ يختلف إليها هناك وضرب عليها الحجاب، وكان يطأها بملك اليمين، فلما حبلت وضعت هناك- فجاء أبو رافع زوج سلمى مولاة رسول الله ﷺ فبشر الرسول ﷺ بإبراهيم فوهب له عبداً.

وتنافست الأنصار في إبراهيم وأحبوا أن يفرغوا مارية للنبي ﷺ لما يعلمون من هواه فيها.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس- رضي الله عنه - قال: قلت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه من المرأتان اللتان تظاهرتا؟ قال: عائشة وحفصة.

(١) راجع رجال أنزل الله فيهم قرآناً للمؤلف (٣: ١٤٨).

وكان بدء الحديث في شأن مارية أم إبراهيم القبطية- أصابها النبي ﷺ في بيت حفصة في يومها فوجدت حفصة فقالت: يا نبي الله لقد جئت إلى شيئاً ما جئته إلى أحد من أزواجك. في يومى، وفي دارى، وعلى فراشى.

فقال ﷺ: «ألا ترضين أن أحرمها فلا أقربها» قالت: بلا. فحرمها وقال: «لا تذكرى ذلك لأحد» فذكرته لعائشة- رضي الله عنها- فأظهره الله عليه فأنزل الله قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ (١).

ويقال: إن النبي ﷺ كفر عن يمينه وأصاب جاريته.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كانت أم إبراهيم سرية للنبي ﷺ في مشربها، وكان قبطى يأوى إليها، ويأتيها بالماء والحطب فقال الناس في ذلك: عالج يدخل على عجلة؟

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأرسل على بن أبى طالب فوجده على نخل، فلما رأى السيف وقع على نفسه فالتقى الكساء الذى كان عليه وتكشف فإذا هو محبوب (٢). فرجع على إلى النبي ﷺ فأخبره فقال: يا رسول الله أرايت إذا أمرت أحداً بالأمر ثم رأى في غير ذلك أيراجعك؟ قال: نعم.

وكانت مارية تردد دائماً قصة هاجر زميلتها المصرية التى أهداها ملك مصر إلى سارة، ورحلت من بلاد النيل بصحبة إبراهيم عليه السلام، وأنجبت منه ابنها إسماعيل. وكيف تركها قرب البيت العتيق، ويذكر القرآن الكريم قول إبراهيم في ذلك:

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (٣).

كانت مارية تحلم بنجدة السماء، وقد أثارت قصتها المتشابهة تماماً لقصة هاجر زوجات النبي الشرعيات، وكان الفرق الوحيد بينها وبين هاجر أنها لم

(٢) ليس له ما يكون للرجل.

(١) سورة التحريم الآية: ١.

(٢) سورة إبراهيم الآية: ٢٧.

يكن لديها ولد. والنبى قد شارف الستين من العمر، فهل تتحقق لها الأمنية؟
لم تحظ مارية بلقب أم المؤمنين، وكان النبى يطأها بملك يمينه، وقد
أسدل عليها الستار فاطمأن بها المقام، وانصرفتم تماماً لخدمة النبى ﷺ
فكان لها السيد والصديق والأهل والوطن.

وانحصر كل همها أن تظل موضع حظوته ورضاه، وكانت لا تكف أبداً
عن ذكر هاجر وإسماعيل وإبراهيم عليهم السلام.

وفى عامها الثانى: أحست مارية ببوادر الحمل، وعندما تيقنت من ذلك
عاشت فى رؤى من الأحلام حاملة، وأدركت أن الله تعالى قد استجاب
لدهائها. وحين علم الرسول ﷺ بهذا الحدث، رفع رأسه إلى السماء يشكر
الله على هديته، وبعد أن فقد ابنته الغالية زينب، ومن قبلها رقية، وأم كلثوم،
وعبد الله والقاسم.

وتذكر النبى ﷺ ما كان من قصة إبراهيم وبشرى زكريا فى قوله الذى
ذكره القرآن الكريم: ﴿قَالَ رَبِّ اُنِّىْ يَكُوْنُ لىْ غُلَامٌ وَكَانَتْ اِمْرَاَتىْ عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ
الْكِبَرِ عِتًى﴾ (٨) قَالَ كَذٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلٰى هِمِّىْ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (١).

وسرى الخبر فى كل أرجاء المدينة، بأن النبى ﷺ رزق مولوداً من مارية
المصرية. وسقط هذا الخبر كالصاعقة بين نساء النبى، فخاف النبى على
مارية ونقلها إلى ضواحي المدينة فى مكان يدعى العالية. وسهر عليها
يرعاها. وفى ذات ليلة من شهر ذى الحجة فى السنة الثامنة للهجرة. دخلت
عليه أم رافع القابلة لتبشّره بالغلام فأكرمها وذهب إلى مارية فهناها وحمل
الغلام بين يديه وسماه إبراهيم.

إنه الغلام الذى يملأ الحياة بهجة وبهاء.

إنه الغلام الذى يحمل الذكرى ويساهم فى تجديد حب الحياة.

إنه الغلام طلبة الغنى والفقير، والمليك والخفير.

(١) سورة مريم الآيتان: ٨، ٩.

إنه الغلام الذي طلبه نبي الله زكريا بقوله: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴿١﴾.

لكن سعادة مارية لم تكتمل فقد مرض إبراهيم وهو ما زال رضيعاً لم يكمل العامين من العمر، فوضعه النبي ﷺ في حجره وهو يسمع حشرجة احتضاره مختلطة ببكاء أمه وخالته.

وحين مات إبراهيم انحنى النبي على جثمان ابنه فقبله والدمع يفيض من عينيه وقال: «يا إبراهيم، لولا أنه أمر حق ووعد صدق، وأن آخرنا سيلحق بأولنا، لحزننا عليك حزناً هو أشد من هذا، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون» (٢).

وبينما كانوا يفسلون الطفل الصغير الميت استعداداً لدفنه. كان النبي جالساً ينظر إليه في حزن عميق وألم بالغ، وحين وصلوا إلى البقيع. أضجعه بيده في قبره ثم سوى التراب وندأه بالماء. وطوى النبي ﷺ جرحه في قلبه صابراً على قضاء الله.

ولقد روى الإمام أحمد - ما كان من زوجات النبي ﷺ ومارية بسنده عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَوْبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ (٣).

حتى حج عمر وحججت معه فلما كان ببعض الطريق عدل عمر وعدلت معه بالإدواة فتبرز ثم أتاني فسكبت على يديه فتوضأ فقلت يا أمير المؤمنين من المرأتان من أزواج النبي ﷺ اللتان قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَوْبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾.

(١) سورة الأنبياء الآيتان: ٨٩، ٩٠.

(٢) الحديث رواه البخاري في الجنايز (٤٣) ومسلم في الفضائل (٦٢) وأبو داود في الجنايز (٢٤) وابن ماجه في الجنايز (٥٣).

(٣) سورة التحريم الآية: ٤.

فقال عمر: وا عجباً لك يا بن العباس- قال الزهرى: كره والله ما سألته عنه ولم يكتمه قال هى عائشة وحفصة.

قال ثم أخذ يسوق الحديث-

قال: كنا معشر قريش قوماً نغلب النساء فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم.

قال: وكان منزلى فى دار أمية بن يزيد بالعوالى.

قال: فغضبت يوماً على امرأتى فإذا هى تراجعنى فأنكرت أن تراجعنى.

فقالت: ما تتكر أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج رسول الله ﷺ ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل.

قال: فانطلقت فدخلت على حفصة فقلت: أتراجعين رسول الله ﷺ؟

قالت: نعم.

قلت: وتهجره إحداكن اليوم إلى الليل؟

قالت: نعم.

قلت: قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر أفتأمن إحداكن أن يفضب الله عليها لفضب رسوله فإذا هى قد هلكت، لا تراجعى رسول الله ﷺ ولا تسأليه شيئاً وسلينى من مالى ما بدا لك، ولا يفرنك إن كانت جارتك هى أوسم- أى أجمل- وأحب إلى رسول الله ﷺ وآله وسلم منك - يريد عائشة.

قال : وكان لى جار من الأنصار، وكنا نتأوب النزول إلى الرسول ﷺ ينزل يوماً وأنزل يوماً فيأتينى بخبر الوحي وغيره، وآتية بمثل ذلك.

قال: وكنا نتحدث أن غسان تتعل الخيل لتغزونا فنزل صاحبنى يوماً. ثم أتى عشاء فضرب بابى ثم نادانى فخرجت إليه فقال: حدث أمر عظيم.

فقلت: وما ذاك أ جاءت غسان؟

قال: لا بل أعظم من ذلك وأطول. طلق رسول الله ﷺ نساءه.

فقلت: قد خابت حفصة وخسرت قد كنت أظن أن هذا كائناً حتى إذا صليت الصبح شددت على ثيابي ثم نزلت.

فدخلت على حفصة وهي تبكي فقلت: أطلقكن رسول الله ﷺ.

فقالت: لا أدري، هو هذا معتزل في هذه المشربة؟

قال عمر: فأتيت غلاماً له أسود. فقلت استأذن لعمر فدخل الغلام ثم خرج إلي فقال ذكرك له فصمت.

فانطلقت حتى أتيت المنبر فإذا عنده رهط جلوس يبكي بعضهم فجلست عنده قليلاً ثم غلبني ما أجد.

فأتيت الغلام فقلت: استأذن لعمر. فدخل ثم خرج فقال: قد ذكرك له فصمت؟ فخرجت فجلست إلى المنبر ثم غلبني ما أجد فأتيت الغلام فقلت: استأذن لعمر. فدخل ثم خرج إلي. فقال: قد ذكرك فصمت، فوليت مدبراً. فإذا الغلام يدعوني فقال: ادخل قد أذن لك.

فدخلت فسلمت على رسول الله ﷺ فإذا هو متكئ على رمل حصير.

قال الإمام أحمد رمال حصير قد أثر في جنبه. فقلت: أطلقت يا رسول الله نساءك؟ فرفع رأسه إلي وقال: لا.

فقلت: الله أكبر. فتبسم رسول الله ﷺ.

فقلت: أستأنس يا رسول الله؟ قال: نعم.

فجلست فرفعت رأسي في البيت فوالله ما رأيت في البيت شيئاً يرد البصر إلا هيبة مقامه.

فقلت: ادع الله يا رسول الله أن يوسع على أمتك، فقد وسع على فارس والروم، وهم لا يعبدون الله؟ فاستوى جالساً وقال:

أفى شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا.

فقلت: استغفر لى يا رسول الله وكان أقسم أن لا يدخل عليهن شهراً من شدة موجدته عليهن.

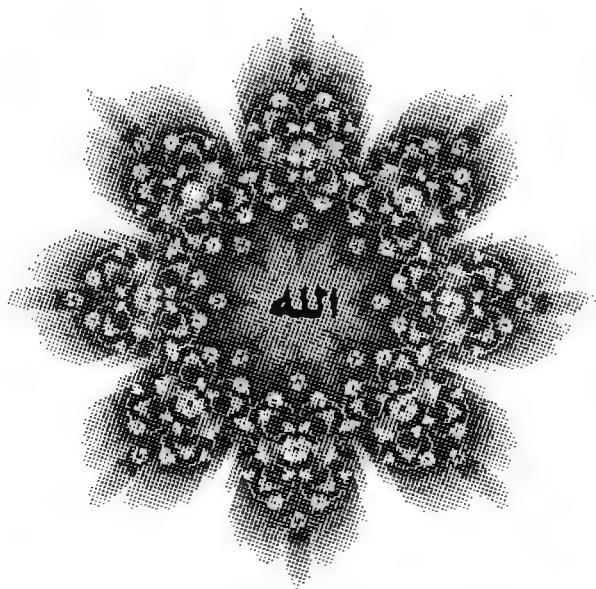
ألا يدخل عليهن شهراً ولم يطلقهن.

لأن الطلاق أبغض الحلال عند الله تعالى، كما قال الرسول ﷺ.

ويقول الرسول أيضاً: «تزوجوا ولا تطلقوا فإن الطلاق يهتزله عرش الرحمن». «وأىما امرأة سألت زوجها الطلاق فى غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة».

ولهذا يقول الله سبحانه وتعالى فى شأن التباغض والتدابير بين الرجل وزوجته- التباغض الذى يصل إلى درجة الكره:

﴿فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾.



أسباب النزول

عن أنس أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها فلم تنزل به عائشة وحفصة حتى حرماها فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ (١).

وقال ابن جرير بسنده عن زيد بن أسلم- أن رسول الله ﷺ أصاب أم إبراهيم في بيت بعض نسائه فقالت: أي رسول الله في بيتي وعلى فراشي؟ فجعلها عليه حراماً. قالت: أي رسول الله كيف يحرم عليك الحلال؟ فحلف لها بالله لا يصيبها فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾. قال زيد بن أسلم فقوله أنت على حرام لغو.

وقال سفيان الثوري وابن علي عن داود بن هند عن الشعبي عن مسروق قال: آلى رسول الله ﷺ وحرّم فعوتب في التحريم وأمر بالكفارة في اليمين. رواه ابن جرير.

وعن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قلت لعمر بن الخطاب من المراتان؟

قال: عائشة وحفصة، وكان بدء الحديث في شأن أم إبراهيم مارية أصابها النبي ﷺ في بيت حفصة في نوبتها فوجدت حفصة.

فقالت: يا نبي الله قد جئت إلى شيئاً ما جئت إلى أحد من أزواجك في يومي وفي داري وعلى فراشي؟

قال: ألا ترضين أن أحرماها فلا أقربها؟

قالت: بلى. فحرماها.

وقال لها: لا تذكرى ذلك لأحد. فذكرته لعائشة فأظهره الله عليه فأنزل

(١) سورة التحريم الآية: ١.

الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَغْيِ مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ الآيات كلها.

فبلغنا أن رسول الله ﷺ كفر عن يمينه وأصاب جاريته^(١).

وعن ابن عمر قال النبي ﷺ لحفصة: لا تخبرى أحداً وإن أم إبراهيم على حرام. فقالت:

أتحرم ما أحل الله لك؟

قال: فوالله لا أقربها.

قال: فلم يقربها حتى أخبرت عائشة قال فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾^(٢).

قال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح ولم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة، وقد اختاره الحافظ الضياء المقدسى فى كتابه المستخرج.

وقال ابن جرير بسنده عن سعيد بن جبير أن ابن عباس كان يقول فى الحرام يمين تكفرها.

وقال ابن عباس: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾^(٣).

يعنى أن رسول الله ﷺ حرم جاريته فقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾.

فكفر يمينه فصير الحرام يميناً.

ورواه البخارى عن معاذ بن فضالة بسنده عن ابن عباس: «فى الحرام يمين تكفر» ورواه مسلم من حديث هشام الدستوائى به.

(١) راجع تفسير ابن كثير (٤: ٢٨٦، ٢٨٧).

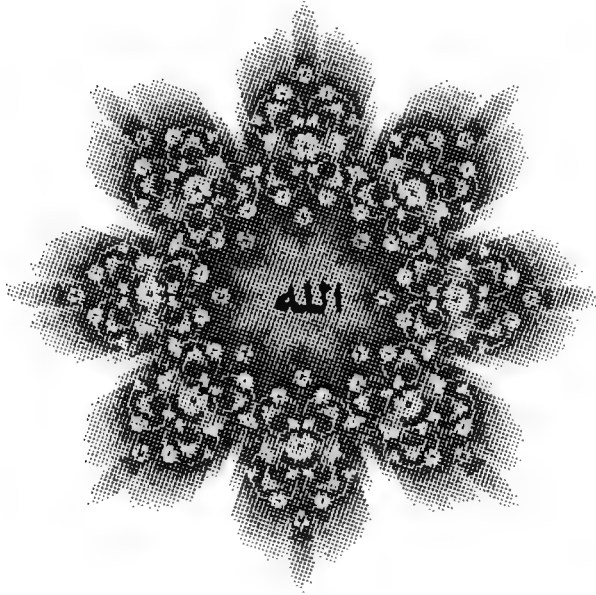
(٢) سورة التحريم الآية: ٢.

(٣) سورة الأحزاب الآية: ٢١.

وقال النسائي بسنده عن ابن عباس - رضي الله عنه - قال: أتاه رجل فقال: إني جعلت امرأتى على حراماً.

قال: كذبت ليس عليك بحرام، ثم تلا هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ؟﴾ (١).

عليك أغلظ الكفارات عتق رقبة. تفرد به النسائي من هذا الوجه. بهذا اللفظ والله أعلم.



(١) سورة التحريم الآية: ١.



الحياة الزوجية كيف تتحقق فيها المودة والرحمة..؟

قال الله تعالى: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَأَمْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ (١).

ما هو النشوز؟ أهو ترفع المرأة على زوجها؟

أو الانفعال والجموح والاستعلاء بالجمال والمال أو بالمركز العائلي؟

أهو خروج المرأة عن قوامة الرجل التي أمر الله تعالى بها في قوله: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ (٢).

أهو تحول المرأة نداءً للرجل في حلبة صراع وقتال؟

أهو مرض من الأمراض التي تصاب به بعض النساء ويحتاج إلى علاج وحسن معاملة من الرجل؟

إن منهج الإسلام يلجأ إلى معالجة النشوز في الأسرة المسلمة قبل وقوعه ولا ينتظر حتى يقع. وبمجرد ظهور هذه الآثار يرشد الله تعالى الأزواج إلى المبادرة بالعلاج، ويأمرهم ألا ينتظروا حالة النشوز الفعلي ليبدءوا علاجهم، ولهذا وضع الإسلام خطة هذا العلاج التي تتمشى مع المعروف من أطوار الخلاف.

وأولى هذه الخطوات: الموعظة. قال تعالى: ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾.

فالأزواج يبادر زوجته في هذا الطور الأول حين يكون الخلاف مستتراً أو

(١) سورة النساء الآية: ٣٤.

(٢) سورة النساء الآية: ٣٤.

على استحياء، فينصحبها نصحاً رقيقاً يستعمل فيه لباقة وحسن أدبه، ويذكرها فيه بذكرياتها الجميلة، ويمدحها في تطف بأخلاقها وأخلاق أسرته ويحذرهما شماتة الأعداء، وحزن الأصدقاء وهذه هي مقدمات الواجب التي يجب أن يقوم بها الزوج إزاء زوجته وأسرته.

ومن الموعظة: أن يتسامح الرجل أحياناً وأن يغفر لها ذلتها عن قدرة وتمكن لتعرف الزوجة فضله في ذلك. وأنه ليس متهوراً مندفعاً من أول الأمر، فإن هذا العمل يصلح كثيراً من النساء اللواتي لا تصلحهن الشدة والعنف. ثاني هذه الخطوات: الهجر. قال تعالى: ﴿وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾.

فإذا فشلت الخطوة الأولى فمعنى ذلك أن مقدمة من مقدمات هذا النشوز المتوقع قد بدأت تفعل فعلها لذلك يجب على الرجل أن يظهر غضبه من هذا الفعل بطريقة صامته بليغة في صمتها مؤثرة تأثيراً كبيراً في المرأة. وهي الهجر في المضجع، فإذا فعل الرجل ذلك، فقد أسقط من يد المرأة الناشز أقوى أسلحتها التي تعتمز بها وكانت في الغالب أميل إلى التراجع والملاينة، ومنهج الإسلام أن يضع أدباً لهذا الهجر.

فهو هجر مستتر في المضجع، ولا يكون ظاهراً في غير مكان خلوة الزوجين. فلا يصح أن يكون هجراً أمام الأطفال يورث في نفوسهم شراً وفساداً.

ولا هجراً أمام الغرباء يذل الزوجة أو يستثير كرامتها فتزداد نشوزاً، لأن المقصود من الهجر هو العلاج لا الإذلال.

ولا شك أن هذه الخطوة لو أديت على وجهها الكامل، وفي وقتها المناسب لها تكون خطوة فعالة، وتكون سنداً طبيعياً للخطوة الأولى، وإلا كان الرجل متصنعاً في نصحه ووعظه، وممثلاً لدور الفاضب أو الأسف، بينما هو الراغب الطالب.

ثالث هذه الخطوات: الضرب. قال تعالى: ﴿واضربوهن﴾.

لقد فشلت الخطوة الأولى وفشلت الخطوة الثانية، ويوشك هذا النشوز أن يعصف بالحياة الزوجية، وأن يجر إلى مشكلات الفرقة والشتات، وقد يكون فى هذه الأسرة أولاد صفار، ويتأثرون بهذه المشاحنات، وقد تحدث خصومات تجر إلى خصومات فكان لابد من اللجوء إلى الضرب.

وهذا الضرب المأذون فيه إنما الضرب الخفيف فقد وصفته السنة بأنه (غير مبرح) وقد اعتاد الناس فى كل عصر ومصر أن يؤدبوا بمثله أبناءهم وبناتهم صفاراً وكباراً فلا يكون ذلك وحشية ولا إهانة.

وقد يكون من النساء من لا تحس قوة الرجل الذى ترضاه قيماً وترضاه زوجاً إلا حين يقهرها عضلياً وليس هذه طبيعة كل امرأة. ولكن هذا الصنف موجود وهو الذى يحتاج إلى هذه المرحلة الأخيرة ليستقيم، ويبقى على المؤسسة الخطيرة مؤسسة حضانة الأولاد وسعادة الأسرة واستمرارها.

يقول الشيخ محمد محمد المدنى: «بعض المولعين بنقد الإسلام يستفظمون هذا اللون من العقوبة ويعتبرونه توحشاً ويقولون إنه إنما يصلح للقرون الأولى، لا لعصور المدنية والحضارة، ولكنهم فى هذا النقد غير منصفين، وقد أثرت عليهم فيه عوامل خاصة بالبيئة التى طغى فيها النساء حتى أصبحن هن الحاكمات على الرجال، والمتحكمات فى شئون الأسرة، فقد درج هؤلاء على المبالغة فى تدليل المرأة، وإسباغ ألوان من الاحترام عليها حتى أفسدوا ذوقها.

أفسدوا ذوقها من خلال هذا الدلال.

وأفسدوا ذوقها من خلال جعلها قيمة تمسك بيديها كل شؤون الأسرة. وأفسدوا ذوقها عن طريق الاختلاط ومخادنة الرجال وتفشى الصداقات بين الرجال والنساء،

والإسلام لا ينكر على المرأة كرامتها، ولكنه يقف بها عند حدها الذى رسمه لها ملاحظاً فيه دورها فى المجتمع ووظيفتها التى تتناسب وطبيعتها.

وهذا الدور يقتضى أن تكون تحت قوامة الزوج^(١).

ولا ننسى أن الذى شرع ذلك وأمر به هو الله سبحانه وتعالى الخبير بكل خلجة من خلجات النفس، وبكل ذرة من ذرات الجسم وصدق ربى فى قوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^(٢).

ونتساءل أيهما أجدى للمجتمع:

إفساد الحياة الزوجية، وتشريد الأبناء والبنات.

وتحطيم القلوب وتخريب البيوت وتقطيع أواصر الرحمة والمودة.

أم لطمة على خد.

أو صفة على يد؟ لا شك أن العلاج الثانى أجدى وأنفع.

ويطيب لى أن أستعرض بعض توجيهات الرسول ﷺ فى هذا الصدد. جاء فى كتب السنن عن معاوية بن حيدة القشيري أنه قال:

يا رسول الله ما حق امرأة أحدنا عليه؟

قال: «أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه ولا تقبح ولا تهجر إلا فى البيت»^(٣).

وروى أبو داود والنسائى وابن ماجه قال النبى ﷺ: «لا تضربوا إماء الله». لأن الإسلام يلجأ إلى النصيحة الصادقة، والموعظة الحسنة. ويرفض الفظاظلة، والتجبر، والإذلال الذى يحول المرأة رفيقة الحياة إلى أمة ليس لها من أمرها شئ.

فجاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: ذئرت النساء على أزواجهن.

فرخص رسول الله ﷺ فى ضربهن.

(١) راجع المجتمع الإسلامى كما تنظمه سورة النساء ٢١٥.

(٢) سورة الملك الآية: ١٤.

(٣) الحديث أخرجه أحمد بن حنبل فى المسند (٥: ٣) وأبو داود فى النكاح (٤١).

فأطاف بآل رسول الله ﷺ نساء كثير يشتكين أزواجهن.

فقال رسول الله ﷺ: «لقد أطاف بآل محمد نساء كثيرات يشتكين أزواجهن ليس أولئك بخياركم».

وقال ﷺ: «لا يضرب أحدكم امرأته كالعير يجلدها أول النهار ثم يضاجعها آخره» (١).

وقال: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي» (٢).

إذن الضرب شيء طارئ في حالة طارئة، وليس قاعدة من القواعد التي تلازم الحياة الزوجية، ولا تصلح مسيرة الزواج إلا به. ولهذا قال الله تعالى بعد ذلك: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ (٣).

وإلا كان الزوج متجنباً متعرضاً لعقوبة الله إذا ظهر أنه أساء استعمال هذه السلطة التي جعلها الله في يده للإصلاح بالمعروف لا للتحكم واتباع الهوى.

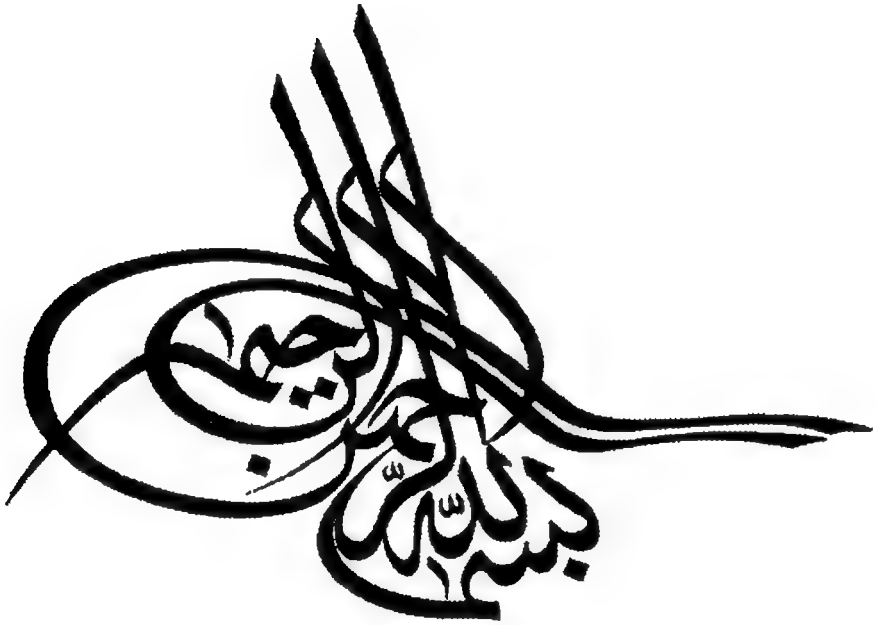
(١) ذكره صاحب مصابيح السنة الصحاح بسنده عن أبي هريرة.

(٢) رواه الترمذی والطبرانی وابن ماجه فی النکاح (٥٠) والدرامی فی النکاح (٥٥).

(٣) سورة النساء الآية: ٣٤.

زَيْنَبُ بِنْتُ الرَّسُولِ

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى:

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ
الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ
الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ
لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ
وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

(الأحزاب: ٣٣)

أقوال العلماء والمفسرين فى نزول هذه الآية

قال كثير من رجال التفسير نزلت هذه الآية فى: آل بيت النبوة صلوات الله وسلامه عليهم.

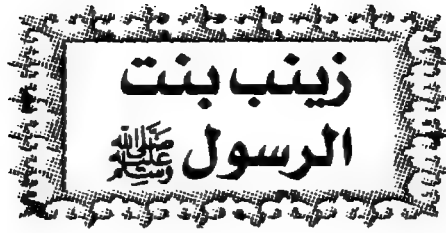
وقال ذلك ابن كثير فى التفسير (٣ ص ٤٨٤ - ٤٨٥).

وقاله صاحب الدر المنثور (٥ ص ١٩٨ - ١٩٩).

وقاله الإمام القرطبى فى التفسير (١٤ ص ١٨٣ - ١٨٤).

ولاشك أن زينب بنت الرسول ﷺ من آل البيت.

فمن هى زينب..؟



حياتها ونشأتها

أمها خديجة بنت خويلد، كانت تدعى في الجاهلية الطاهرة- وهى أول من آمن بالله عز وجل ورسوله ﷺ.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها، فذكرها يوماً من الأيام فأدركتني الغيرة فقلت: «هل كانت إلا عجوزاً، قد أبدلك الله خيراً منها».

فغضب حتى اهتز مقدم شعره من الغضب.

ثم قال: «لا والله ما أبدلني الله خيراً منها.

آمنت بي إذ كفر الناس.

وصدقتني إذ كذبني الناس.

وواستني في مالها إذ حرمني الناس.

ورزقني الله منها أولاداً إذ حرمني أولاد النساء».

قالت عائشة: فقلت في نفسي لا أذكرها بسيئة أبداً.

وفى الحديث الذى رواه أبو داود بسنده عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: قال

رسول الله ﷺ: «أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت

محمد ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون».

وعندما نزل الوحي على رسول الله ﷺ وتتابع نزول جبريل عليه السلام عليه قالت له خديجة: يا بن عم، أتستطيع أن تخبرني بصاحبك إذا جاءك - تعني جبريل عليه السلام - فلما جاءه جبريل عليه السلام .

قال: «يا خديجة، هذا جبريل قد جاءني.

فقالت له: قم يا بن عم فاقعد على فخذي اليمنى ففعل.

فقالت: هل تراه؟ قال: نعم.

قالت: فتحول إلى اليسرى ففعل. فقالت: هل تراه؟ قال: نعم.

قالت: فاجلس في حجرى. ففعل، فقالت: هل تراه؟ قال: نعم.

فألقت خمارها وحسرت عن صدرها. فقالت: هل تراه؟

فقال: لا.

قالت: أبشر فإنه والله ملك وليس شيطان.

ولقد ولدت له خديجة: القاسم، وبه كان يكنى ﷺ وزينب وأم كلثوم ورقية وفاطمة.

وزينب رضي الله عنها كانت أكبر البنات، ولما أن بلغت العاشرة من عمرها، غدت محط أنظار فتیان كبرى العائلات في قريش، ولكن لم يظفر بها سوى ابن خالتها هالة بنت خويلد.

كان أبو العاص يرقبها منذ طفولتها كلما أطل على بيت خالته خديجة، وكان مأخوذاً بجمالها ورقتها وذكائها.

كان أبو العاص يجلس معها ويحدثها عن أسفاره كلما عاد من تجارة له، فتأنس له ويأنس لها دون حذر، ولا حرج.

أما عن زينب: فقد بدأت ترى فيه قوة الشباب وتوازن الشخصية وهدوء الطباع وسعة الخبرة، وكانت ترتاح إليه وتحب أن تسمع حديثه وطرائفه.

وكانت خديجة - رضي الله عنها - ترقب نمو ابنتها، وكان يرضيها أن تكون من نصيب ابن أختها، وهي قد عرفت منذ طفولته الباكرة، كما أنها لم تكن تخفى عن زوجها الكريم محمد بن عبد الله رغبتها هذه. ولم يمض على ذلك وقت طويل حتى تمت خطبة زينب على أبي العاص بن الربيع الذي كان يعتبر أحد رجال مكة البارزين مالاً وأمانة وتجارة... وهو من قبل هذا ومن بعده يعد من أشرف قريش، ويلتقى مع محمد بن عبد الله في جده الثالث عبد مناف، كما يلتقى مع زينب في جدها خويلد.

ويصفه قومه بأوصاف كثيرة فهو كريم الخصال، حميد الأخلاق، طلق المحيا، كريم أمين- حتى لقبه قومه كما لقبوا محمداً بالأمين.

ثم كان الزفاف وأقيمت ليالي الفرح والسرور- ثم انتقلت إلى بيت زوجها فتركت فراغاً كبيراً ووحشة هائلة. ورغم أنها قد أخذت في تدبير شئون بيتها لكنها ظلت تتردد على أمها وأخواتها وأبيها- كلما ابتعد أبو العاص عن مكة في رحلة من رحلاته إلى بلاد الشام أو العودة منها.

وذات يوم ذهبت زينب إلى بيت أبيها- فسمعت أخباراً جديدة، وحملة قريش الضارية على أبيها بعد أن وقف على الصفا منادياً قومه وعشيرته: «أيها الناس إنني رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة».

وما كان من غضب أبي لهب وتناوله أبيها بكلمات جارحة- ووعت أذن زينب ﷺ كل هذه الأحداث وما كان في غار حراء وقناعة خديجة بما أخبرها به زوجها وذهابها إلى ابن عمها ورقة بن نوفل وتصديقه بما جاء. إن أباهما يدعو إلى مكارم الأخلاق.

يدعو إلى عبادة الواحد الأحد الذي خلق السموات والأرض. يدعو إلى المساواة بين الناس جميعاً لأنهم أبناء آدم، وآدم خلق من تراب.

يدعو إلى نبذ عبادة الأصنام والأوثان. يدعو إلى نبذ عبادة الشمس والقمر.

يدعو إلى نبذ عبادة الجن والملائكة.

إنه يدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأنه عبد الله ورسوله.

وعندما وصلت زينب في تصوراتها إلى ذلك أعلنت إسلامها، ودخلها في دين الله الذي لا يقبل غيره ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^(١).

ثم عادت إلى بيتها هادئة النفس مطمئنة القلب، حامدة شاكرة لله تعالى أن هداها إلى الطريق المستقيم. ثم جلست تنتظر زوجها وتجمع شتات فكرها، وتتذكر الكلمات التي ألقته على مسامعها أمها خديجة، حتى تدعو زوجها إلى الإسلام.

وعندما عاد أبو العاص وأخبرته بدخولها إلى الدين الجديد، وتدعوه هو الآخر إلى إعلان إسلامه وترك عبادة الأوثان والأصنام. سمعته يتمتم بينه وبين نفسه ببعض الكلمات ولكنه لم يبين، وعندما ألحت عليه في ذلك أخبرها أنه لم يقتنع بعد بما جاء به أبوها، وأن قريشاً لن يهدأ لها بال حتى يكف محمد عما يدعوهم إليه. فهو متمسك بدين آبائه وأجداده حتى ترى قريش رأيها.

اشتد النقاش بين زينب وزوجها فخرج أبو العاص من الدار حائراً، وعاد إلى الدار في آخر الليل صامتاً، وأخبرها أنه لقي أباه في الكعبة فدعاه إلى الإسلام.

وهكذا انتصب حاجز بين زينب وزوجها، وأخذ ينمو شيئاً متصاعداً مع تطورات الأحداث بين أبيها وقريش.

فها هو الوليد بن المغيرة أحد سادات قريش يلتقى بالرسول ﷺ فقراً عليه القرآن فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبو جهل بن هشام فأتاه فقال: أى عم إن

(١) سورة آل عمران الآية: ١٩.

يدعو إلى نبذ عبادة الأصنام والأوثان. يدعو إلى نبذ عبادة الشمس والقمر.

يدعو إلى نبذ عبادة الجن والملائكة.

إنه يدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأنه عبد الله ورسوله.

وعندما وصلت زينب في تصوراتها إلى ذلك أعلنت إسلامها، ودخلها في دين الله الذي لا يقبل غيره ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^(١).

ثم عادت إلى بيتها هادئة النفس مطمئنة القلب، حامدة شاكرة لله تعالى أن هداها إلى الطريق المستقيم. ثم جلست تنتظر زوجها وتجمع شتات فكرها، وتتذكر الكلمات التي ألقته على مسامعها أمها خديجة، حتى تدعو زوجها إلى الإسلام.

وعندما عاد أبو العاص وأخبرته بدخولها إلى الدين الجديد، وتدعوه هو الآخر إلى إعلان إسلامه وترك عبادة الأوثان والأصنام. سمعته يتمتم بينه وبين نفسه ببعض الكلمات ولكنه لم يبين، وعندما ألحت عليه في ذلك أخبرها أنه لم يقتنع بعد بما جاء به أبوها، وأن قريشاً لن يهدأ لها بال حتى يكف محمد عما يدعوهم إليه. فهو متمسك بدين آبائه وأجداده حتى ترى قريش رأيها.

اشتد النقاش بين زينب وزوجها فخرج أبو العاص من الدار حائراً، وعاد إلى الدار في آخر الليل صامتاً، وأخبرها أنه لقي أباه في الكعبة فدعاه إلى الإسلام.

وهكذا انتصب حاجز بين زينب وزوجها، وأخذ ينمو شيئاً متصاعداً مع تطورات الأحداث بين أبيها وقريش.

فها هو الوليد بن المغيرة أحد سادات قريش يلتقى بالرسول ﷺ فقراً عليه القرآن فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبو جهل بن هشام فأتاه فقال: أى عم إن

(١) سورة آل عمران الآية: ١٩.

وفى يوم ليس كمثله يوم لاحت زينب خروج ألف مقاتل من مكة ومعهم زوجها أبو العاص لحرب أبيها، فتصدع قلبها، وأحست مرارة التمزق بين أبيها وزوجها. وهو وضع عايشته - رملة بنت أبي سفيان حين أصبحت زوجة للرسول - وأباها على كفره، إنهما وضعان متعاكسان، وإن كانت مرارتهما واحدة. وما هي إلا أيام قليلة في عمر الزمن حتى وصلت إلى مكة أخبار انتصار المسلمين في موقعة بدر وأخذ المسلمون المستضعفون في مكة يرددون قول الله تعالى:

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١) إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشِلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِدِرٍّ وَأَنْتُمْ أَدْلَى فَاثَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدِّدَكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزْلِينَ (١٢٤) بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١)﴾.

وكم كانت فرحة زينب لنصرة أبيها ومن معه من جماعة المسلمين، ولكن هذه الفرحة، شابها أن زوجها ووالد أولادها قد وقع في الأسر، فيمن وقع من قريش وتسارعت قريش في تجهيز الفدية التي طلبها رسول الله ﷺ لفك سراح الأسرى. فأرسلت زينب الفدية لفك سراح زوجها.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ في فداء أبي العاص بن الربيع بعال، وبعثت فيه بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاص حتى بنى عليها.

قالت: فلما رآها رسول الله ﷺ رق لها رقة شديدة.

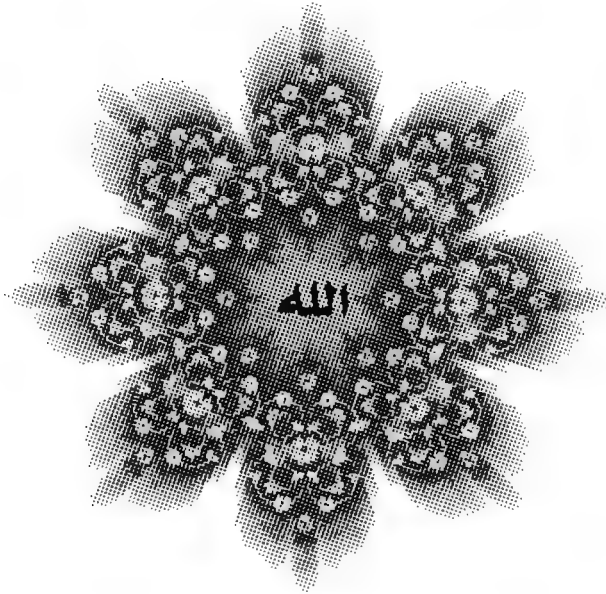
وقال: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا»

فقالوا: نعم يا رسول الله فاطلقوه وردوا عليها الذي لها» (٢).

(١) سورة آل عمران الآيات: ١٢١ - ١٢٦. (٢) راجع سيرة ابن هشام (٢: ٢٩٧).

وكان رسول الله ﷺ قد أخذ عليه، أو وعد رسول الله ﷺ بذلك، أن يخلى سبيل زينب إليه، أو كان فيما شرط عليه في إطلاقه، ولم يظهر ذلك منه ولا من رسول الله ﷺ فيعلم ما هو، إلا أنه لما خرج أبو العاص إلى مكة وخلي سبيله بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة، ورجلاً من الأنصار مكانه فقال: «كونا ببطن يأجج»^(١) حتى تمر بكما زينب فتصحبها حتى تأتياني بها».

فلما قدم أبو العاص مكة أمرها بالحق بأبيها.



(١) مكان بين مكة والمدينة- وهو أقرب منه إلى المدينة.

تجهيز زينب للهجرة إلى يثرب

قالت زينب رضي الله عنها بينما أنا أتجهز بمكة للحق بأبي لقيتني هند بنت عتبة فقالت: «يا بنت محمد، ألم يبلغني أنك تريدين اللحق بأبيك» قالت: فقلت ما أردت ذلك. فقالت: أي ابنة عمي، لا تفعلين إن كانت لك حاجة بمتاع مما يرفق بك في سفرك أو بمال تتبلغين به إلى أبيك فإن عندي حاجتك فلا تستحي مني. فإنه لا يدخل بين النساء ما بين الرجال.

قالت زينب: والله ما أراها قالت ذلك إلا لتفعل. ولكني خفتها فأنكرت أن أكون أريد ذلك وتجهزت.

الرحيل

فلما فرغت بنت الرسول ﷺ من جهازها قدم لها أخو زوجها كنانة بن الربيع بغيراً فركبته، وأخذ قوسه وكنانته - ثم خرج بها نهاراً يقود بها - وهي في هودج لها - وتحدث بذلك رجال من قريش، فخرجوا في طلبها حتى أدركوها بمكان يسمى - بذى طوى - فكان أول من سبق إليها - الشقي، هبار ابن الأسود فروعها هبار بالرمح وهي في هودجها - وكانت زينب رضي الله عنها حاملاً فلما ريعت طرحت ما في بطنها، وبرك أخو زوجها ونثر كنانته ثم قال: والله لا يدنو مني رجل إلا وضعت فيه سهماً فانهزم الناس عنه.

ثم أتى أبو سفيان بن حرب في جماعة من قريش فقال: أيها الرجل كف عنا نبلك حتى نكلمك. فكف كنانة عن رميهم بالنبل. فأقبل أبو سفيان حتى وقف عليه فقال: «إنك لم تُصب، وخرجت بالمرأة على رؤوس الناس علانية، وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا وما دخل علينا من محمد، فيظن الناس إذ خرجت ابنته إليه علانية على رؤوس الناس بين أظهرنا أن ذلك على ذل أصابنا عن مصيبتنا التي كانت، وأن ذلك منا ضعف ووهن. ولعمري ما لنا بحبسها عن أبيها من حاجة، وما لنا في ذلك من طلب ثار. ولكن ارجع بالمرأة

حتى إذا هدأت الأصوات، وتحدث الناس أن قد ردناها فخذها سرّاً والحقها بأبيها.

قال: ففعل، فأقامت ليالى حتى إذا هدأت الأصوات خرج بها ليلاً حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه. فقدمها بها على أبيها ﷺ.

عادت زينب إلى أبيها واستقرت في بيته وبين إخوتها- عادت إلى القلب الحنون إلى الرحمة المهداة، حيث الأمن والأمان، ولكن هل نسيت زينب زوجها هل غاب عن ذاكرتها لحظة؟

إن رواية التاريخ يقررون أن زينب كانت بارة بأبيها، ذاكرة لذكريات زوجها وما كان فيها من مودة ورحمة.

وعكفت على كتاب ربها تسأله أن يهدي زوجها إلى الإسلام، وأن يهبها السكينة والاستقرار حتى تتحمل فراق زوجها.

ومرت عليها الأيام ثقيلة متباطئة حتى كان يوم خرج أبو العاص بتجارته إلى الشام- وكان رجلاً مأموناً- بمال له وأموال لرجال قریش حملوها له، فلما فرغ من بيع تجارته وأقبل عائداً إلى مكة، لقيته كوكبة من فرسان الرسول ﷺ فأصابوا ما معه من التجارة- وفر منهم هارباً، فلما قدمت الكوكبة بما أصابوا من ماله إلى المدينة، أقبل أبو العاص تحت ظلام الليل حتى دخل على زينب فاستجار بها فأجارته، وجاء في طلب ماله.

فلما خرج رسول الله ﷺ إلى صلاة الصبح فكبر وكبر الناس صرخت زينب من صُفّة النساء: «أيها الناس إنى قد أجرت أبا العاص بن الربيع» قال: فلما سلم رسول الله ﷺ من الصلاة، أقبل على الناس فقال: «يا أيها الناس هل سمعتم ما سمعت؟ قالوا: نعم. قال: أما والذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعت ما سمعت إنه يجير على المسلمين أديانهم».

ثم انصرف رسول الله ﷺ فدخل على ابنته فقال: «أى بنية أكرمى مثواه ولا يخلص إليك فإنك لا تحلين له».

ثم إن رسول الله ﷺ بعث إلى السرية الذين أصابوا مال أبي العاص فقال: «إن هذا الرجل منا حيث علمتم، وقد أصبتم له مالاً فإن تحسنوا وتردوا عليه الذى له فإننا نحب ذلك، وإن أبيتم فهو فى الله الذى أفاء عليكم فأنتم أحق به».

قالوا: يا رسول الله بل نرده عليه. قال: فردوه عليه لم ينقص منه شيئاً. مرحى لهؤلاء الرجال الذين تربوا فى مدرسة الإسلام إنهم أمناء على دينهم حتى يبلغوه إلى البشرية كلها، وأمناء على أموال الغير وأعراضهم، فلا تمس من قريب أو بعيد.

إنهم الرجال الذين وصفهم الله تعالى فى كتابه بقوله: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجْدًا يَتَّخُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٢٩) (١).

إنهم الرجال الذين خرجوا من الجزيرة العربية- بغية نشر دين الله تعالى وكانوا يحملون سيوفهم، ومن وراء سيوفهم أخلاقهم، فكان سيوفهم نفسها ذات أخلاق.

ثم عاد أبو العاص إلى مكة، وترك فى يثرب من أحب الناس إلى قلبه إنها زينب وأبوها. فمتى يعود إليهما؟

وفى اليوم التالى لوصوله: أدى لكل ذى حق حقه من المال الذى حمله ثم جمعهم قريباً من بيت الله الحرام. حتى إذا كانوا أمامه قال لهم: يا معشر قريش: هل بقى لأحد منكم عندى مال لم يأخذه؟ قالوا جميعاً: لا، فجزاك الله خيراً، فقد وجدناك وفياً كريماً. قال: فأننا أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، والله ما منعنى من الإسلام عنده إلا تخوف أن تظنوا

(١) سورة الفتح آية رقم ٢٩.

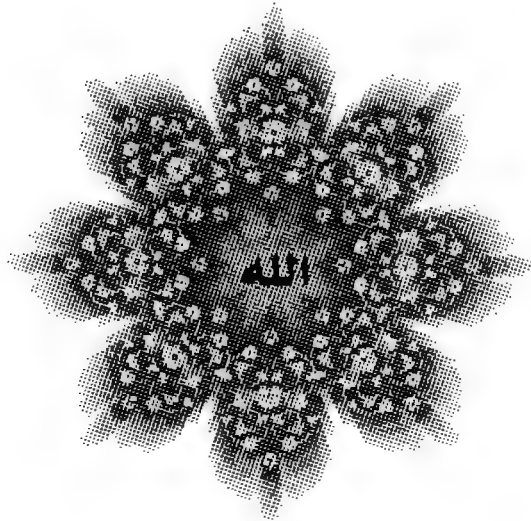
أنى إنما أردت أن أكل أموالكم، فلما أداها الله إليكم وفرغت منها أسلمت.
ثم خرج حتى قدم على رسول الله ﷺ.

وما أن وصل المدينة، حتى دخل على الرسول ﷺ فى المسجد وبايعه
فهلل الناس وكبروا. ثم قام النبى وأخذ بيده وتوجها معاً نحو زينب الصابرة
المؤمنة المحبة ﷺ.

كان إسلام أبى العاص فى السنة السابعة للهجرة، ولكن ما أن اجتمع
شمل العائلة من جديد حتى جاء الفراق الذى لا لقاء بعده.

وكان ذلك فى السنة الثامنة للهجرة، وهذ المصاب أبا العاص فعاش فترة
وجيزة يجتر أحزانه، ويتجرع آلامه- حتى لحق بها بعد أربع سنوات، وكأنها
الدهر كله.

وبموت زينب أحب الناس إلى قلب الرسول ﷺ طويت ملحمة من
ملاحم. الوفاء والإخلاص، والنبيل والفداء. رحمها الله رحمة واسعة، وأسكن
الزوجين فسيح جناته.



أسباب النزول

قال ابن جرير: بسنده عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: جاءت فاطمة رضي الله عنها إلى رسول الله ﷺ ببرمة لها قد صنعت فيها عصيدة تحملها على طبق، فوضعتها بين يديه ﷺ فقال: «أين ابن عمك وابناك؟» فقالت رضي الله عنها: في البيت. فقال ﷺ: ادعهم. فجاءت إلى علي رضي الله عنه فقالت: أجب رسول الله ﷺ أنت وابنك.

قالت أم سلمة رضي الله عنها فلما رأهم مقبلين مد ﷺ يده إلى كساء كان على المنامة فمده وبسطه وأجلسهم عليه، ثم أخذ بأطراف الكساء الأربعة بشماله فضمه فوق رؤوسهم، وأوماً بيده اليمنى إلى ربه فقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً».

وقال ابن جرير (طريق آخر) بسنده عن الأعمش عن حكيم بن سعد قال: ذكرنا على بن أبي طالب رضي الله عنه عند أم سلمة رضي الله عنها فقالت: في بيتي نزلت: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً»^(١).

قالت أم سلمة جاء رسول الله ﷺ إلى بيتي فقال: «لا تأذنى لأحد».

فجاءت فاطمة رضي الله عنها فلم أستطع أن أحجبها عن أبيها، ثم جاء الحسن رضي الله عنه فلم أستطع أن أمنعه يدخل على جده وأمه، وجاء الحسين فلم أستطع أن أحجبه عن جده ﷺ وأمه رضي الله عنها ثم جاء علي فلم أستطع أن أحجبه فاجتمعوا، فجللهم رسول الله ﷺ بكساء كان عليه ثم قال: «هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً».

فنزلت هذه الآية حتى اجتمعوا على البساط. قالت: فقلت يا رسول الله وأنا؟ قالت: فوالله ما أنعم. وقال: إنك على خير^(٢).

(١) سورة الأحزاب الآية: ٣٣.

(٢) راجع تفسير ابن كثير (٣: ٤٨٦).

وقال الإمام أحمد بسنده عن أبي المعدل عن عطية الطفاوى عن أبيه قال: إن أم سلمة رضي الله عنها حدثته قالت: بينما رسول الله ﷺ فى بيتى يوماً إذ قالت الخادم إن فاطمة وعلياً رضي الله عنهما بالسدة. قالت: فقال رسول الله ﷺ: «قومى فتتحى عن أهل بيتى» قالت: فقممت فتتحيت فى البيت قريباً فدخل على فاطمة، ومعهما الحسن والحسين - رضي الله عنهما - وهما صبيان صغيران فأخذ الصبيين فوضعهما فى حجره فقبلهما واعتق علياً بإحدى يديه، وفاطمة رضي الله عنها باليد الأخرى، وقبل فاطمة وقبل علياً وأغدق عليهم خميصة سوداء وقال: «اللهم إليك لا إلى النار أنا وأهل بيتى». فقالت: وأنا يا رسول الله؟ قال ﷺ: وأنت.

وعن ابن جرير بسنده عن صفية بنت شيبة قالت: قالت عائشة رضي الله عنها خرج النبى ﷺ ذات غداة وعليه مرط مرحل من شعر أسود فجاء الحسن فأدخله معه ثم جاء الحسين فأدخله معه، ثم جاءت فاطمة رضي الله عنها فأدخلها معه ثم جاء على فأدخله معه ثم قال ﷺ: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً».

وقال ابن أبى حاتم بسنده عن ابن حوشب عن عم له قال: دخلت مع أبى على عائشة رضي الله عنها فسألتها عن على رضي الله عنه.

فقالت رضي الله عنها: تسألنى عن رجل كان من أحب الناس إلى رسول الله ﷺ وكانت تحته ابنته وأحب الناس إليه؟

لقد رأيت رسول الله ﷺ دعا علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً رضي الله عنهم فألقى عليهم ثوباً فقال ﷺ: «اللهم هؤلاء أهل بيتى فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً».

قالت: فدنوت منهم فقلت: يا رسول الله وأنا من أهل بيتك؟ فقال ﷺ: «تنحى فإنك على خير»^(١).

(١) راجع تفسير ابن جرير عند حديثه عن هذه الآية.

وقال مسلم في صحيحه بسنده عن يزيد بن حبان قال: انطلقت أنا وحصين بن سبرة وعمر بن مسلمة إلى زيد بن أرقم رضي الله عنه فلما جلسنا إليه قال له حصين، لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً: رأيت رسول الله ﷺ، وسمعت حديثه، وغزوت معه، وصليت خلفه، لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً.

حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله ﷺ. قال:

«يا ابن أخي والله لقد كبرت سني، وقدم عهدي، ونسيت بعض الذي كنت أعي من رسول الله ﷺ فما حدثتكم فاقبلوا، وما لا فلا تكلفوا فيه. ثم قال: قام فينا رسول الله يوماً خطيباً بماء يدعى خمأً بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ وذكر، ثم قال: «أما بعد ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما: كتاب الله تعالى فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به». فحث على كتاب الله عز وجل ورغب فيه.

ثم قال: وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي ثلاثاً. فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته، قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده. قال: ومن هم؟ قال: هم آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر وآل عباس رضي الله عنهم. قال: كل هؤلاء حرم الصدقة بعده؟ قال: نعم^(١).

وفي رواية محمد بن الريان بسنده عن زيد بن أرقم رضي الله عنه فذكر الحديث بنحو ما تقدم وفيه فقلت له من أهل بيته ونساؤه؟ قال: لا. وايم الله إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها، أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده.

(١) الحديث رواه الإمام مسلم في فضائل الصحابة (٣٦-٣٧) والدارمي في فضائل القرآن (١) وأحمد بن حنبل في المسند (٣: ١٤، ١٧، ٢٦، ٥٩، ٤: ٣٦٧، ٣٧١) (حلبى).

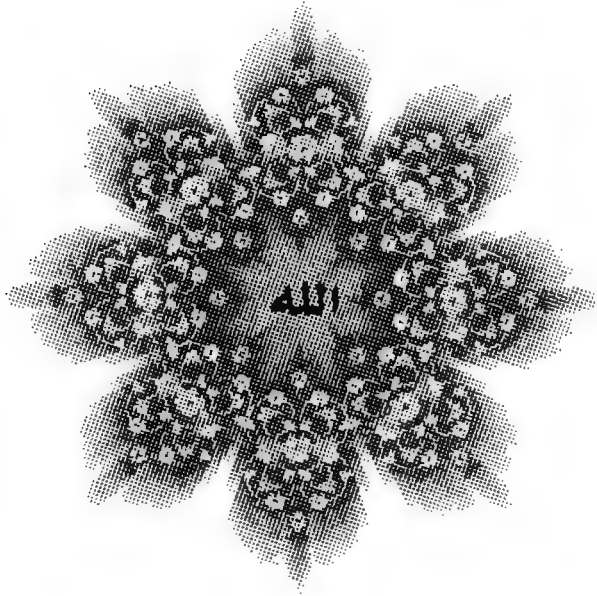
قال ابن كثير: ثم الذي لا يشك فيه من تدبر القرآن: أن نساء النبي ﷺ داخلات في قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾^(١).

فإن سياق الكلام معهن ولهذا قال الله تعالى بعد هذا كله:

﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾^(٢).

هذا وبالله السداد والتوفيق وهو أعلم بالصواب.



(١) سورة الأحزاب الآية : ٣٣.

(٢) سورة الأحزاب الآية : ٣٤.



الوفاء وأثره فى تحقيق السعادة فى الحياة الزوجية

الوفاء صفة محمودة فى الرجال والنساء. والوفاء دليل الصدق والحب والإخلاص، ولقد مدح الله سبحانه وتعالى الأوفياء بقوله: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (١).

ووعد الأوفياء بالأجر الكبير قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيزَتْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٢).

والوفاء دائماً يرتبط بالتقوى، ومن ثم لا يتغير فى التعامل مع عدو أو صديق، ولقد كانت زينب بنت الرسول ﷺ مثلاً حياً فى الوفاء -
الوفاء لأسرتها التى ترعرعت بين أحضانها.

والوفاء لدينها الذى أكرمها الله به، والوفاء لزوجها الذى ارتبطت به.
ومن أجل ذلك ما كادت تعلم بأسر زوجها، وأنه لا يطلق سراحه إلا بالفدية. حتى سارعت بتقديم الفدية بأعلى شئ يمكن أن تحافظ عليه وهو القلادة التى قدمتها لها أمها يوم زفافها.

إن هذه القلادة تحمل ذكريات عطرة لا يمكن أن تمحى أو تتسى بتقادم الزمن. إن هذه القلادة هدية الأم الحنون التى سهرت الليالى، حول مهدها تهدده وترعاها من كل شئ يمكن أن يصيبها. إنها أغلى الناس وأبر الأمهات.

وأيضاً ارتبطت هذه القلادة بليلة الزفاف، تلك الليلة التى هى أغلى الليالى وأحلى الأيام فى حياة كل عروس تزف إلى رجلها.

(٢) سورة الفتح الآية: ٢٠.

(١) سورة آل عمران الآية: ٧٦.

ولكن الوفاء دفعها أن تقدمها عن طيب خاطر حتى يعود إليها زوجها الذي يملأ الحياة حولها نوراً وبهاء.

ولا شك أن هذا الموقف الذي وقفته زينب، يحسب لها على صفحة التاريخ بأحرف من نور، ولقد كان له في قلب أبي العاص الفرحة التي لا تتسى، والنفمة الحلوة التي لا تمحى، والأريج الذي لا يبدده الأثير، ولا يتلاشى عند هبوط أعاصير الزمن.

وهل ينسى أبو العاص عندما حاصره الأعداء وسدت أمامه كل المنافذ، وأوشك أن يكون طعمة لسيوفهم وهدفاً لرماحهم، ولم يكن أمامه مفر إلا اللجوء إلى زينب أملاً أن يجد في جوارها الأمن والأمان. فكانت عند حسن ظنه، وفتحت قلبها ووفاءها للزوج المطارد وقامت لتعلن أمام جموع المسلمين كلمتها التي دوت أصداؤها في مسجد الرسول ﷺ.

«أيها الناس: إنى قد أجرت أبا العاص بن الربيع» عندها تبدل الخوف أمناً، والحزن فرحاً، وردت إليه الأموال التي أخذت منه وعاد إلى مكة، وعلى رأسه أكاليل الفوز والظفر.

ولقد بادلها أبو العاص وفاء بوفاء وحباً بحب، وكان لها نعم الزوج الحنون، والأب البار لأبنائها، ومن أجل ذلك قال عنه الرسول ﷺ: «حدثني فصدقني ووعدني فوفاني».

وبهذه الكلمات الصادقة الطيبة التي قالها رسول الله ﷺ نستطيع أن نضع أيدينا على مفاتيح شخصية هذا الرجل الذي قبله رسول الله صهراً له.

إن من أهم الصفات التي يتميز به أبو العاص الصدق، والصدق من علامات الإيمان، وشاهد على تكامل الشخصية والرجولة.

والرجل الصادق قريب من الناس، لأنه يصدقهم ولا يخدعهم.

وقريب من الله سبحانه وتعالى، لأدائه ما أمره به من عبادات وتكاليف.

الرجل الصادق يستمر فى صدقه حتى يصبح عند الله صديقاً، والرجل الكاذب يستمر فى كذبه حتى يكتب عند الله كذاباً.

والأمم والشعوب كالأفراد فى صفة الصدق والكذب، فالأمة التى تنشئ أبناءها على الصدق يزداد رصيدها من الرجال الأقوياء الذين يعملون بصدق وإخلاص.

فهم صادقون فى عملهم، يجودونه ويهتمون به.

وهم صادقون مع مجتمعهم يعملون لسعادته ويسهرون على راحة أبنائه، فإذا كانوا جنوداً وقفوا على حدوده ودافعوا عن حياضه.

وردوا عنه- بصدقهم- وحسن بلائهم هجمات المهاجمين، وغارات المغيرين، وإن كانوا فى داخله فهم مع الإنتاج حتى يزيد.

ومع الأرض القاحلة حتى تخضر، ومع الأغوار البعيدة حتى تستخرج المعادن.

ومع الأطفال الصغار بالتعليم والتدريب والرعاية، حتى يودعوا عهد الطفولة وينضموا إلى صفوف الرجال، وما أحوج الأمة الإسلامية فى عهدها الراهن إلى مجتمع الصادقين.

والصفة الثانية فى زوج زينب عليها السلام الوفاء.

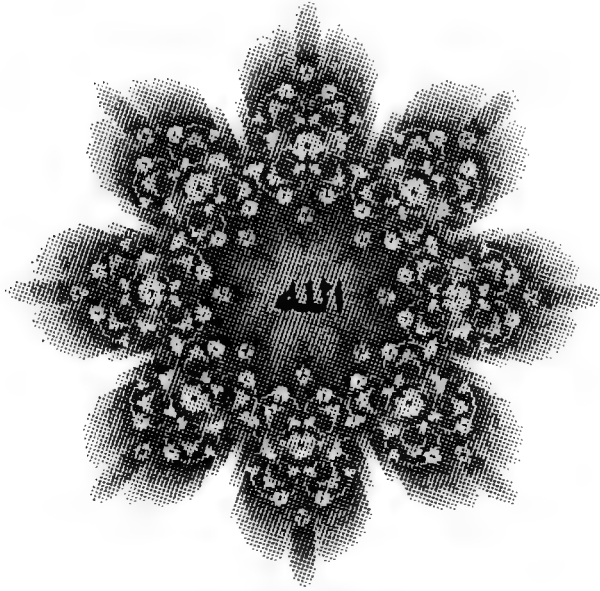
والوفاء: أحد المعالم الأساسية فى شخصية الرجل المسلم، والمرأة المسلمة، ولا يكتمل إيمانها وإسلامها إلا إذا تحلوا بهذه الصفة الجليلة.

لقد كان أبو العاص، يستطيع أن يعلن إسلامه فى المدينة، ويستولى على تجارة قريش وأموالها وهو إذا فعل ذلك لا يعارضه إنسان، ولا يستطيع قريش أن تنال منه أو تصل إليه ولكنه لم يفعل- لأنه إن فعل ذلك- لا يقبله الإسلام الذى يريد الانتماء إليه ولا يقبل منه صلاة ولا صياماً، ولا دعاء، هذا فى الدنيا أما فى الآخرة فهو من أصحاب النار.

وفي عصرنا هذا نرى شيئاً عجيباً دولاً كبيرة، تدعى أنها ذات حضارة وتمدن تسطو على أموال الشعوب التي أوثمنت عليها في مصارفها فتجمدها تارة، وتستولي عليها أخرى.

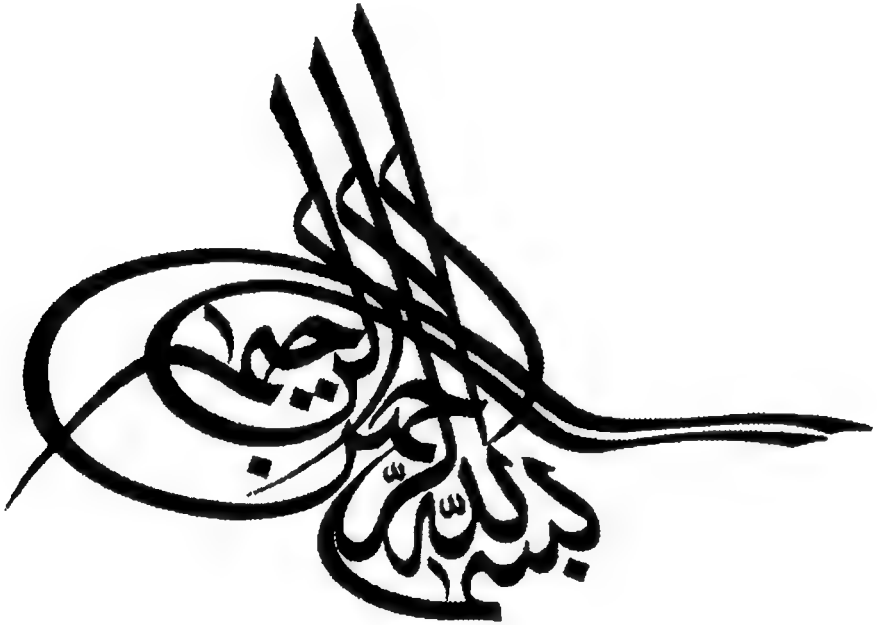
وهي بهذا العمل تخالف الأعراف الدولية، وتخون الأمانة التي أوثمنت عليها، وتمزق كل روابط العهود والمواثيق.

فمتى تعود هذه الدول - إلى شرع الله؟ متى تعود إلى أبسط قواعد الإنسانية التي أخذت نفسها بها في تاريخها الطويل؟ متى يحدث هذا حتى يعود الأفراد والجماعات إلى الوفاء بالوعد، والصدق في القول والأمانة في المعاملات. فمتى يحدث هذا يا رب؟ إنا لمنتظرون.



أَسْمَاءُ ذَاتِ الْإِطْاقِينَ

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا
وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ
رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

(البقرة: ٢١٨)

أقوال العلماء والمفسرين فى نزول هذه الآية

هذه الآية الكريمة هل نزلت فى حادثة معينة؟

أم أنها دعوة إلى الهجرة إلى الله، والفرار إليه؟

وهل هى خاصة بالمهاجرين من الرجال فقط.

أم تراها تعم الرجال والنساء؟

إن رأى الراجع يقول: إن هذه الآية تشمل كل المهاجرين والمهاجرات،

ولقد هاجرت أسماء إلى مدينة الرسول ﷺ فهل يمكن أن تشملها هذه الآية؟
وإذا كان ذلك كذلك.

فمن هى أسماء ذات النطاقين..؟



حياتها ونشأتها

والدها أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - أول من آمن بالرسول ﷺ من الرجل والذي قدم ماله كله في سبيل الدعوة إلى الله، وعندما سأله الرسول ﷺ ماذا تركت لأولادك يا أبا بكر: قال: تركت لهم الله ورسوله.

ورفيق الرسول ﷺ في الهجرة إلى يثرب. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِلَّا أَتَصَرُّوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ (١).

وصاحبه هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

وأختها عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها وزوج الرسول ﷺ وأحب الناس إلى قلبه، وعندما حدثت حادثة الإفك، نزلت براءتها من السماء قال الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ (٢).

(١) سورة التوبة الآية: ٤٠

(٢) سورة التوبة الآيتان: ١١، ١٢.

وزوجها الزبير بن العوام الذى قال عنه رسول الله ﷺ: «إن لكل نبي حوارياً وحوارى الزبير». وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الستة الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض.

أما عن أسماء: فهي ولدت قبل الهجرة بسبعة وعشرين عاماً وامتدَّ بها العمر لتموت بعد الهجرة بثلاثة وسبعين عاماً أى أنها عاشت قرناً كاملاً من الزمن.

وقد التقت التاريخ إليها ليسجل أعمالها من تاريخ الهجرة عندما أطلق عليها رسول الله ﷺ ذات النطاقين.

من ذلك أنه فى ليلة من الليالى دخل رسول الله ﷺ ليبلغ أبا بكر أباهما بقرار الهجرة إلى يثرب. ولقد اتخذ الرسول ﷺ هذا القرار بعد أن اجتمعت قريش فى دار الندوة ومعهم إبليس اللعين، واقترح عليهم أبو جهل أن تختار كل قبيلة شاباً منها ثم يهجم هؤلاء الشباب مجتمعين فيضربوا محمداً ﷺ ضربة رجل واحد فيتفرق دمه فى القبائل، ولا تستطيع بنو هاشم أن تعادى قريشاً كلها لأنهم لا قدرة لهم على ذلك.

وهكذا خرج الرسول ﷺ مع صاحبه أبى بكر إلى غار فى جبل ثور واختبأ هناك وفى الصباح علمت قريش بخروج الرسول ﷺ، فأرسلت بعض فرسانها لمطاردته والعودة به إلى مكة.

وفى المساء كانت أسماء بنت أبى بكر وحدها دون جماعة المسلمين تحمل الطعام والشراب إلى النبى ﷺ فى مخبئه. وفى الليلة الثالثة، وصل الدليل عبد الله بن أريقط، فخرج النبى وصاحبه استعداداً للرحيل، فحملت أسماء سفرة الطعام ولم تجد ما تربطها به إلا النطاق ففكت نطاقها وشقته نصفين، ربطت السفرة بأحدهما، وانتطلقت بالشق الآخر ومن ذلك التاريخ لقبت بذات النطاقين.

ولم تكد أسماء تعود إلى البيت وتستقر بداخله حتى قرع الباب، وأطل عليهم نفر من قريش على رأسهم أبو جهل وسألها: أين أباك؟ ولكنها أنكرت معرفتها أين ذهب أبوها. وأخذ عدو الله في محاورتها، عله يأخذ منها بصيصاً من النور يدله على أبيها وصاحبه، وعندما أصرت أسماء على موقفها لطمها عدو الله أبو جهل لكمة عنيفة أطاحت قرطها وكانت لها آثارها السيئة على أذنها لفترة طويلة؟؟

ولقد دخلت أسماء بنت أبي بكر إلى الإسلام في وقت مبكر، وكانت من أولئك الذين أضاء الله قلوبهم بنوره في بدء الدعوة إلى الإسلام.

ثم تزوجت الزبير بن العوام. فكانت له الزوجة المخلصة أم البنين والبنات، وكانت تكبر أم المؤمنين عائشة عليها السلام بعشر سنوات، وقد شهدت قتله بعد معركة الجمل، فكان حزنها فيه كبيراً، وتمنت اللحاق به ولكن لكل أجل كتاب.

وتكر الأيام وتمر الليالي ويباع ابنها خليفة للمسلمين، والذي كان موطنه مكة المكرمة، ولكن بنو أمية لم يسلموا له بذلك، وخرج جيش جرار من الشام بقيادة الحجاج الثقفي، ليجبره على التنازل أو يقتله إن رفض الأولى، وتم حصار مكة على من فيها، وأخذت المناوشات بين القوة الضاربة التي جاءت من الشام والقوة المؤمنة الصابرة داخل مكة، وكان الهول كبيراً تساقطت قذائف المنجنيق على أعمدة الكعبة، وأخذ أتباع عبد الله بن الزبير يفرون منه ويتركون خليفتهم للمصير المجهول.

عندها ذهب عبد الله إلى أمه أسماء، وقد بلغت مائة سنة وأصبحت عمياء فقال: يا أماء خذلني الناس حتى ولدي وأهلي، فلم يبق معي إلا اليسير.

فقالت الأم: أنت والله يا بني أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على الحق وإليه تدعو فامض له، فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكن من رقبتك يتلاعب

بها غلمان بنى أمية.

وان كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت، أهلك نفسك، وأهلك من قتل معك.

وان قلت كنت على الحق فلما وهن أصحابي ضعفت، فهذا ليس فعل الأحرار، ولا أهل الدين. ثم تابعت حديثها قائلة له كم خلوك في هذه الفانية؟ القتل أحسن؟

فدنا منها وقبل رأسها وقال: هذا والله رأيي يا أماء، ولكني أحببت أن أعلم رأيك فزدتني بصيرة مع بصيرتي.

ثم اقترب من أمه قائلاً: فانظري يا أماء، إنني مقتول من يومى هذا فلا يشد حزنك وسلمى الأمر لله تعالى.

قالت الأم المكومة: صدقت يا بنى أتم الله عليك بصيرتك، وادن منى أودعك فدنا منها فقبلها وعانقها. ثم خرج إلى القتال وظل يقاتل حتى قتل.

ولقد وضع الحجاج جثة عبد الله بن الزبير على خشبة ورفعها، وحلف ألا ينزل من عليها حتى تشفع فيه أمه. لكن أسماء المؤمنة الصابرة، أبت أن تخفض رأسها للحجاج أبداً، وهى تعلم أن ابنها مات شهيداً فى سبيل الله وذهبت روحه إلى ربه، وهو حي يرزق كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١).

فظل معلقاً سنة كاملة حتى مرت تحته وقالت: أما آن لهذا الفارس أن يترجل؟ ففسر كلامها على أنه شفاعة فأنزل؟

وفى رواية أن عبد الله بن مروان أمر بإنزاله، وكانت أمه تقول: اللهم لا تمتنى حتى تفر عيني بجثته.

(١) سورة آل عمران الآية: ١٦٩.

وحين حدث هذا واستقرت الجثة في قبرها ماتت بعده بأسبوع واحد، وتذكر الروايات التاريخية أن الحجاج دخل في يوم من الأيام على أسماء متكبراً وقال لها:

كيف رأيتي صنعت بابتك؟

فقالت:

أفسدت عليه دنياه، وأفسد عليك آخرتك. إنها المرأة الحكيمة المؤمنة. إنها بنت أبي بكر الصديق - رضي الله عنه.

ولقد اكتسبت أسماء من أبيها الكثير من الصفات الحميدة والأخلاق الفاضلة، إنها الأم التي ربت فأحسنت التربية، وتزوجت فكانت زوجة مثالية، وهاجرت بدينها، وفرت إلى ربها، وسجل التاريخ اسمها على جبهته بأحرف من نور.

ونتساءل لو عادت أسماء ذات النطاقين إلى حياتنا المعاصرة، وأرادت أن توصي بنات جنسها وهن مقبلات على الزواج فماذا تراها قائلة لهن حتى يصبحن زوجات صالحات، وأمهات بارات، ونساء مسلمات محصنات؟



نصيحة الأمهات الى البنات قبل الزفاف

قلنا فى حديثنا السابق أن أسماء بنت أبى بكر الصديق ﷺ الصابرة المؤمنة، القانئة الصادقة، الأم الحنون، والزوجة الوفية، لو عادت إلى حياتنا المعاصرة تلك الحياة التى طغت عليها الأفكار الوافدة من الشرق والغرب فهى تغزو وتسلب وتغير وتبدل.

وأرادت إحدى الفتيات المسلمات أن تستعين بخبرتها فى الحياة، وبتجربتها فى معاملة زوجها- حتى تقام حياة أسرية سعيدة- فماذا تراها قائلة لها.

إننا نتصور أن تبدأ حديثها معها بقولها:

ابنتى المسلمة: إن العلاقة بينك وبين زوجك يجب أن تقوم على الحب والمودة، بحيث يأتلف بها قلباكما، وتتصل بها روحاكما وحتى يصبح كلاكما موضع سرٍّ الآخر وشريكه فى البؤس والرخاء... ويجب أن يكون بينك وبين زوجك من الملازمة والاتصال الأبدى ما يكون بين الجسد والثوب، فأنت وكل زوجة موضع الراحة والسكينة لأزواجكن، ولا وظيفة فطرية إلا أن تهينى لزوجها أمنه وسكينته وراحته.

وأول نصيحة أقدمها لك:

أن تطيعى زوجك فيما يأمرك به سرّاً وعلانية، لأن الطاعة مجلبة للهناء والرضا والمخالفة تولد الشحنة والبغضاء. وطاعة الزوج أمر به الرسول ﷺ عندما قال لأم سلمة: «إذا أدت المرأة فريضة ربها وأطاعت زوجها، وحركت

المغزل كانت كأنها تسبح لله»^(١).

وقال ﷺ: «جهاد المرأة «حسن التبعل» أى طاعة الزوج والتزين له.

وقيل له: يا رسول الله: أى النساء أفضل؟ فقال ﷺ: التى تطيع زوجها إذا أمر وتسره إذا نظر»^(٢).

وطاعة المرأة لزوجها تقيم الأسرة المتماسكة التى يكون فيها الوالدان قدوة لأولادهما، فينشأوا على طاعة الوالدين لما يرون فى برّ الوالدين وطاعتهما النموذج الكريم للتطاوع وعدم التخالف.

وكم يسئ إلى الأولاد موقف الأم النشاز من أمر الوالد ويثير فيهم النفور والتمزق، وربما دفع إلى عدم احترام الوالدين على الكبر، مما يرون فى الوالدين من خلاف ونزاع وشقاق.

ولكى تعرفى ما فى طاعة الزوج من إرضاء لله وإرضاء للرسول ﷺ وإقامة دعائم البيت على المحبة والولاء أضع بين يديك هذه الواقعة التى حدثت فى عهد الرسول ﷺ.

«.. قدم معاذ بن جبل من الشام وعندما رأى رسول الله ﷺ سجد بين يديه فقال ﷺ: ما هذا؟

قال: يا رسول الله قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لبطارقتهم وأساقفتهم فأردت أن أفعل ذلك بك. قال: فلا تفعل فإنى لو أمرت شيئاً أن يسجد لشيء لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها»^(٣).

ثم قال ﷺ: «والذى نفسى بيده لا تؤدى المرأة حق ربها حتى تؤدى حق زوجها»^(٤).

(١) تقدم تخريجه . (٢) تقدم تخريجه .

(٣) أخرجه ابن ماجه باب (٤) حق الزوج على المرأة، أحاديث رقم ١٨٥٢ - ١٨٥٤، ج ١ ص ٥٩٥.

(٤) أخرجه أحمد ٤ / ٣٨١، وابن ماجه (١٨٥٣).

ثانياً يا بنيتي،

لا تفادري بيت زوجك إلا بأمره، ولا تذهبي إلى أهلك إلا بإذنه لأن خروجك من بيتك إلى أى مكان بغير علم زوجك فيه إشارة إلى عدم الاهتمام به أو المحافظة عليه. ويذكرنى موقفك هذا بالمرأة التى أرادت أن تتزوج فجاءت إلى الرسول ﷺ وقالت: يا رسول الله ما حق الزوج؟ إنها أرادت أن تعرف حقوق زوجها- قبل الارتباط به- حتى تؤديها وتعود نفسها على القيام بها فقال:

«إن من حق الزوج على الزوجة إذا أرادها وراودها عن نفسها وهى على ظهر بغير لا تمنعه.

ومن حقه ألا تعطى شيئاً من بيته إلا بإذنه فإن فعلت كان الوزر عليها والأجر له.

ومن حقه ألا تصوم تطوعاً إلا بإذنه، فإن فعلت جاعت وعطشت ولم يُتَقَبَل منها. وإن خرجت من بيتها بغير إذنه لعنتها الملائكة حتى ترجع إلى بيته أو تتوب».

إن خروجها يهدد العش الأمن الدافئ المستقر الراضى بالآلام والمخاوف والقلق، وهذه هى معاول الهدم للسعادة الأسرية.

ثالثاً يا بنيتي،

أرى أن تهتمى بتربية أولادك وتعويدهم على اتباع الأخلاق الفاضلة والسلوك الحسن، ولا شك أن زوجك يضرب فى فجاج الأرض ليهيئ لك ولأولادكما حياة هانئة مستقرة. فعليك أن تكونى راعية فى بيتك ومسئولة عن رعيته.

وقد امتدح النبى ﷺ نساء قريش معللاً فضلهنّ على غيرهن بأنهن أحانهنّ على ولد. والمرأة التى تترك أولادها للخدم أو الشارع إنما ترمى فى

الهاوية بمستقبلها ومستقبل أبنائها.

إن الطفل- يا بني- يتعلم من أمه كل شيء والأم التي تملأ البيت صراخاً إنما تصبّ في هذا القالب المرذول من الصوت الصاخب أسلوب أبنائها في الحديث.

والأم الصادقة- والتي تنكر ذاتها من أجل الغير- تورث أبنائها هذه الصفة التي يحتاجها المجتمع الإسلامي.

والأم التي تحترم زوجها وتقدر أهل الفضيلة والدين، وتتحاشى الرذيلة وتتفر منها ومن صحبة أهلها، تورث هذه العادة أبنائها وبناتها فيشبتون على الفضيلة نافرين من الرذيلة.

والأم التي تحرص على النظافة في نفسها وبيتها كما تحرص على ترتيب وتنظيم الأثاث وتنسيقه، إنما تزرع هذه العادة في أبنائها فلا يستثقلون أعباء النظافة والنظام، لأنهم سوف لا يجدون لهم راحة ولا يهنأ لهم مقام إلا إذا نهضوا إلى النظافة والنظام.

ثم لا تنسى أن تعتني بمرأى زوجك ومسمعه. وذلك بأن يرى بيتك نظيفاً رتيباً وأن يرى النظام والذوق في متاعه.. وأن يرى في أولاده التربية والأدب.

رابعاً يا بني:

أن تقومي بخدمة بيتك، لأنه واجب عليك، ولا شك أن العمل منك في داخل البيت أول دليل على تعاون الأسرة وتماسكها. ولتعلمي أنك لست أول واحدة تقوم بخدمة بيتها ولن تكوني الأخيرة يستوى في ذلك الغنية والفقيرة. وتعالى معاً نستمع إلى قصة أسماء بنت أبي بكر الصديق- رضي الله عنها- وهي تتحدث عن خدمتها في بيتها.

قالت: تزوجني الزبير بن العوام، وما له في الأرض من مال غير فرسه وناقته. فكنيت أعلف فرسه وأسوسه، وأدق النوى لناقته، وأستقي الماء وأخيط

الدلو وأعجن وكنت أنقل النوى على رأسى من ثلثى فرسخ- حتى أرسل إلى أبو بكر بخادم يكفينى سياسة الفرس فكأنما أعتقنى، فجئت يوماً والنوى على رأسى فدعانى رسول الله ﷺ لأركب خلفه على ناقته- فاستحييت أن أسير مع الرجال وذكرت الزبير وغيرته- وكان أغير الناس- فعرف رسول الله إنى أستحييت فلم يثقل علىّ.

فجئت الزبير فقلت: لقينى رسول الله ﷺ وعلى رأسى النوى- ومعه نفر من أصحابه، فأناخ لأركب معه فاستحييت وعرفت غيرتك.

فقال: والله لحملك النوى كان أشد علىّ من ركوبك معه. قالت: واستمر وضعى على ذلك حتى أرسل إلى أبو بكر بعد ذلك بخادم فكفتنى مؤنة الفرس فكأنما أعتقنى.

وتتابع أسماء ﷺ حديثها إلى الفتاة المعاصرة قائلة:

والنظافة يا بنيتى للمرأة ألزم من الجمال، لأن الجمال لا يلبث أن يزول متى زالت نضارة الشباب، أما النظافة فعادة باقية ما بقيت المرأة، ولذا حث الإسلام عليها. ولا شك أن المرأة التى تهمل نظافة نفسها تعمل على إبعاد زوجها بيدها ليرتمى فى أحضان أخرى نظيفة.

وتحضرنى يا بنيتى هذه الوصية التى قدمتها امرأة لابنتها قالت: لا تنسى نظافة بدنك فإن نظافته تحبب زوجك إليك، ونظافة بيتك تشرح صدرك، وتصلح مزاجك، وتثير وجهك، وتجعلك جميلة، ومحبوبة ومكرمة عند زوجك، ومشكورة من أهلك، ومن ذويك وأترابك وزائرتك. وكل من يراكم نظيفة الجسم والبيت تطيب نفسه ويسرّ خاطره.

هذا فضلاً عما للنظافة من تأثير فى توطيد أركان الصحة والصفاء، وما للقدارة من أثر فى جلب الأمراض والشقاء^(١).

وإياك يا بنيتى الكذب على زوجك. لأن الكذب يوجد فى نفس الرجل الشك والارتياب وهما سم الحياة الزوجية.

(١) سعاة الزوجين ج ١.

وإياك وشدة الانفعالات العصبية فهي تجعل البيت شبه جحيم وتجعل زوجك يفر منه. ويهرب من البقاء فيه.

لا تسرفي يا بنيتي في التجميل متى كان زوجك غيوراً لأن ذلك يفضب الغيور، ويشيره، ويلقى في قلبه أن زوجه تتجمل لسواه حتى ولو لم تكن في الواقع ذلك.

وإياك والإسراف في مدح أى رجل غريب أمام زوجك، فلا يصدر المدح منك بحسن نية، ولكن الزوج يكره أن تمدح امرأته رجلاً غريباً على مسمع منه، بل ولا يحب أن يسمع تفضيل مخلوق عليه.

وإياك يا بنيتي: والبطنة- الأكل الكثير- فإنه يفسد الجمال، ويجلب السمنة، وينحدر بالمرأة إلى مصاف الحيوان. وبمناسبة الطعام والتخمة... أذكرك بالمحافظة على صحتك، وتجنبى ما يشوه نضارتك من الأصباغ المفرية التى تدخل المسام وتلتصق حتى إذا ما سقطت تركت مكانها ثقباً صغيراً فى الجلد، تزداد مرة بعد مرة حتى تفقد الجلد لمعته الطبيعية التى تشاهد فى الوجوه النضرة الشابة والتى لم تلابسها الأصباغ والمساحيق.

وقد لوحظ أن الأصباغ التى تلون بها الشفاة تتبلور مع اللعاب فتقرزها الكلى سموماً، بسببها تتكاثر ظاهرة الإجهاض وتشنجات الحمل فى المستعملات المساحيق أكثر منها فى غيرهن.

ومن النصائح التى أوصت بها أمريكية ابنتها قولها: «لا يبرح من ذهنك أنك تزوجت بإنسان لا بكائن فوق البشر فلا تأخذك دهشة مما ترينه فيه من النقص والعيب. وقد يكون زوجك بلا قلب، ولكن له على كل حال معدة يجب إرضاؤها بتهيئة ما تشتهييه من الأطعمة. واتركى له من أن إلى آخر الكلمة الأخيرة، والقول الفصل... ففى هذا ما يسره ولا يضرك. ودعيه يعتقد- من أن إلى آخر- إنه أكثر منك علماً وأغزر معرفة فإن فى هذا الاعتقاد ما يسره، ويرضى عواطفه باعتبار كونه رجلاً».

وأخيراً تيقنى أنك لا تقدرين على محاربة الرجل بسلاحه «قوته فى

لفظه وكفه وعناده»^(١).

لأنه ثقيل في يديك النضيرة، وإنك لتتعبين من حمله، وسيريك الزمان أن أسلحة المرأة الماضية «الحادة» هي الجمال والاستسلام والحلم واللفظ والسكينة والخلال الطيبة والحنان والبكاء. ولعلك تظنينها أسلحة ضعيفة.. ولكن أؤكد لك أنها إذا شحذتها الحمية والأمانة كانت ماضية جداً، كافية لأن ترقق الطباع الخشنة وتخفف من غرور الرجل. وتحط من كبريائه حتى يأتي إليك بقلبه الكبير وببسمته العريضة التي تشيع في داخلك الأمن والطمأنينة وتملأ حياتك بالبهجة والسرور.

وهنا قالت الفتاة أكل هذا واجبات تقوم بها الزوجة؟ فماذا ترى الواجبات التي يقوم بها الرجل؟

فكانت لها: واجبات الرجل كثيرة لا تحصى، متشعبة لا يمكن حصرها فمن الواجبات التي يقوم بها الرجل:

الإنفاق على قدر حالته المادية قال تعالى: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾^(٢).

وسأل رجل رسول الله ﷺ قائلاً: ما حق زوجة أحدنا عليه قال: «أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت»^(٣).

ومن الواجبات المعاشرة بالمعروف قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾^(٤) ومن المعاشرة بالمعروف أن يتحَبَّبَ إليها ويناديها بأحب الأسماء إليها وأن يكرمها بما يرضيها.

قال ﷺ: «ما أكرم النساء إلا كريم». ومنها أن يحلم عليها إذا غضبت،

(١) المرأة في التصور الإسلامي. عبد المتعال الجابري. (٢) سورة الطلاق الآية: ٧.

(٣) أخرجه ابن ماجه (١٨٥٠) في النكاح: باب حق المرأة على الزوج.

(٤) سورة النساء الآية: ١٩.

ويصبر عليها إذا حمقت ومنها أن يستمع إلى حديثها ويحترم رأيها ويأخذ بمشورتها إذا أشارت عليه برأى جيد. ولقد أخذ رسول الله ﷺ برأى أم سلمة يوم الحديبية فكان في ذلك سلامة المسلمين.

ومن تلك المعاشرة بالمعروف أن يقدم لها هدايا مناسبة في مناسبات يدخل بذلك السرور على قلبها، ويبلغ قصده من رضاها.

قال ﷺ: «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي»^(١).

ومنها أن يعلمها دينها ومكارم الأخلاق وعن علي رضي الله عنه قال: «علموا أنفسكم وأهلكم الخير وأدبوهم».

ومن واجبات الرجل: أن يفار عليها في دينها ونفسها وكرامتها: لأن الزوجة أعظم ما يكنزه المرء، ولا يجوز أن يجعلها مضغة في الأفواه تلوكلها الألسنة، وتتقحمها الأعين، وتجرحها الأفكار والخواطر.

والغيرة من أخص صفات الرجل الشهم الكريم، وإن تمكنها منه ليدل دلالة فعلية على رسوخه في مقام الرجولة الحقة الشريفة.

ومن هنا كان كرام الرجال وأفذاذ الشجعان يمتدحون بالغيرة على نسائهم والمحافظه عليهن وأن من شرّ صفات السوء ضعف الغيرة وموت النخوة ولا يركن إلى ذلك إلا الأردلون.

يقول صاحب كتاب المرأة المسلمة: ولكن ما معنى الغيرة وما دلالاتها؟ هل الغيرة سوء ظن بالمرأة واتهام لها بالفطرة كما كان يزعم اليونان قديماً ومن جاء بعدهم من الذين يقولون عند كل جريمة فتش عن المرأة. لا: إن المرأة في الإسلام أخت الرجل وهي مسئولة مسئولية كاملة عند الله عما قدمت وأخرت. وقد نظم الإسلام هذا الأمر فيما يلي:

١ - أن لا تأذن لأحد بدخول بيته من رجل أو امرأة قريبة أو بعيدة إلا بإذنه فهو أدرى بمصلحة الأسرة لأنه القيم عليها فقد يكون في دخول أبيها وأخيها وأمها مفسدة عليه في أسرته. أما الأجنبية فلا تأذن بدخوله، ولو

(١) أخرجه الترمذی (٢٨٩٢)، والدارمی (١/ ١٥٩)، وابن ماجه حديث رقم (١٩٧٧) ج ١ ص ٦٣٦.

أذن الزوج لأنه إثم ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

ولا يُدخل هو عليها من لا يخاف الله تعالى، فقد يخون بنظرة أو كلمة ويرمى في البيت شرارة فتنة.

قال رسول الله ﷺ: «إياكم والدخول على النساء».

قالوا يا رسول الله: أرايت الحموم؟ قالوا: الحموم الموت^(١)..

والحموم أقارب الزوج أو الزوجة. وقال ﷺ: ثلاثة لا يدخلون الجنة: مدمن الخمر، والعاق لوالديه، والديوث: الذي يقر الخبث في أهله ولا يبالي من دخل على أهله^(٢).

وَألا تخالط بغير حضوره أقاربه وأصدقاءه فربما أرادوها بسوء، وربما بلغوا منها ما يريدون من السوء مع وقوع الإثم بمجرد الاختلاط بهم.

وقيل لأعرابية شريفة: كيف زנית وأنت كريمة في قومك؟

قالت: قرب الوساد وطول السهاد.

وبعد: هذه بعض الأسس التي وضعها الإسلام لقيام الأسرة المسلمة وسعادتها وما أحرى المجتمع الإسلامي في عصرنا الراهن أن يتمسك بها ويسير على هديها حتى لا تحلّ به الهموم والنكبات التي حلت بالأمم الأخرى عندما ساروا وراء شهواتهم ورغباتهم فهل تراهم سعدوا بذلك؟

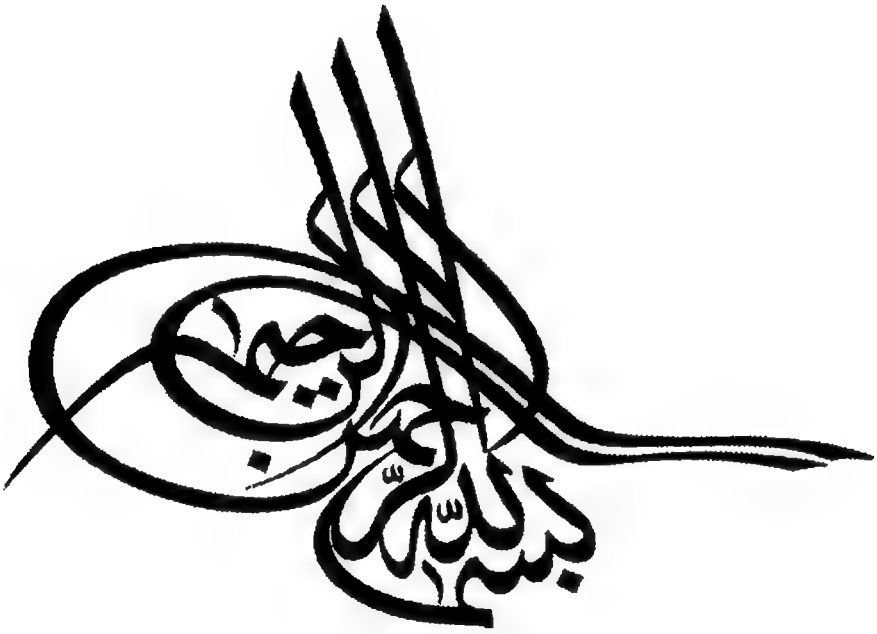
إن الإحصائيات لتدلّ على أنهم فقدوا السعادة، وتحولوا إلى آلات صماء تنقصها الروح... وكثرت فيهم الأمراض العصبية والنفسية بالرغم مما بلغوه من أوج الحضارة المادية.

فهل نحن معتبرون بذلك؟ لنعود إلى كتاب الله ونقيم حياتنا على هديه نرجو ذلك من الله.

(١) أخرجه البخاري (٢٩٠ / ٩) في النكاح، ومسلم (٢١٧٢) في السلام، والترمذي (١١٧١) في الرضاع.
(٢) أخرجه الحاكم (٧٢ / ١) من طريق عبد الله بن عمر، بلفظ: ثلاثة لا يدخلون الجنة: العاق لوالديه، والديوث، ورجلة النساء، وصححه ووافقه الذهبي، وأخرجه النسائي (٨٠ / ٥) في الزكاة عن ابن عمر أيضاً بلفظ: ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، والمرأة المترجلة، والديوث، وثلاثة لا يدخلون الجنة: العاق لوالديه، والمدمن الخمر، والمتان بما أعطى.

كِبْشَةُ بِنْتِ مَعْنِ الْأَنْصَارِيَّةِ

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ
تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لَتَذهَبُوا
بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ
مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ
كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا
وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ .

(النساء: ١٩)

أقوال العلماء والمفسرين فى نزول هذه الآية

قال كثير من رجال التفسير والحديث نزلت هذه الآية فى: كبشة بنت
معن الأنصارية.

قال ذلك الإمام البخارى (٦: ٤٤، ٩: ٢١).

وقاله الإمام الطبرى فى تفسيره (٨: ١٠٤).

وقاله الإمام القرطبى فى التفسير (٥: ٩٤).

وابن حجر فى كتاب الإصابة (٤: ١٦٠ - ١٦٢).

وصاحب الدر المنثور (٢: ١٣١).

فمن هى كبشة بنت معن الأنصارية...؟



نشأتها وحياتها

والدها معن بن عاصم كان فارساً مغواراً، خبيراً بصهوات الخيل، حكيماً في إدارة المعارك وجندلة الفرسان. وكان كريماً مضيافاً في أوقات السلم يقضى جلّ وقته بين حدائقه ومزارعه يتعهد أشجارها ويتفقد نضج ثمارها، ويقدم الكثير من غلاتها لذوى الحاجات وأبناء السبيل.

ولقد رزقه الله تعالى بالكثير من الأبناء النجباء الذين كانوا له خير معين في متطلبات الحياة، وحماية القبيلة. ولم يرزق من البنات إلا بالابنة الغالية المتفردة كبشة.

وهو من قبيلة الخزرج التي أفردت لها كتب التاريخ صفحات مطولة بالفخار والمجد، ونعتت رجالها بالإقدام والشجاعة في ساحة القتال، وبجميل الأخلاق وحسن الأحدث في المعاملات.

ولقد مات الوالد قبل مبعث الرسول ﷺ وكانت كبشة في ذلك الوقت طفلة تحبو، وما لبثت أن لحقت به الأم.

فقام إخوتها بالرعاية والتوجيه، وحسن الأدب وطيب المعاملة حتى شبت عن الطوق ودخلت في مرحلة الشباب. يصفها الرواة بأنها كانت صبوحة الوجه، فارعة القد، جميلة العينين، حلوة السجايا الأمر الذي جعل شباب يثرب كل منهم حريص على الظفر بها زوجة تجميل حياته، وتؤنس وحشته،

ويرزقه الله منها بالبنين والبنات، ولكن إخوتها كانوا يظنون بها على الخطاب ويردونهم رداً جميلاً بحجة صغر سنها، وقلة خبرتها بشئون الحياة والزواج.

ومرت الأيام بها رحية حلوة، هادئة طيبة- حتى كان يوم تقدم لخطبتها أبو قيس بن الأسلت الذي كان يعدل بقيس بن الخطيم في الشجاعة والشعر فبارك أخوتها هذه الخطبة وتم زواجها به.

ولكن أبا قيس كان كثير التجوال، صاحب سفر وترحال يقول عنه ابن سعد عن الواقدي: «لم يكن أحد من الأوس والخزرج أوصف لدين الحنيفة ولا أكثر مساءلة عنها من أبي قيس بن الأسلت» ثم خرج إلى الشام وصحب معه زوجه كبشة، وعلى أرض الشام شاهدت كبشة العيون الفوارة بالماء، والحدائق الغناء، والأنهار الجارية، وحضارات الأمم، وعادات الشعوب، وكانت عينها الفاحصة تحس كل شيء، وترصد كل منظر، وتدقق في نعم الله التي لا تحصى ولا تعد.

ولقد نزلت هي وزوجها على آل جفنة: فأغدقوا عليهما الكثير، ووصلوهما وكان زوجها يبحث عن الرهبان والأحبار، ويسألهم عن خالق الأرض والسماء، وموجد الحياة والموت، وكان يطرق سمعها هذا الكلام فتقبله حيناً وتنفر منه أحياناً. ولقد أرادهما الرهبان الدخول في دين المسيحية ولكنهما امتنعا.

وفي يوم من الأيام جاء إلى ساحتهما راهب وقال لهما إن كنتما تبحثان عن دين الحنيفة فهو من حيث خرجتما. وهو دين إبراهيم.

فعاد أبو قيس ومعه زوجته إلى مكة، فطافا بالبيت وأديا مناسك العمرة والتقىا يزيد بن عمرو بن نفيل. أحد الحكماء في الجاهلية وابن عم عمر بن الخطاب- رضي الله عنه - عمرو بن نفيل: الذي جاهر بكراهة عبادة الأوثان، وكان عدواً لواد البنات لا يعلم بنت يراد وأدها إلا قصد أباهها وكفاه مؤنتها،

فيريبيها حتى إذا ترعرعت عرضها على أبيها فإن لم يأخذها بحث لها عن كفؤ فزوجها به ولقد رحب بهما عمرو، وأكرم وفادتهما، ودعاهما إلى عبادة الله وحده على شرع إبراهيم، فاستجابا له.

ثم عادا إلى المدينة، وبقي عمرو بن نفيل فيها، ولقد رآه النبي ﷺ قبل النبوة، وسئل عنه بعدها. فقال ﷺ: «عمرو بن نفيل يبعث يوم القيامة أمة وحده».

وفى المدينة سارت الحياة رتيبة بأبى قيس وزوجته، وكان يجمع الناس ويدعوهم إلى الحنيفية، فكانوا ينصرفون عنه، فكان يقول: «ليس أحد على دين إبراهيم إلا أنا وزيد بن عمرو، وكان يذكر صفة النبي ﷺ وكان يبشر بهجرته إلى يثرب».

وجاء الرسول ﷺ ومعه صاحبه أبو بكر إلى المدينة بعد رحلة شاقة مضنية وكان الاستقبال لهما رائعاً والحفاوة بمقدمهما كبيرة. وتوافد أهل يثرب إلى مجلس الرسول ﷺ يستمعون إلى كلمات الوحي المتتابع على خاتم النبيين وسيد المرسلين وحرص أبو قيس على حضور مجلس الرسول ﷺ خارج المسجد وداخله. فإذا عاد إلى بيته ألقى على مسامع زوجته كبشة آخر ما نزل على الرسول ﷺ فيكون لهما دستوراً فى حياتهما يستظهران آياته، ويأخذان أنفسهما بأوامره، ويجتنبان نواهيه.

وفى يوم من الأيام ألقى أبو قيس على مسامع زوجته كبشة قول الله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (١)

لقد رزقهما الله المال الوفير، ورزق زوجها من زوجته السابقة ابناً، وتمنت أن يكون لها ابناً من زوجها أبى قيس، نعم ابناً يجمع حياتها، ويزين أيامها، ويملاً قلبها بالحياة والأمل.

ولكنها لم ترزق بالولد، وإرادة الله ومشئيته غالبية، عندها صبرت

(١) سورة الكهف الآية: ٤٦.

واستسلمت لقدر خالقها ومولاها وتمتعت بينها وبين نفسها بقول الله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ (١).

عندها طلبت كبشة من زوجها أن يأتي بابنه الذي يعيش في بيت أهل أمه إلى بيتها، لتكون له أمّاً بعد فقد الأم، وعاهدته أن تطعمه أشهى الطعام وتلبسه أجمل الثياب، وترعاه كما ترعى نفسها، وتحافظ عليه بنور عينيها.

واستجاب الزوج لطلب زوجته كبشة، وجاء الابن فملاً حياتها بالبهجة والسرور، واستراحت كبشة لذلك وآمنت أن الله تعالى قد عوضها بآبن زوجها خيراً كثيراً.

ولكن في يوم ليس كمثله يوم أحس أبو قيس أن جسمه ثقيل، وقدميه عاجزتان عن حمله إلى مجلس الرسول ﷺ إنه مرض الشيخوخة ومقدمات الموت وحزن حزناً كثيراً لذلك، وأخذت زوجته في التخفيف عنه والتطيب لأوجاعه، ولكنه كان يحس إحساساً صادقاً بدنو أجله.

وكان يقول لها: يا كبشة لكل بداية نهاية، ولكل ليل صباح، ولكل سافرة حجاب ولكل أجل كتاب..

وأنا لا شك أن أجلي قد اقترب، فإن لم يأتني غداً فهو لا شك واقع بعد غد. ثم أخذ نفساً عميقاً وتابع حديثه قائلاً: وأنا لا أخشى الموت، ولا ترهبنى سكراته، ولا يمكنني الفرار منه لأن الله تعالى يقول: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ (٢).

وإنما الذي يقلقني يا كبشة هو ابني وأخشى عليه تقلبات الأيام ومفاجآت الليالي.

فكانت تطمئنه بأنه في رعاية الله وعنايته، وهو منها في سويداء القلب وحبّة العين، لأنه الذكرى الغالية الباقية لى منك. وما كادت كبشة تكمل حديثها، حتى فاضت روحه إلى بارئها.

(١) سورة البقرة الآية: ٢١٦. (٢) سورة الجمعة الآية: ٨.

مات أبو قيس، وما كادت جثته توارى تحت التراب، حتى قام ابنه الوحيد المسمى حصن فطرح ثوبه عليها فورث نكاحها، ثم تركها فلم يقربها ولم ينفق عليها، يضارها لتفتدى منه بمالها، فأنت كبشة إلى رسول الله ﷺ فقالت: «يا رسول الله، إن أبا قيس توفي وورث ابنه نكاحي، وقد أضربى وطول على فلا هو ينفق عليّ، ولا يدخل بي، ولا يخلى سبيلي».

فقال لها رسول الله ﷺ: «اقعدى في بيتك حتى يأتى فيك أمر الله».

قال: فانصرفت، وسمعت بذلك النساء في المدينة، فأتين رسول الله ﷺ وقلن: ما نحن إلا كهيئة كبشة غير أنه لم ينكحنا الأبناء ونكحنا بنو الأعمام فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ (١).

حرم الإسلام وراثه المرأة كما تورث السلعة والبهيمة.

كما حرم العضل الذي كانت تسامه المرأة، ويتخذ أداة للإضرار بها.

وجعل للمرأة حريتها في اختيار من تعاشره ابتداء أو استئنافاً. بكرة أم ثيباً، مطلقة أو متوفى عنها زوجها وجعل العشرة بالمعروف فريضة على الرجال، قال تعالى:

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (٢).

(١) سورة النساء الآية: ٢٢.

(٢) سورة النساء الآية: ١٩.

أسباب نزول الآيات

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾.

«كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامراته، إن شاء بعضهم تزوجها وإن شاءوا زوجوها، وإن شاءوا لم يزوجوها، وهم أحق بها من أهلها فنزلت هذه الآية في ذلك» (١).

وقال المفسرون: كان أهل المدينة في الجاهلية، وفي أول الإسلام إذا مات الرجل وله امرأة جاء ابنه من غيرها أو قريبه من عصبته فألقى ثوبه على تلك المرأة فصار أحق بها من نفسها ومن غيره، فإن شاء أن يتزوجها بغير صداق إلا الصداق الذي أصدقها الميت، وإن شاء زوجها غيره وأخذ صداقها ولم يعطها شيئاً، وإن شاء عضلها وضارها لتفتدي منه بما ورثت من الميت، أو تموت هي فيرثها.

ومن ذلك أن أبا قيس بن الأسلت الأنصاري توفي وترك امرأته كبشة بنت معن الأنصارية، فقام ابن له من غيرها يقال له: حصن، وقال مقاتل: اسمه قيس بن أبي قيس، فطرح ثوبه عليها فورث نكاحها، ثم تركها فلم يقربها، ولم ينفق عليها يضارها لتفتدي منه بمالها، فأتت كبشة إلى رسول الله ﷺ فقالت: «يا رسول الله، إن أبا قيس توفي وورث ابنه نكاحي، وقد أضرب بي وطول على، فلا هو ينفق علي ولا يدخل بي، ولا هو يخلي سبيلي».

فقال لها رسول الله ﷺ: «أقعدى في بيتك حتى يأتي فيك أمر الله».

قال: فانصرفت، وسمعت بذلك النساء في المدينة، فأتين رسول الله ﷺ وقلن: «ما نحن إلا كهيئة كبشة غير أنه لم ينكحنا الأبناء، ونكحنا بنو العم فأنزل الله تعالى هذه الآية» (٢).

(١) راجع الدر المنثور (٢: ١٢١) وتفسير الطبري (٨: ١٠٤) وتفسير القرطبي (٥: ٩٤) ورواه البخاري في التفسير عن محمد بن مقاتل، ورواه في كتاب الإكراه عن حسين بن منصور، كلاهما عن أسباط.

(٢) راجع أسباب النزول للواحدى ص ١٤٠.

وأخرج الفريابي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والبيهقي في سننه عن عدى بن ثابت الأنصاري قال: «توفي أبو قيس بن الأسلت، وكان من صالحى الأنصار، فخطب ابنه قيس امرأته فقالت: «إنما أعدك ولداً وأنت من صالحى قومك، ولكن أتى رسول الله ﷺ فأستأمره. فأتى رسول الله ﷺ فقالت:

إن أبا قيس توفي. فقال لها: خيراً. قالت: وإن ابنه قيساً خطبني، وهو من صالحى قومه، وإنما كنت أعدّه ولداً فما ترى؟

قال: ارجعى إلى بيتك فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ (١)

قال البيهقي: مرسل (٢).

وقال ابن جرير عن عكرمة: «نزلت في أبي قيس بن الأسلت، خَلَفَ على أم عبيد بنت صخر، كانت تحت الأسلت أبيه، وفي الأسود بن خلف، وكان خَلَفَ على بنت أبي طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار، وكانت عند أبيه خلف، وفي فاخنة ابنة الأسود بن المطلب بن أسد كانت عند أمية بن خلف، فخلف عليها صفوان بن أمية، وفي منظور بن رباب، وكان خلف على مليكة ابنة خارجة وكانت عند أبيه رباب بن سيار» (٣).

(١) سورة النساء آية: ٢٢.

(٢) راجع الدر المنثور (٢ : ٢٣٩) ط دار الكتب العلمية.

(٣) المصدر السابق (٢ : ٢٣٩).



موقف البشرية من المرأة عبر التاريخ

كانت المرأة فى القرون الغابرة فى وضع لا يليق بها كإنسانة، لأنها فى تصور أكثر الشعوب- فى تلك العهود- تعد أصلاً لكثير من الشرور، ومنبعاً للأثام والخطايا .

ويطيب لنا فى هذه الكلمة أن نستعرض بعض هذه المعتقدات قبل نزول آخر الرسائل السماوية إلى دنيا البشر.

فالمرأة فى شريعة «مانو» عند الهنود خادمة مسخرة لتلبية رغبات الزوج أو الأب، لا تملك حق التصرف، أو إبداء رأى فيما يتعلق بشئون الحياة. فإذا مات زوجها أحرقوها حية ودفنوها معه وبقيت هذه الجريمة النكراء سارية فى تلك البلاد إلى وقت قريب من القرن الماضى.

ويتساءل المرء أين عاطفة البنوة وصلة الرحم؟ وكيف سمح الأبناء والبنات بحرق أمهم حية أمام أعينهم، ودفنها مع زوجها الذى مات مودة طبيعية؟ إن الكثير من الحيوانات المعجومات يتعفن عن مثل هذه الجريمة النكراء، فكيف سمح بها الإنسان الذى كرمه ربه، وفضله على كثير من خلقه؟

وفى شريعة «حمورابى» تعتبر المرأة سائمة لا فرق بينها وبين بقية الحيوانات السائمة، وإذا قتل رجل- عن طريق الخطأ- ابنة رجل آخر فعلى القاتل أن يسلم ابنته إلى ولى المقتولة ليقتلها أو يسترقها مدى الحياة حسبما يعنُّ له.

وكذلك كانت المرأة عند دولة اليونان والرومان. ويقول «كانو» مشرع الرومان: إن قيد المرأة لا ينزع ونيرها لا يخلع، وكانت محط احتقارهم وسوء ظنونهم. فإذا خرجوا للحرب، طوقت المرأة بما يسمى «حزام العفة» حتى لا تكون مطمئناً لشهوات الرجال ونزواتهم.

وكانت المرأة عند اليهود والنصارى تعتبر أصل الشرور ومنبع الخطيئة، وهى نجسة وخاصة فى أيام حيضها، ومن لامسها يكون نجساً سبعة أيام، وهى عندهم سبب خروج آدم من الجنة، فهى التى أغرته بأكل التفاحة «الشجرة المحرمة» وهى سبب اللعنة الأبدية التى نزلت بآدم وذريته.

ففى التوراة المحرفة، فى الإصحاح الثالث من سفر التكوين جاء ما يلى: «وكانت الحية أصل الحيوانات البرية، فقالت للمرأة: أحقاً قال الله تعالى لا تأكلا من كل شجر الجنة؟

قالت المرأة للحية: من ثمر شجر الجنة نأكل، أما ثمر الشجرة التى فى وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منها، ولا تمساها لئلا تموتا.

فقالت الحية للمرأة: لن تموتا بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تتفتح أعينكما وتكونا كالإله عارفين الخير والشر.

فراأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها بهجة للعيون، وأن الشجرة شهية للنظر فأخذت من ثمرها وأكلت، وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل وانفتحت أعينهما، وعلمتا أنهما عريانان فخاطبا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر. وسمعا صوت الرب الإله ماشياً فى الجنة عند هبوب ربح النهار فاختبأ آدم وامراته من وجه الرب الإله فى وسط شجر الجنة.

فتنادى الرب الإله آدم وقال له: أين أنت؟

فقال له: سمعت صوتك فى الجنة فخشيت لأنى عريان واخبتأت؟

فقال: من أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التى أوصيتك أن لا

تأكل منها؟ فقال آدم: المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجر.

فقال الرب الإله للمرأة: ما هذا الذي فعلت؟

فقالت المرأة: الحية غرتني فأكلت. فقال الرب الإله للحية: لأنك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جموع الوحوش البرية، وعلى بطنك تسعين، وتراباً تأكلين كل أيام حياتك، وأضع عداوة بينك وبين المرأة، وبين نسلك ونسلها هو يسحق رأسك، وأنت تسحقين عقبه».

وهذه الأضاليل والمفتريات يخلو منها كتاب الله تعالى الذي أنزله ليكون خاتماً للكتب السماوية، وحفظه من التحريف والتبديل قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (١).

ويقول تعالى عند ذكره لقصة آدم:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً (١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى (١١٦) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجُكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى (١١٩) فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى (١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (٢)﴾.

وقال أيضاً:

﴿قُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (٣).

(١) سورة الحجر الآية: ٩.

(٢) سورة البقرة الايات: ٣٥ - ٣٧.

(٣) سورة طه الايات: ١١٥ - ١٢٢.

فالمرأة ليست سبباً للخطيئة، وليست هي التي وسوست لآدم ولكن هي وزوجها كانا هدفاً لوسوسة الشيطان. والخطيئة في منهج الإسلام فردية والتوبة فردية، فليست هناك خطيئة مفروضة على الإنسان قبل مولده- كما تقول نظرية الكنيسة، وليست هناك تكفير لاهوتى وإنما خطيئة آدم شخصية، والخلاص منها كان بالتوبة المباشرة فى يسر وبساطة.

﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ (١).

وليست المرأة شيطاناً كما يقول القديس «بونا» الذى كان يقول لتلاميذه: «إذا رأيتم امرأة فلا تحسبوا أنكم رأيتم كائناً بشرياً. وإذا رأيتم امرأة فلا تظنوا أنكم رأيتم كائناً وحشياً، إنما الذى ترون هو الشيطان بذاته».

أين هذا من قول الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (٢).

وقول الرسول ﷺ: «النساء شقائق الرجال» (٣).

من هذا نرى أن الإسلام قد كرم المرأة وأعلى من شأنها لأنها هي الأم الذى قال عنها الرسول ﷺ: «الجنة تحت أقدام الأمهات» (٤).

وعندما جاءه أحد الصحابة وقال له: يا رسول الله من أحق الناس بحسن الصحبة؟ قال الرسول ﷺ: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أبوك» (٥).

ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا

(١) سورة طه الآية: ١٢٢.

(٢) سورة الروم الآية: ٢١.

(٣) رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها ضعفه الترمذى وحسنه بعضهم.

(٤) الحديث رواه أحمد والنسائى وابن ماجه والحاكم عن معاوية بن جهمه.

(٥) الحديث أخرجه البخارى فى الأدب (٢) ومسلم فى البر (٤) وابن ماجه فى الوصايا (٤) وأحمد

ابن حنبل فى المسند (٢: ٢٢٧، ٢٩١) حلى.

يَلْتَمِسُ عِنْدَكَ الْكَبِيرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفْ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (١).

وهي زوجة: تعامل بالرفق واللين يقول الرسول ﷺ:
«رفقاً بالقوارير يا أنجشة».

والزوجة ستر ووقاية لزوجها. وهو كذلك قال تعالى:
﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾ (٢).

وهي ابنة يقول الرسول ﷺ:
«من رزق من البنات بشيء فأحسن إليهن وأدبهن كن له ستراً من النار» (٣).

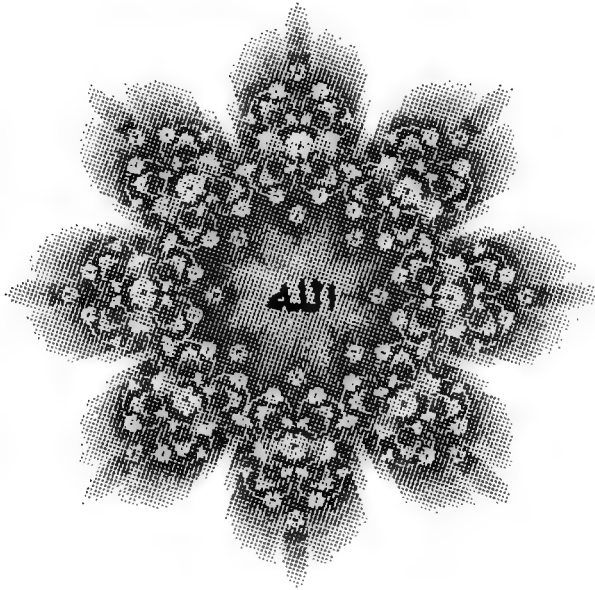
وعن عقبة بن عامر يقول:
سمعت رسول الله ﷺ يقول:
«من كان له ثلاث بنات، فصبر عليهن وأطعمهن وسقاهن وكساهن من جدته كن له حجاباً من النار يوم القيامة» (٤).

(١) سورة الإسراء الآيتان: ٢٣، ٢٤.

(٢) سورة البقرة الآية: ١٨٧.

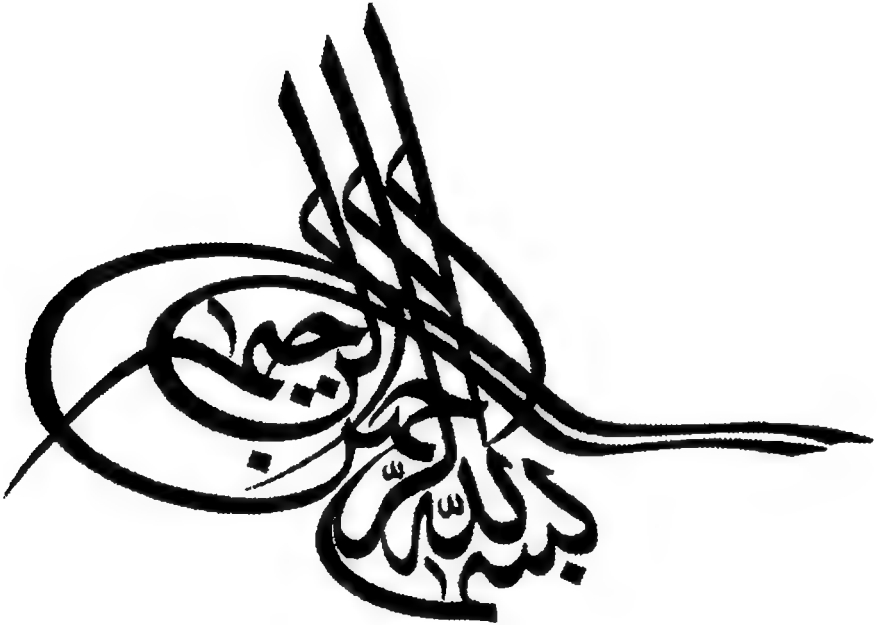
(٣) رواه الإمام مسلم في كتاب الأدب.

(٤) رواه ابن ماجه في كتاب الأدب (٣) باب بر الوالد والإحسان إلى البنات رقم (٣٦٦٩).



أُمُّ مُوسَى نَبِيِّ اللَّهِ

عليه السلام



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا
خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقَيْهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا
تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ
الْمُرْسَلِينَ﴾

(القصص آية: ٧)

أقوال العلماء والمفسرين فى نزول هذه الآية

- قال رجال التفسير نزلت هذه الآيات فى: موسى عليه السلام وأمه.
قال ذلك الإمام ابن كثير فى التفسير (٣: ١٤٧ - ١٤٨).
وقاله الفخر الرازى فى التفسير (١١: ٥٠ - ٥١).
وقاله الإمام القرطبى فى التفسير (١١: ١٩٦ - ١٩٧).
وقاله صاحب الدر المنثور (٤: ٢٩٦ - ٢٩٧).
فمن هى أم موسى عليه السلام؟



حياتها ونشأتها في مصر المحروسة

من هي أم موسى ﷺ؟ وأين ولدت؟ وفي أي البلاد ترعرعت؟ وما هو الدور الذي قامت به في حياة موسى ﷺ؟

إن أوثق المصادر التي بين أيدينا تقول: إنها تسمى «يوكابد» بنت لاوى، وقد جاء ذكرها في القرآن الكريم كثيراً قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَن أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ (١).

وقال عز من قائل: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَّنَا عَلَيَّ قَلْبَهَا لَتُكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢).

وأيضاً: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَىٰ تَقْرَأَ عَلَيْهِهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ (٣).

وجاء ذكرها في التوراة أيضاً من الإصحاح الثاني من سفر الخروج: «واتخذ عمران «يوكابد» زوجة له فولدت له هارون وموسى».

وأيضاً: «تزوج عمران من عمته «يوكابد بنت لاوى»، ولم يكن زواج الأقارب محرماً في ذلك العهد، وإنما التحريم قد جاء فيما بعد على يد موسى بعد خروج بنى إسرائيل من مصر».

(١) سورة القصص الآية: ٧.

(٢) سورة القصص الآية: ١٠.

(٣) سورة القصص الآية: ١٢.

ولا شك أن «يوكابد»- كان مسقط رأسها مصر- وفتحت عينيها على مياه نيلها العذب، وهي تتساب في سهولة ويسر نحو الشمال، واستمتعت بالخضرة اليانعة التي تكسو جل أرضها.

إنها مصر قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. في قوله تعالى: ﴿وَأَوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ (١)

قال يعنى مصر.

وتعد مصر من خزائن الأرضين لقول يوسف عليه السلام لملك مصر: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (٢)

ففعل فأغاث الله الناس بمصر وبما فيها من خيرات. ولم يذكر الله عز وجل في كتابه مدينة بعينها بمدح غير مكة ومصر.

قال الله تعالى على لسان فرعون: ﴿أَلَيْسَ لِي مَلِكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ (٣)

وهذا تعظيم ومدح لمصر. بما حباها الله من نعم وخيرات.

وقال تعالى: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ (٤)

فمدحت لما فيها من الأمن والأمان. ولذلك أوحى الله تعالى لرسوله موسى عليه السلام كما ذكره القرآن: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ (٥).

ولا تذكر المصادر متى تم اقتران يوكابد بعمران، ولكنها تذكر أنها أنجبت منه بنتاً اسمها مريم، ولعلها أكبر من هارون وموسى عليهما السلام- كما جاء ذكرها في القرآن قال تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا

(٢) سورة يوسف الآية : ٥٥.

(١) سورة المؤمنون الآية: ٥٠.

(٤) سورة يوسف الآية: ٩٩.

(٣) سورة الزخرف الآية: ٥١.

(٥) سورة يونس الآية: ٨٧.

يَشْعُرُونَ^(١).

ولكن في عهد أى ملك من الملوك ولدت يوكابد موسى ﷺ.

يتفق المؤرخون على أن ولادة موسى ﷺ كانت في عهد فرعون أعتى الفراعنة على الله تعالى وأقساهم قلباً وأطولهم عمراً، ولقد عمل على تصنيف بنى إسرائيل، فصنف بعضهم بالبناء. وصنف آخر للزراعة والحرث، وصنف ثالث يتولون الأعمال القذرة.

ومن لم يكن منهم من أهل الحرف فعليه الجزية الباهظة ولذلك عبر القرآن عن فعل فرعون بقوله: ﴿يَسُومُنْكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾^(٢).

وكانت زوجة فرعون امرأة يقال لها آسية بنت مزاحم وكانت امرأة مؤمنة ولقد حكى القرآن مقولتها بقوله: ﴿قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(٣).

وأسلمت على يد موسى ﷺ.

وتقول بعد المصادر إن فرعون عمر في قومه أربعمئة سنة يسومهم العذاب، فلما أراد الله أن يفرج عنهم فبعث موسى ﷺ.

وكان بدء ذلك على ما ذكره السدى عن رجاله، أن فرعون رأى في منامه كأن ناراً قد أقبلت من المقدس حتى اشتعلت على بيوت مصر فأحرقتها، وأحرق القبط، وتركت بنى إسرائيل، فدعا فرعون الكهنة والسحرة والمعبرين والمنجمين فسألهم عن رؤياه.

فقالوا: يولد في بنى إسرائيل غلام يسلبك الملك، ويفلبك على سلطانك، ويخرجك وقومك من أرضك ويبدل دينك، وقد أظلك زمانه الذي يولد فيه. وما كاد فرعون يسمع ذلك حتى أمر رجاله بقتل كل غلام يولد في بنى إسرائيل، فجمع القوابل من النساء وقال لهن: «لا يسقط على أيديكن غلام

(٢) سورة البقرة الآية: ٤٩.

(١) سورة القصص الآية: ١١.

(٣) سورة التحريم الآية: ١١.

من بنى إسرائيل إلا قمتن بقتله، ولا جارية إلا تركتها للخدمة» ووكّل بهن رجال شرطته والبصاصين من قومه.

ولما لا يفعل ذلك أليس هو القاتل لقومه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾^(١)

لقد طغى وتجبر ونسى الإله الأعظم، فلا بد أن تنزل به القارعة كما نزلت على غيره من قبله.

قال مجاهد: لقد بلغنى أنه كان يأمر بالقصب فيشق ثم يجعل أمثال الشفار ثم يصف بعضه إلى بعض، ثم يؤتى بالحبالي من نساء بنى إسرائيل فيوقفهن عليه فتجرح أقدامهن، حتى أن المرأة منهن لتضع ولدها فيقع بين رجليها فتظل تطؤه لتتقى به حد القصب على قدميها لما بلغ من جهدها.

إن فرعون الذى علا فى الأرض لم يقتل الأطفال فحسب. ولم يسقط الأجنة من بطون الأمهات وكفى. ولكنه قتل أيضاً عاطفة الأمومة، واستل من قلوبهن الرحمة والشفقة.

واستمر فى فعله ذلك حتى دخل عليه رعوس القبط وقالوا له: إن الموت قد وقع فى مشايخ بنى إسرائيل وأنت تذبح صغارهم وتميت كبارهم، فيوشك أن يقع العمل علينا ولا طاقة لنا به.

فأمر فرعون عندها بذبح الولدان سنة وتركهم سنة. فولد هارون عليه السلام فى السنة التى لا يذبح فيها أحد فتُرك. ثم ماذا؟ كان الحمل بموسى فى العام الذى أمر فيه بقتل الولدان، فلما جاء أوان وضعه حزنت أمه حزناً شديداً واشتد غمها وقلقها فماذا تفعل؟ لو كان الحمل يبقى فى بطنها إلى الأبد لاستراحت.. ولو كان فى الإمكان الفرار به إلى أرض الله الواسعة لفرت.

إذن ليس هناك من حيلة إلا الصبر، عندها أسلمت أمرها إلى الله تعالى وأودعت الذى فى بطنها إليه، وهو الله تعالى الذى لا تضيع ودائع. وما هى إلا أيام قليلة حتى ولدت هذا الولد المبارك الذى سُمى فيما بعد باسم موسى عليه السلام.

(١) سورة القصص الآية: ٢٨.

ولما حملته بين يديها طار عقلها وجن جنونها وأوشكت أن تكتم أنفاسه وتسلمه للموت بيديها بدلاً من أن تسلمه إلى قتلة فرعون. عندها كان أمر الله تعالى الذي ينزل بالرحمة، ويرفع العذاب عن عبده، كان أمر الله الذي لا يرد، وقضاؤه الذي ينفذ قال تعالى:

﴿وَأَرْحَمَنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنَّ أَرْضَعِيهِ فَإِذَا خَفْتُ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^(١).

لا تخافى يا أم موسى عليه من الفرق. ولا تخافى عليه من القتل. ولا تحزنى إذا قمت بإلقائه فى اليم. ولا تحزنى لفراقه تلك اللحظات الممدودة من عمر الزمن ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

واستجابت أم موسى لأمر ربها وكلفت رجلاً يسمى «حزقيل» الذى صار فيما بعد «مؤمن آل فرعون» أن يصنع لها تابوتاً يلقي فى اليم فلا ينفذ منه الماء، وثقيلاً لا تلعب به الأمواج، ومجوفاً حتى لا يسقط فى القاع. وعندما صنع التابوت وأحضره إليها حمدت الله كثيراً، وألقت فى داخله كمية من القطن المحلوج، حتى يكون هيناً ليناً على طفلها، ثم أضجعت فيه وأسلمته إلى اليم.

ويا لها من لحظات قاسية مؤلمة على قلبها أن تلقى بفلذة كبدها إلى المجهول وأن تسلمه إلى الضياع والهلاك، وأخذ الشيطان يوسوس لها قائلاً: ما صنعت؟ ولماذا فعلت؟ وأى جرم ارتكبت أيها المرأة؟ لو ذبحته بيديك لكان خيراً، لو أسلمته للقتلة لكان فى إمكانك أن تسكبي على جسمانه الدمعة الأخيرة؟

ولكن الله تعالى عصمها من وسوسة الشيطان وربط على قلبها لتكون من المؤمنين فتأبى إلى رشدتها وتذكرت وعد الله لها ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ﴾.

وانطلق الماء بموسى يرفعه الموج مرة ويخفضه أخرى، حتى أدخله بين الأشجار ونباتات الماء عند قصر فرعون، أمام روضته التى هى ملتقى

(١) سورة القصص الآية: ٧.

وصيقات زوج فرعون وجواريه. واستقر التابوت هادئاً مطمئناً تحرسه عناية الله وترعاه.

يا سبحان الله لقد ألقى هذا الطفل في اليم حتى يكون بعيداً عن تلك البلاد وينقله الموج إلى آفاق بعيدة، لا يصل إليه جبروت فرعون ولا تطوله أيدي القتلة المجرمين.

فمن الذي حول مسار هذا التابوت حتى يذهب إلى قصر الجلاد؟ ومن الذي حمى التابوت وهو في عرض البحر من الطيور الجارحة التي تريده طعمة لها؟

من الذي جعل الموج هادئاً ليناً حتى لا يقذف بالتابوت إلى قاع البحر فيكون الطفل طعمة سائفة لحيتانه وحيواناته؟ من فعل ذلك.. أهى الصدفة البلاء؟

أهى الطبيعة العمياء كما يقول العلمانيون؟ إن الذي فعل ذلك وأمر به - هو الله لا إله إلا هو خالق كل شيء، وكل شيء عنده بمقدار، وكل شيء عنده بميزان.

ونزلت الجوارى إلى صفحة النهر - كما اعتدن أن ينزلن كل يوم - يدغدغ أجسادهن الفضة رزاز الماء الجميل.

ويداعب شعورهن نسيمات الهواء العليل. وتلامس أناملهن الرقيقة ثمار الأشجار التي تتدلى من أغصانها إلى صفحة الماء لتقبلها قبلة الشكر والعرفان.

وكم كانت دهشتهم وهن يشاهدن هذا التابوت الذى لا شك يحمل ذهباً وفضة فتزاحمن على حمله، وكل منهن تريد أن تحظى بتقديمه إلى سيدة القصر آسيا زوجة سيدهن فرعون.

ولما استقر التابوت بين يدي آسيا، وكشف عنه الغطاء شاهدت هذا

الطفل الجميل ينام في داخله، يضع أنمله في فمه، وعيناه تحملقان في الفضاء العريض وكأنه عابد يناجى ربه، أو ناسك يقبع في صومعته.

وألقي الله تعالى محبته على قلبها، فأحبته حباً شديداً وأخذته بين ذراعيها ترضعه وتقبله، وكأنها بهذا الطفل حازت الدنيا بأسرها بين يديها.

وكيف لا تحبه آسيا، وكيف لا يستقر حبه في قلوب كل المؤمنين، والله تعالى يقول: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ (١).

ولكن ما كاد خبر تواجد هذا الطفل يسرى بين أجواء القصر حتى برز الموكلون بالذبح يريدون الإجهاز عليه، وكنتم أنفاسه حتى يصير في عداد المقتولين الذين سفكت دماؤهم بيد التآله الكاذب والعدوان الغاشم.

ولكن المرأة المؤمنة رددتهم عنه رداً جميلاً قائلة:

«انصرفوا فإن أتى فرعون استوهبته منه، فإن وهبه لى كنتم قد أحسنتم، وإن أمركم بذبحه فلا ألومكم» إنه منطق العقل والحكمة، منطق الإيمان والسلام.

وانطلقت المرأة المؤمنة إلى فرعون تحمله على يدها، وترعاه بعينيها، وتبتهل إلى ربها أن يجيبها إلى طلبها ويحقق لها رغبتها في ترقيق قلب فرعون على الطفل وعندما كانت بين يدي فرعون قالت: ﴿قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلْهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ (٢).

وخضع الجبار العنيد، وسلبت قوته وإرادته وقال: قد فعلت. وغردت الدنيا في قلب آسيا، وعادت به من حيث أتت تحمل كنزها، وهى لا تدري أن هذا الطفل الوليد سيكون رسولاً يوحى إليه من ربه، يدعو إلى عبادة الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد.

إنه رسول الله سيحطم الألوهية المزيفة، ويقضى على الجبروت المتآله.

(٢) سورة القصص الآية: ٩.

(١) سورة طه الآية: ٣٩.

إنه رحمة الله إلى الأرض الذي سيقول فيما بعد لفرعون ومعه أخوه هارون:
﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعْذِيبُهُمْ ﴾ (١).

عن الضحّاك عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن بني إسرائيل لما كثروا بأرض مصر استطلالوا على الناس، وعملوا بالمعاصي، ووافق خيارهم أشرارهم ولم يأمرؤا بالمعروف ولم ينهؤا عن المنكر وصدق فيهم قول الله تعالى:

﴿لَعَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ (٢).

عندها ساط الله عليهم القبط فاستضعفوههم وساموهم سوء العذاب فذبخوا أبناءهم وأبقوا نساءهم للتسخير والخدمة.

ويقول بعد روة التاريخ: إن صانع التابوت عندما سلمه إلى أم موسى انطلق إلى الذباحين ليخبرهم بأمر الغلام. فلما هم بالكلام أمسك الله لسانه فلم ينطق، ولم يبين، فجعل يشير بيده، فلم يدر الذباحون ما يريد، فلما أعياهم أمره قال كبيرهم: اضربوه. فضربوه وأخرجوه. فلما خرج صانع التابوت وذهب إلى بيته، رد الله لسانه فتكلم.

فانطلق أيضاً مرة أخرى يريد الذباحين ليخبرهم فأخذ الله تعالى لسانه وبصره فلم يستطع الكلام ولم يبصر شيئاً فضربوه وأخرجوه.

وبقى فترة على ذلك لا يتكلم ولا ينطق، لا يتكلم ولا يرى، عندها التجأ إلى ربه إن رد عليه بصره ولسانه ألا يفعل شيئاً فعلم الله منه الصدق، فرد عليه لسانه وبصره، فخر لله ساجداً، وعلم أن ذلك من الله تعالى ولا راد لقضائه وقدره.

(١) سورة طه الآية: ٤٧.

(٢) سورة المائدة الآيات: ٧٨ - ٨٠.

وانطلقت أم موسى بالتابوت وألقته في البحر بعد أن أرضعته ثلاثة أشهر. وكان لفرعون يومئذ بنت ولم يكن له ولد غيرها، وكانت من أكرم الناس عليه وكان لها كل يوم ثلاثة مطالب ترفعها إلى أبيها، وكان بها برص شديد، وقد جمع لها فرعون الأطباء من مصر وغيرها والكهان والسحرة، فنظروا في أمرها وقالوا: أيها الملك إنا لا نرى برأها إلا من قبل البحر، شيء يوجد فيه شبيهه بالإنسان فيؤخذ من ريقه ويلطخ به برصها فتبرأ من ذلك، وذلك في يوم كذا وكذا من شهر كذا وكذا في ساعة كذا وكذا حين تشرق الشمس.

فلما كان في يوم الإثنين غدا فرعون إلى مجلس له كان على شاطئ النيل ومعه زوجته آسيا بنت مزاحم، وأقبلت بنت فرعون وجواربها حتى جلسن على شاطئ النيل يتلاعبن وينضحن الماء على وجوههن فبينما هن على ذلك إذ أقبل النيل بالتابوت تضربه الأمواج.

فقال فرعون: إن هذا لشيء في البحر قد تعلق بالشجر اثتوني به. فابتدروه من كل جانب بالسفن حتى وضعوه بين يديه. وأخذوا في معالجة فتح الباب فلم يقدروا على ذلك، وأرادوا كسره فأعجزهم أيضاً.

عندها دنت منه آسيا فرأت في جوف التابوت نوراً لم يره غيرها للأمر الذي أراه الله تعالى من إكرامها وهدايتها إلى الإيمان، وأخذت في معالجة التابوت ففتح على يديها. فإذا هي بصبي صغير في مهده والنور بين عينيه، وقد جعل الله رزقه في إبهامه يمص منه لبناً، فألقى الله تعالى محبة موسى في قلبها، وأحبه فرعون وعطف عليه.

وأقبلت بنت فرعون إلى ما كان يسيل من ريقه فلطخت به برصها فبرأت منه في الحال، فقبلته وضمته إلى صدرها. فقالت الحاشية: أيها الملك إنا نظن أن المولود الذي تحذر منه هو هذا والرأى أن ترمى به في البحر، أو تقتله. فهم فرعون أن يأمر الذباحين بقتله، ولكن آسيا سبقتهم إلى ذلك

واستوهبته منه فوهبه لها. ثم قال لزوجته سمى الغلام. فقالت على الفور: هو موسى لأنه وجد بين الماء والشجر.

وأقيمت الأفراح وتزينت الدولة أن زوجة رب الدولة قد وهبها الله ولداً بعد أن حرمت منه، إذن لتأتى كل المرضعات، ولتخف إلى ساحته كل الحاضنات، ولكن الطفل يتلوى من الجوع يرفض جميع المرضعات فى إباء وشمم. إنه يرفض كل ثدى يقدم إليه، وكل مرضعة تريد أن تضمه إليها، وسرى فى الكون كله قول الله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾ (١).

إن التحريم هنا من الله فكيف يقدم على شيء حرمه الله عليه؟ ولكن أهل فرعون يخشون عليه الذبول أو الموت فلا بد من مرضعة، ولا بد من الرضاعة، ووسط هذه الحيرة والقلق، تظهر أخته التى قالت لها أمها قصيه: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ (٢).

فقالوا لها: وما يدريك؟ لعلك تعرفين أهله؟

فقالت: لا. ولكنهم يحرصون على مسرة الملك، ويرغبون فى ظئره.

فقالوا: من هى؟

قالت: أمى. فقيل: لها لبن؟

قالت: نعم، لبن ابنها هارون، وكان ولد فى سنة لا تقتل فيها الصبيان.

فقالوا: صدقت، اثبتينا بها.

فانطلقت إلى أمها فأخبرتها بالخبر فأتت فلما وضعت على ثديها ودثرته بحجرها نزل اللبن حتى ملأ جنبه. عندها انطلق البشير يبشرها أن قد وجدنا لابنك ظئراً. فأرسلت إليها فلما شاهدت تعلق الطفل بشديها.

قالت لها: امكثى عندى ترضعى ابنى هذا، فإنى لم أحب شيئاً مثل حبه قط، ولكن المرأة الواثقة من وعد الله تعالى لها.

(١، ٢) سورة القصص الآية: ١٢.

قالت في إباء وشمم: لا أستطيع أن أدع بيتي وولدي فيضيعوا، فإن طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى بيتي فيكون معي، ولا أولى له إلا خيراً فعلت. وإلا فإنني غير تاركة بيتي وولدي. ولم يكن أمام امرأة فرعون إلا أن تطيع وتذعن لما قالتها المرأة.

وهكذا عاد الطفل إلى أمه وصدق وعد الله تعالى لها فردّه إليها قال تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلَنَعْلَمَنَّ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١).

لقد عاد الطفل الغائب لأمه الملهوفة، معافى في بدنه مرموقاً في مكانته، يحميه فرعون، وترعاه امرأته، وتضطرب المخاوف من حوله وهو آمن قرير العين وقد صاغت يد القدرة الإلهية الحلقة الأولى من تدبيرها المحكم. وأنبتته الله نباتاً حسناً وحفظه من كل سوء، فلما كبر وترعرع رغبت آسية أن تراه، فلما دخل عليها أكرمته وفرحت به، وأعجبها ما رأت من حسن أثرها عليه ثم قالت لها: انطلقى به إلى فرعون ليكرمه، فلما دخلت به على فرعون أخذه ووضعته في حجره، فتناول موسى لحيه فرعون حتى جذبها وبتف منها بعض شعيرات، وكان فرعون طويل اللحية، ويقال: أنه لطم وجهه، وفي بعض الروايات: أنه كان يلعب بين يدي فرعون وبيده قضيب صغير، فضرب به على رأس فرعون فغضب غضباً شديداً وتطير منه.

وقال: هذا عدوى المطلوب ووسوس له الشيطان بذلك فأخذ الخوف بمجامع نفسه فلما حدث هذا له: أرسل إلى الذباحين ليقتلوه. فبلغ ذلك آسية، فجاءت تسعى إلى فرعون.

وقالت له: ما بدا لك في هذا الصبي الذي قد وهبته لي، فأخبرها بما فعل موسى.

فقالت له: إنما هو صبي لا يعقل، وأنا أجعل بيني وبينك أمراً تعرف به

(١) سورة القصص الآية: ١٣.

الحق، وأضع له حلياً من الذهب والياقوت، وأضع له جمرأً فإن أخذ الياقوت فهو يعقل فاذبحه. وإن أخذ الجمرة علمت أنه صبي؟

ثم وضعت له طستاً فيه الذهب والياقوت، وطستاً آخر فيه الجمرة فمد موسى يده على أن يأخذ الجوهر ليقبض عليه فحول جبريل عليه السلام يده إلى الجمر فقبض على جمرة، ووضعها في فيه فجاءت على لسانه فأحرقتة، وذلك ما حكاه القرآن الكريم عند قوله: ﴿وَأَحْلَلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾ (١).

عندها قالت له آسيا ألا ترى إلى فعله وأنه صبي لا يعقل، فكف عن قتله وصرف الله عنه ذلك السوء.. فلم يزل عزيزاً مكرماً في بيت فرعون وحببه الله إليه وإلى الناس كلهم حتى من الله عليه وأكرمه بالرسالة.

ونسأل التاريخ أين أم موسى عندما دخل ابنها المدينة على حين غفلة من أهلها؟

وأين هي عندما خرج من المدينة خائفاً يترقب؟ وطلب من ربه تعالى أن ينجيه من القوم الظالمين.

هل كانت على قيد الحياة؟ تراقب خطوات ابنها وهو يخطو نحو المجهول أم أنها فارقت الحياة قبل ذلك.

إن كتب التاريخ والكثير من المصادر لا تذكرها بعد ما كان بينها وبين آسية زوجة فرعون إلا لماماً، رحمها الله رحمة واسعة وأسكنها فسيح جناته.

(١) سورة طه الآية: ٢٧.

أسباب النزول

عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال: سأل ابن عباس رضي الله عنهما عن قول الله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَفَتَّاكَ فُتُونًا﴾ (١).

قال: فسألت عن الفتون ما هو؟ فقال: استأنف النهار يا ابن جبير فإن لها حديثاً طويلاً. فلما أصبحت غدوت على ابن عباس لأنجز ما وعدنى من حديث الفتون. فقال: تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله عز وجل وعد إبراهيم عليه السلام من أن يجعل فى ذريته أنبياء وملوكاً.

فقال بعضهم: إن بنى إسرائيل ينتظرون ذلك ما يشكون فيه، ولقد كانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب عليه السلام، فلما هلك قالوا: ليس هذا كان وعد الله لإبراهيم. قال فرعون: فكيف ترون؟ فأتهموا وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجلاً معهم الشفار يطوفون فى بنى إسرائيل فلا يجدون مولوداً إلا ذبحوه ففعلوا.

فلما رأوا أن الكبار يموتون بآجالهم، وأن الصغار يذبحون قالوا يوشك أن يفنى بنو إسرائيل فتصيروا تباشروا الأعمال والخدمة التى كان بنو إسرائيل يكفونكم. والرأى أن تقتلوا أولادهم عاماً، ودعوا عاماً لا تقتلونهم، فيشب الصغار مكان من يموت من الكبار، فإنهم لن يكثروا فتخافون مكائرتهم إياكم، ولن يفنوا بمن تقتلون فتحتاجون إليهم. فأجمعوا أمرهم على ذلك.

فحملت أم موسى بهارون فى العام الذى لا يذبح فيه الغلمان فولدت علانية آمنة، حتى إذا كان فى العام التالى حملت بموسى عليه السلام، فوقع فى قلبها الهم والحزن، فذلك من الفتون يا ابن جبير لما دخل عليه فى بطن أمه ما يراد به، فأوحى الله إليها: ﴿وَلَا تَخَافِ وَلَا تَحْزَنِ إِنَّا رَأَوُهَا إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢).

(١) سورة طه الآية: ٤٠.

(٢) سورة القصص الآية: ٧.

وأمرها إذا ولدته أن تجعله في تابوت ثم تلقيه في اليم فلما ولدت فعلت ما أمرت به حتى إذا توارى عنها ابنها أتاها الشيطان، وقالت في نفسها: ما فعلت بابني لو ذبح عندي فواريته وكفنته كان أحب إليّ من أن ألقيه إلى دواب البحر وحيثانه، فانطلق به الماء إلى أن أوفى عند مستقى جوارى امرأة فرعون فرأينه فأخذنه فهمن أن يفتحن الباب.

فقالت بعضهن لبعض إن في هذا التابوت لمالاً وأنا إن فتحناه فلم تصدقنا امرأة الملك لما وجدنا فيه فحملنه بهيئته لم يحركن منه شيئاً حتى دفعنه إليها، فلما فتحته رأت فيه الغلام فألقى عليها محبة لم تك مثلاً على أحد من البشر قط، وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً من ذكر كل شيء، إلا من ذكر موسى، فلما سمح الذباحون بأمره أقبلوا على امرأة فرعون بشفارهم يريدون أن يذبحوه وذلك من الفتون يا ابن جبير؟

فقالت للذباحين: إن هذا الواحد لا يزيد في بني إسرائيل، وإنى آتى فرعون فاستوهبه منه فإن وهبه لى فقد أحسنتم وأجملتم وإن أمر بذبحه لم ألكم. فلما أتت به فرعون قالت: قرّة عين لى ولك لا تقتلوه. قال فرعون: يكون لك وأما أنا فلا حاجة لى فيه.

قال الرسول ﷺ: «والذى يحلف به لو أقرّ فرعون بأن يكون قرّة عين له كما قالت امرأته لهداه الله كما هدى امرأته، ولكن الله عز وجل حرمه ذلك».

عندها أرسلت امرأة فرعون إلى من حولها من كل امرأة لها لبن تختار له ظئراً، فكلما أخذته امرأة لترضعه لم يقبل ثديها. حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع عن اللبن فيموت، فأحزنها ذلك، فأمرت به فأخرج إلى السوق ومجمع الناس ترجو أن تجد له ظئراً، يأخذه منها فلم يتقدم أحد.

وأصبحت أم موسى والهة قالت لأخته قصيه، واطلبيه هل تسمعين له ذكر؟ أحى أم قد أكلته دواب البحر؟ ونسيت الذى كان وعدها الله، فبصرت به أخته عن جنب وهم لا يشعرون. فقالت من الفرح: حين أعياهم الظائر أنا

أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون. فقالوا: وما يدريك ما نصحهم له هل يعرفونه؟ حتى شكوا في ذلك، وذلك من الفتون يا ابن جبير فقالت الأخت: نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم في جانب الملك رجاء شفقتهم فتركوها فانطلقت إلى أمه فأخبرتها الخبر.

فجاءت فلما وضعت في حجرها نزل اللبن من ثديها فمصه حتى امتلأ جنباه ريثاً وانطلق البشير إلى امرأة فرعون يبشرها أن قد وجد لابنك ظئراً، فأرسلت إليها. وقالت لها: امكثي عندي ارضعي ابني هذا فإنني لم أحب شيئاً قبل مثل حبه.

قالت: لا أستطيع أن أدع بيتي وولدي فيضيع فإن طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى بيتي فيكون معي ولا آلوه خيراً فعلت، وإلا فإنني غير تاركة بيتي وولدي، وذكرت أم موسى ما كان الله عز وجل وعدها به فتعاسرت على امرأة فرعون لذلك، وأيقنت أن الله عز وجل منجز وعده فرجعت بابنها من يومها^(١) وصدق ربي في قوله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَىٰ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلَنَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢).

(١) أخرجه ابن أبي عمر العدني في مسنده وعبد بن حميد، والنسائي، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن سعيد بن جبير رضي الله عنه.

(٢) سورة القصص الآية: ١٢.



المرأة في شريعة الإسلام

ما موقف الإسلام من المرأة بعامه، سواء أكانت زوجة أو أم أو ابنة؟ هل يفرق الإسلام بين الرجل والمرأة؟ هل الإسلام يعتبر المرأة أقل من الرجل في الحياة العامة؟ أم أن الإسلام أعطى المرأة حقوقها كاملة ولم ينقص منها شيء؟

وما موقف المرأة من قضية الزواج هل تجبر على الزواج من رجل لا تريده؟

إن المستعرض لشرائع الإسلام يرى أن للمرأة الحق في المشاركة البناءة في تكوين الأسرة جنباً إلى جنب مع الرجل، والمشاركة في الحياة العامة وأعطاهما نفس الحق الذي منحه للرجل، وحملها المسؤولية كاملة في إصلاح المجتمع، ويظهر ذلك جلياً في مبايعة النساء للرسول ﷺ قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايَعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ قَبَائِعَهُنَّ وَاسْتَغْفِرَ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١).

وهذه القواعد التي أمر بها الإسلام هي:

أولاً: عدم الشرك لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (٢).

ثانياً: عدم إتيان الحدود: السرقة، والزنا، والقتل بعامه، وعدم قتل الأولاد خاصة، إشارة إلى ما كان يجرى في الجاهلية من وأد البنات، كما أنه يشمل قتل الأجنة لأي سبب من الأسباب. لأن النساء أمينات على ما في أرحامهن.

ثالثاً: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾.

(٢) سورة لقمان الآية: ١٣.

(١) سورة الممتحنة الآية: ١٢.

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - يعني لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهن، وكذلك قال مقاتل: ولعل هذا التحفظ - بعد المبايعة على عدم الزنا - كان للحالات الواقعة في الجاهلية من أن تبيع المرأة نفسها لعدة رجال، فإذا جاءت بولد نظرت أيهم أقرب شَبهاً فألحقته به، وربما اختارت أحسنهم فألحقت به ابناً وهي تعلم من أبوه.

رابعاً: ﴿وَلَا يَعْصِيكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ وهو يشمل الوعد بطاعة الرسول ﷺ في كل ما يأمرهن به. لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ (١).

وروى أن النبي ﷺ عندما قال في بيعة النساء: «على ألا يشركن بالله شيئاً».

قالت هند بنت عتبة وهي منتقبة خوفاً من النبي ﷺ أن يعرفها لما صنعت به حمزة يوم أحد: «والله إنك لتأخذ علينا أمراً ما رأيتك أخذته على الرجال» وكان بايع الرجال يومئذ على الإسلام والجهاد.

فقال النبي ﷺ: «ولا يسرقن».

فقالت هند: إن أبا سفيان رجل شحيح وإنني أصيب من ماله قوتاً.

فقال أبو سفيان: هو لك حلال. فضحك النبي ﷺ وعرفها وقال: أنت هند؟

فقالت عفا الله عما سلف.

ثم قال: «ولا يزنين»

فقالت هند: وهل تزني الحرة؟

ثم قال: «ولا يقتلن أولادهن أي لا يئدن الموءودات ولا يسقطن الأجنة»

فقالت هند: ربيّنهم صغاراً وقتلتهم كباراً يوم بدر فأنتم وهم أبصر.

(١) سورة النساء الآية: ٥٩.

كذلك منح الإسلام المرأة حق الهجرة، والفرار بدينها إلى الله تعالى لقوله تعالى: ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ (١).

وأعطى الإسلام المرأة حق مفارقة الزوج إذا أصر على كفره قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مَهَاجِرَاتٍ فَاْمْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ (٢).

كذلك سوى الإسلام بين المرأة والرجل في حقها في الدعوة إلى الله قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٣).

ولا فرق بين الرجل والمرأة إلا بالتقوى والعمل الصالح قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٤).

وقال أيضاً: ﴿أَنَّى لَا أَضِيعَ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ (٥).

والإسلام منح المرأة حرية مطلقة في الزواج من الرجل المناسب لها سواء أكانت بكرًا أم ثيبًا، فلا إجبار لها على زوج لا ترغب فيه، بل من حقها الزواج بمن تريد شريطة أن يكون متكافئًا لها في الدين والأخلاق، والمزايا النفسية الأخرى.

ولقد بين الرسول ﷺ ذلك بقوله: «لا تتكح الأيم حتى تستأمر، ولا تتكح البكر حتى تستأذن. قالوا يا رسول الله: وكيف إذن؟ قال: أن تسكت» (٦).

(٢) سورة الممتحنة الآية: ١٠.

(١) سورة الذاريات الآية: ٥٠.

(٣) سورة التوبة الآية: ٧١.

(٤) سورة النحل الآية: ٩٧.

(٥) سورة آل عمران الآية: ١٩٥.

(٦) رواء البخارى في كتاب النكاح (٦: ١٩١).

ولم يكن أبداً في تاريخ المسلمين إكراه المرأة على الزواج من رجل لا تريده من ذلك ما أخرجه النسائي بسنده عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: جاءت فتاة إلى رسول الله ﷺ وقالت: إن أبى زوجنى من ابن أخيه وأنا كارهة له. ولا أرغب في الزواج منه. فأرسل النبي ﷺ إلى أبيها وعندما جاء جعل الأمر إليها. فقالت:

«يا رسول الله إنى أجزت ما صنع أبى، ولكنى أردت أن أعلم النساء أن ليس للآباء من الأمر شيء» (١).

يقول الدكتور عبد الواحد وافي: وقد سوى الإسلام كذلك بين الرجل والمرأة أمام القانون، وفي جميع الحقوق المدنية سواء في ذلك المرأة المتزوجة وغير المتزوجة. فالزواج في الإسلام يختلف عن الزواج في معظم أمم الغرب المسيحية في أنه لا يفقد المرأة اسمها ولا شخصيتها المدنية، ولا أهليتها في التعاقد ولا حقها في التملك، بل تظل المرأة المسلمة بعد زواجها محتفظة باسمها واسم أسرتها وبكامل حقوقها المدنية، وبأهليتها في تحمل الالتزامات، وإجراء مختلف العقود من بيع وشراء ورهن وهبة ووصية وما إلى ذلك، ومحتفظة بحقها في التملك تملكاً مستقلاً.

ثم يقول:

ولا يجوز للزوج أن يأخذ شيئاً من مالها. قل ذلك أو كثر قال تعالى: ﴿وَأِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَأَنْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قَنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينٌ (٢٠) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ (٢١)﴾.

وإذا كان لا يجوز للزوج أن يأخذ شيئاً ممن سبق أن آتاه لزوجته فلا يجوز له من باب أولى أن يأخذ شيئاً من ملكها الأصيل إلا أن يكون ذلك

(١) رواه النسائي في كتاب النكاح باب البكر يزوجه أبوها وهي كارهة (٦: ٧١).

(٢) سورة النساء الآيتان: ٢٠، ٢١.

برضاها، وعن طيب نفس منها.. قال تعالى:

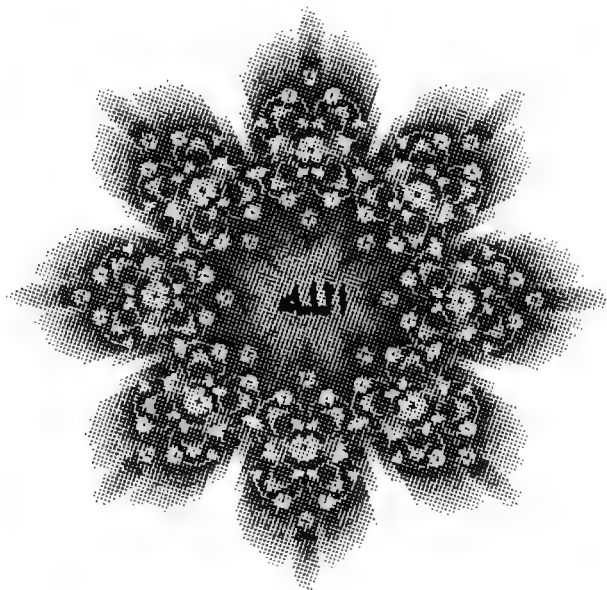
﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ (١).

وإذا كان ذلك كذلك فهل يجوز للمرأة أن تكون ملكة أو رئيساً لدولة؟

إن الرسول ﷺ يقول:

«لا يفلح قوم ولو أمرهم امرأة» (٢)

قال ذلك لما بلغه أن أهل فارس ملكوا عليهم ابنة كسرى (٣).



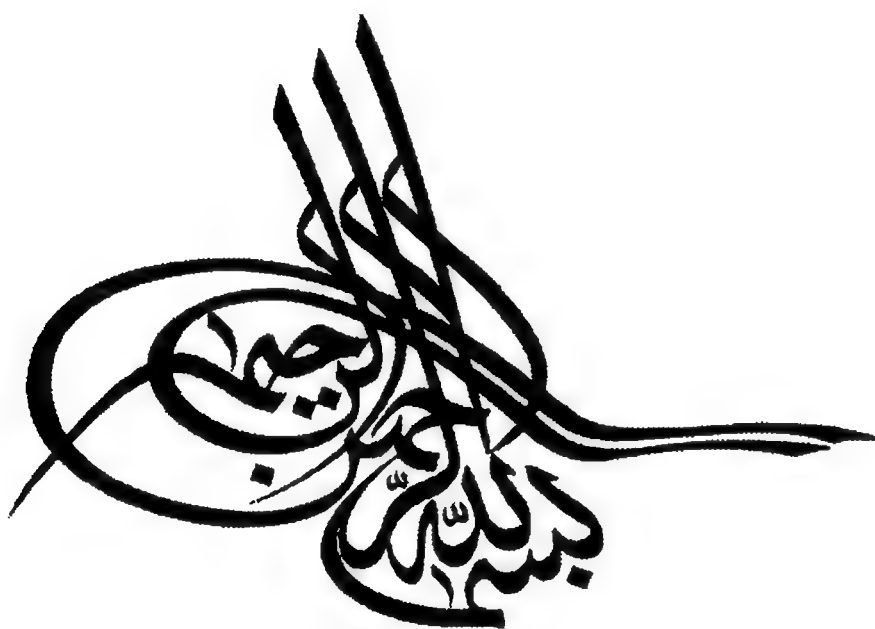
(١) سورة النساء الآية: ٤.

(٢) الحديث رواه الترمذى والنسائى من حديث حميد عن الحسن عن أبى بكره عن النبى ﷺ وقال الترمذى: حسن صحيح.

(٣) راجع كلمة وافية عن اشتغال المرأة بالسياسة فى الجزء الأول عند الحديث عن عائشة أم المؤمنين.

رقية بنت الرسول

صلى الله عليه وسلم



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ
وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ
جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ
وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ .

(الأحزاب: ٥٩)

أقوال العلماء والمفسرين فى نزول هذه الآية

قال كثير من علماء التفسير ورجال الحديث نزلت هذه الآية فى زوجات
النبي وبناته رضوان الله عليهم.

قال ذلك الإمام القرطبى فى التفسير (١٤ : ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣).

وقاله الإمام الطبرى فى التفسير (٢٢ : ٤٥، ٤٦، ٤٧).

وقاله ابن كثير فى التفسير (٣ : ٥٢٦، ٥٢٧).

وقاله ابن الجوزى فى زاد المسير فى علوم التفسير (٦ : ٤٢١، ٤٢٢).

فكيف نقدم صورة عطرة عن حياة رقية بنت الرسول ﷺ



حياتها ونشأتها

ريحانة من رياحين الجنة.

ونسمة رخية من نسيمات الربيع الفواحة.

ونور ملأ بيت النبوة ضياء وبهاء، وبسمة حلوة، ووردة متفتحة ترسل شذاها فتملأ القلوب حباً وصفاء.

وكيف لا تكون كذلك وقد نشأت وترعرعت في بيت أبيها محمد بن عبد الله رسول الله وخاتم النبيين، والرحمة المهداة من رب العالمين إلى دنيا الناس محمد بن عبد الله الذي عرف بين قومه - قبل بعثته - بأنه الصادق الأمين. ووصفه ربه بقوله: ﴿وَأَنْتَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(١).

وقال ﷺ: «أدبني ربي فأحسن تأديبي» إذ قال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾^(٢).

وأما خديجة بنت خويلد: أم المؤمنين، وسيدة نساء قريش، وأول زوجة دخل بها الرسول ﷺ، فكانت نعم الزوجة وقفت خلفه تشد من أزره وتعينه على حمل الرسالة وتبليغها إلى الناس كافة حتى قال عنها رسول الله ﷺ بعد موتها:

(٢) سورة الأعراف آية رقم: ١٩٩.

(١) سورة القلم آية رقم: ٤.

«آمنت بي إذ كفر بي الناس.

وصدقتني إذ كذبتني الناس.

ورزقني الله منها الولد»^(١).

فرقية سليمة بيت النبوة بيت الإيمان والتقوى.

بيت الإخلاص والوفاء.

بيت العفاف والطهر. تسمعت أذناها ووعى قلبها الوحي المتتابع على رسول الله ﷺ طوال ثلاثة وعشرين عاماً بدءاً من قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)﴾.

إلى قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(٢).

ولقد مرت طفولتها هادئة طيبة، وكانت مثل لداتها اللاتي عشن على بطحاء مكة، تجرى وتقفز، وتترقب هطول المطر الذي يبلى شعرها وثوبها، وتخرج إلى الأرض الفضاء التي لا يحدها البصر، لتشاهد الأغنام وهي تلتهم العشب الكثير وحولها أطفالها يلعبن ويمرحن وتراقب عن بعد مجموعات الإبل وهي تنزل بأعناقها الطويلة إلى صفحة الفدير لتعب من الماء العذب حتى ترتوى.

وتسمعت أذناها إلى قيثاره الشعراء وهي ترسل أنغامها الشجية لتوقظ الوسمان، وتخفف من آلام الحيران، وينداح صداها عبر أغصان الشجر الملتف، والنخيل المتشابك، وأكف الضارعين في البيت الحرام وهي مرفوعة عبر الأفق، وكأنها تلاحق النجوم في علوها - والشفقة الظامئة الحيرى، والتي

(١) رواه الإمام أحمد في المسند ومجمع الزوائد: ٩: ٢٢٤.

(٢) سورة الملق الآيات من ١-٥.

(٣) سورة المائدة آية: ٣.

تطلب من ربها فى ضراعة وخشوع العفو والمغفرة.

ولقد شاهدت- رقية وامتلأ قلبها الصفير- بالحزن والأسى من كفر قريش وهم يعلنون الحرب على أبيها وأتباعه المستضعفين بلا هوادة أو توقف. وكيف كانوا يوثقونهم بالحبال، ويلقونهم على الرمال الحارقة وتحت أشعة الشمس الملتهبة، ويضعون فوق صدورهم وبطونهم الأحجار الفليضة، حتى يعودوا إلى عبادة أوثانهم وأصنامهم- وهم يقولون فى صوت شجى ملئ بالإيمان والتقوى «أحد، أحد».

وتسمعت أذناها وأدمى قلبها وحشية أبى جهل وهو يبقر جسد سمية أم عمار بن ياسر حتى لفظت أنفاسها وانطلقت روحها المؤمنة إلى خالقها.

وكذلك ألوان العذاب المختلفة التى صبت على بلال، وصهيب الرومى، وعبد الله بن مسعود وبقية المستضعفين من المؤمنين ولقد زادت هذه الرؤى إيماناً وقوة بهذا الدين الذى جاء به أبوها من خالق الأرض والسماء وموجد الحياة والموت وسارت بها الحياة تتابع خطوات أبيها، فى الدعوة إلى دين الله، ودخول المؤمنين أفواجاً فيه. وتساعد أمها خديجة فى أعمال البيت، وإعداد الطعام، حتى أصبحت فتاة يافعة تضع أولى خطواتها الطاهرة على عتبات الأنوثة.

وجاء يوم شاهدت رقية بيت أبيها ممتلئاً بأعداد كثيرة من بنى هاشم ويضم أعمامه وأبناء عمومته، وأقاربه، ثم أعد لهم الطعام والشراب فأكلوا وانصرفوا.

عندها تقدمت رقية إلى أمها سائلة عن سبب وجود هذا الجمع الكبير الذى لم يسبق أن اجتمع مثله فى بيتهم.

وألقت أمها على أذنيها أن أبا لهاب عم والدها قد جاء ومعه أقاربه يطلب رقية وأختها أم كلثوم زوجتين لابنيه عتبة ومعتب.

وتسمعت رقية إلى هذا الخبر، وأحست أن أمها ليست سعيدة بذلك لأنها لا تستريح كثيراً لأبى لهب وزوجه، لوقوفهم في وجه الدعوة ومحاربتهم لأبيها؟

قالت رقية: هل تم عقد الزواج يا أماء؟

وردت خديجة- والألم يعصر قلبها- نعم يا ابنتي.

قالت رقية: لا أقبل أن أتزوج ممن يقفون في وجه الدعوة التي جاء بها

أبى يا أماء.

قالت الأم: وأنا كذلك يا ابنتي لا تستريح نفسك أن أزوجكما ممن

يعارب أباكما. ولكن علينا أن نتذرع بالصبر، وسيجعل الله لنا مخرجاً من هذا الأمر.

ولم يمض على هذا العقد الذي أبرم بحضور بنى هاشم- إلا شهوراً

قليلة حتى كان حكم الله تعالى على أبى لهب وزوجه ينزل وحيّاً من السماء على رسول الله ﷺ. قال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ (١).

عندها جن جنون زوجة أبى لهب وسعت خلف الرسول ﷺ لتتال منه،

وخصوصاً بعد أن تناقل المجتمع القرشي هذه الآيات البينات، وردها الرجال والنساء وأخذ الفتيان والفتيات في قراءتها وترتيلها في غدوهم ورواحهم.

وعادت الحرب من جديد بين بيت النبوة وبيت أبى لهب- والذي كانت

قد توقفت بعض الوقت من أجل عقد القران بينهما.

وتدخلت زوج أبى لهب مع ولديها تطلب منهما تطليق ابنتى محمد الذى

يهجو أباهما وأمهما.

ولقد كذبت في ذلك، لأن محمداً عندما قال هذا الكلام لم يقله من

(١) سورة المسد كاملة.

عنده، ولكنه وحى من الله تعالى: ولا يستطيع بأى حال من الأحوال كتمانها أو التوانى فى تبليغه ولو فعل ذلك لكان عاصياً لربه. قال تعالى لنبيه:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ (١).

وتحقق للأُم ما أرادت وتم طلاق رقية وأم كلثوم. هل فرحت رقية وأم كلثوم بذلك؟ هل أصابهما الحزن والألم؟ الله وحده هو العليم بذلك.

لأن المرأة: قادرة على تحمل آلامها وإخفائها وكنتم أحاسيسها وأشجانها حتى عن أقرب المقربين إليها..

ومرت الأيام وتوالت الشهور وجاء عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ يطلب رقية زوجاً له: ومن يرد عثمان ولا يزوجه.. لا أحد.

لأن عثمان رضي الله عنه كان يحيى الليل كله بركعة يجمع فيها القرآن وعثمان كان حياً: والحياء شعبة من الإيمان. وقال عنه الرسول ﷺ إن الملائكة لتستحي منك يا عثمان. وتم عقد القران وزفت رقية إلى عثمان رضي الله عنه وغردت لهما الدنيا، وسعدت بهما الحياة.

لقد كان عثمان كريماً على أهله، وكريماً لجماعة المسلمين، وكريماً على زوجه، ما طلبت منه شيئاً إلا حقق طلبها فوراً ولا أشارت على شئ إلا كان بين يديها.

وكيف لا يفعل ذلك وهى ابنة أحب الناس إلى قلبه، الذى هداه إلى الإيمان ونقله عن عبادة الأوثان إلى عبادة الواحد الأحد وخصه بابنته: رقية المملوءة إيماناً وتقوى، وأجمل النساء خلقاً وخلقاً، وهى تبادلته المودة والمحبة من يوم أن زفت إليه تنفيذاً لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾.

ولكن تبعات الدعوة كانت تؤخر عثمان مع أبيها بعض الوقت، وكان هذا يشغلها ويقلق بالها. ولكن ما يكاد عثمان يفتح الباب عليها ويطل بطلعته

(١) سورة المائدة آية رقم: ٦٧.

عليها حتى تحس أن الدنيا كلها قد حازتها وتملكتها وتحولت بين يديها إلى جوقه ترسل ألعانها العذبة وأنغامها الشجية لإسعاد الزوجين المتحابين. واستمر ذلك لفترة قصيرة.

لأن المشركين فقدوا عقولهم وهم يرون أن هذا الدين الذي جاء به محمد لا يسمع به أحد إلا دخل فيه. فأخذوا في شن الحرب الضروس على أتباع هذا الدين من المستضعفين الذين لا يملكون الدفاع عن أنفسهم فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هم فيه من التكيل والتعذيب قال لهم:

«لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه».

واستجاب المسلمون لأمر نبيهم وخرجوا زرافات ووحداناً إلى أرض الحبشة مخافة أن يفتتهم الكفار عن دينهم. فكانت أول هجرة في تاريخ الإسلام، وكان أول المهاجرين الصحابي الجليل عثمان بن عفان، وزوجه رقية بنت رسول الله ﷺ ولقد أبطأ خبر وصولهما إلى أرض الحبشة فكان الرسول دائماً يسأل عن أخبارهما، حتى قدمت امرأة من قريش، فقالت: يا محمد قد رأيت «صهرك» ومعه امرأته.

قال ﷺ: على أي حال رأيتهما؟

قالت: رأيتهم قد حمل امرأته على دابة وهو يسوقها.

فقال رسول الله ﷺ: صحبهما الله في رحلتها هذه، إن عثمان أول من هاجر بأهله بعد هجرة لوط عليه السلام.

ثم استقر بهم المقام في أرض الحبشة بخير دار إلى خير جار، آمنين على دينهم ولم يخشوا فيها ظملاً. فلما رأت قريش ما هم فيه من أمن وأمان اجتمعوا على أن يبعثوا إلى النجاشي ليخرجهم من بلاده، فبعثوا عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة قبل إسلامهما، وحملوهما بالهدايا للنجاشي

ولبطارفته. وساروا حتى قدموا على النجاشي فقالوا له:

«إنما قدمنا عليك أيها الملك بشأن مجموعة من سفهائنا فارقوا قومهم، وآباءهم وأهلهم وابتدعوا ديناً جديداً، ولم يدخلوا في دينك فتمنعهم لذلك». فغضب الملك ثم قال: لا لعمر الله لا أردهم عليهم حتى أدعوهم فأكلهم وأنظر ما أمرهم، قوم لجنثوا إلى بلادي، واختاروا جوارى على جوار غيري فإن كانوا كما تقولون رددتهم عليهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم ولم أخل بينهم وبين أعدائهم. ثم أرسل إليهم. فلما جاءوا دخلوا عليه وسلموا ولم يسجدوا له.

فقال: أيها الرهط ألا تخبروني ما لكم لا تحيوني كما يحييني من أتانا من قومكم؟

قالوا: لا نسجد إلا لله.

فقال النجاشي: ما هذا الدين الذي أنتم عليه؟ وفارقتم دين قومكم ولم تدخلوا يهودية ولا نصرانية.

فقال جعفر بن أبي طالب: أيها الملك كنا قوماً على الشرك نعبد الأوثان ونأكل الميتة، ونسئ الجوار، يستحل المحارم بعضنا من بعض في سفك الدماء وغيرها، لا نحل شيئاً ولا نحرمه، فبعث الله إلينا نبياً من أنفسنا نعرف وفاءه وصدقه وأمانته، فدعانا أن نعبد الله وحده لا شريك له، ونصل الأرحام، ونحمي الجوار، ونصلي لله عز وجل، ونصوم له، ولا نعبد غيره. فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة، وصلة الأرحام، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام.

فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به منه عند الله، فعدا علينا

قومنا فعذبونا ليفتوتونا عن ديننا ويردونا إلى عبادة الأوثان، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث. فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورجبنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك.

فقال النجاشي: هل معك شيء مما جاء به؟

فقرأ عليه قول الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾.

فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته وبكت أساقفته حتى اخضلوا مصاحفهم. ثم قال: «إن هذا الكلام ليخرج من المشكاة التي جاء بها موسى، انطلقوا راشدين، لا والله لا أردك عليهم أبداً».

وفي الغد: ذهب إليه عمرو بن العاص وقال: أيها الملك إنهم يقولون في عيسى قولاً عظيماً، فأرسل إليهم فسلهم عنه؟

فبعث إليهم: تقول رقية بنت الرسول ﷺ وزوجها عثمان: فلما جاء الرسول لم ينزل بنا مثلها. فقال بعضنا لبعض ماذا تقولون له في عيسى...؟ فقالت رقية وزوجها: نقول والله الذي قاله الله فيه، والذي أمرنا نبينا أن نقوله فيه، فدخلنا عليه وعنده بطارفته. فقال: ما تقولون في عيسى ابن مريم...؟

فقال له جعفر: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

فأخذ النجاشي عوداً من الأرض بين أصبعيه وقال: ما عدا عيسى ابن مريم مما قلت هذا العود.

ثم قال: اذهبوا فأنتم آمنون في أرضي، من سبكم غرم، ومن سبكم غرم، من سبكم غرم ثلاث مرات.

وكانت فرحة رقية لا تقدر بانتصار المسلمين المهاجرين على كيد قريش وتدبيرها وقول النجاشي لهم: مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده، أشهد أنه رسول الله، وأنه الذي نجد في الإنجيل، وأنه الرسول الذي بشر به عيسى ابن مريم، انزلوا حيث شئتم والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا الذي أحمل نعليه.

ووسط هذه الفرحة الغامرة بالانتصار على وفد قريش، تصل أخبار إلى الحبشة بإسلام أهل مكة، والتصالح بينهم وبين رسول الله ﷺ. وتصايح المسلمون نساؤهم ورجالهم وأطفالهم العودة إلى أرض الوطن، وذهب وفد منهم إلى النجاشي يشكرونه على حسن الضيافة. ويستأذنون في العودة إلى بلادهم. ففرح النجاشي لإسلام قريش والتفافهم حول نبي الأمة وخاتم النبيين. وزودهم بما يحتاجه المسافر من طعام وغذاء وقدم الهدايا لهم، وحملهم الهدايا لرسول الله ﷺ وسألهم أن يطلبوا منه الدعاء للنجاشي، وأن يرزقه الهداية والتوفيق.

وانطلقت قافلة من ثلاثة وثلاثين شخصاً يعبرون البحر الأحمر ويقطعون الصحراء، وفي مقدمتهم عثمان بن عفان وزوجه رقية، وظلوا ينفذون السير وأحلامهم تتطاير أمامهم وتسبقهم حتى وصلوا إلى مكة، وكانت الصدمة الكبرى لهذه القافلة المؤمنة- عندما شاهدوا فوق شعاب مكة وعلى صخورها الملتهبة المسلمون مقيدون والمشركون يسومونهم سوء العذاب. إذن لا زالت مكة كما تركوها، ولم يزل رجال الكفر لهم المنعة والسلطان، إذن ماذا تفعل هذه القافلة؟

أتعود من حيث أتت، وفي ذلك من المخاطر ما فيه، وقد ينفذ منهم الغداء والماء، ويكون في ذلك الموت المحقق، وتصير أجسادهم لقمة سائفة

لذناب الجبال، وصقور الجو.

ولكن كيف يعودون وبينهم وبين الأهل والأحباب بضع خطوات والحنين إليهم طاغ، واللهفة لرؤياهم لا تحتل التأجيل، وما هي إلا لحظات قليلة حتى هبط الليل بفلائله السود وتحولت مكة إلى قطعة من الظلام الدامس، عندها تسلس وفد القافلة إلى داخل مكة وكلهم يتحسس طريقه ليصل إلى بيته دون أن تلحظه عين، أو ينكشف ستره ووصلت رقية إلى منزل أبيها منزل الأمان والأمن، ومسرح الطفولة والأنوثة، وكان لقاء حاراً وفرحة غامرة بين رقية وأخواتها اختلطت فيها الابتسامات بالدموع، ورفرفت القلوب فرحة ومهللة.

ولكن رقية لم تسمع صوت أبيها، ولم تسمع حفيف أقدامه وهو يأتي مهرولاً للسلام عليها، كما كان يفعل سابقاً معها، عندما كانت تأتي من بيت زوجها وسألت أم كلثوم أين أبي؟

وجاء الجواب سريعاً من أختها لقد ذهب أبي إلى خارج البيت ليتفقد بعض أحوال المسلمين المستضعفين وسيعود قريباً بمشيئة الله.

وحمدت رقية الله كثيراً على سلامة أبيها، ثم تمتمت بينها وبين نفسها وهي تمسح المكان بعينيها أين أمي؟ ثم تخيلت أنها تقبع في حجرته حتى يعود الزوج من الخارج، ولكن لَمْ تَمْ تخرج للسلام عليها؟ ألم تسمع صوتها؟ وكيف لم تصل إلى مسامعها ضحكاتها الرنانة المجلجلة؟ هل بها وعكة؟ أم أصابها مكروه حال بينها وبين الحركة؟

نظرت في عيون أخواتها وشاهدت دموعهن تتساب بفزارة على خدودهن وتبادر إلى ذهنها شيئاً. عندها أحست أن سكيناً تفرز في صدرها. لقد حرك مجيئها الشجن عند أخواتها وجدد الحزن والأسى في قلوبهن لموت الأم الغالية الحبيبة.

عندها صرخت رقية زاهلة متهاكة يا أماء يا أماء واندفعت نحو غرفتها وانكبت على فراشها تسكب الدموع الغزار، ويكاد قلبها ينفرط بين جنبتيها.

ثم أخذت تسبح إلى بعيد هكذا هي الحياة لحظات قصار تمضى بطيئة متأنية أو سريعة متهولة، ثم تذهب دون أن يستطيع أى فرد فيها أن يهيئ للآخرين لحظة وداع قبل مفادرتها.

«إنا لله وإنا إليه راجعون».

لم يطل مقام رقية كثيراً فى مكة فقد أذن الرسول ﷺ للمسلمين بالهجرة إلى المدينة. وهاجرت رقية مع زوجها إلى يثرب بلد الأنصار، الأنصار الذين تسابقوا إلى إيواء المهاجرين والترحيب بهم حتى ليذكر التاريخ أنه لم ينزل مهاجر فى بيت الأنصار إلا بقرعة لأن عدد الراغبين فى الإيواء المتزاحمين عليه من الأنصار أكثر بكثير من عدد المهاجرين الفارين بدينهم.

ولقد سجل القرآن الكريم هذه المواقف الصادقة والعاطفة النبيلة والإيثار الكبير بقوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (١).

ولم يكتف الأنصار بما قدموه من بذل وإيثار، ولكنهم كانوا دائماً فى الصفوف الأولى فى المعارك التى خاضها الإسلام يشدون أزر إخوانهم ويدافعون عن نبيهم ويحملون مبادئ الدين، وتعاليم الإسلام إلى الأصقاع البعيدة والبلاد النائية حتى قال الرسول ﷺ عقب إحدى المعارك- مخاطباً الأنصار:-

«فوالذى نفسى بيده لو أن الناس سلكوا طريقاً وسلك الأنصار طريقاً لسلك طريق الأنصار ولولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار» (٢).

(١) سورة الحشر آية رقم: ٩.

(٢) الحديث رواه البخارى فى التمنى (٩) ومناقب الأنصار (١، ٢) والمغازى ٥٦ ومسلم فى الزكاة ١٣٣، ١٣٤ والترمذى فى المناقب ٦٥، وابن ماجه فى المقدمة ١١، وأحمد بن حنبل فى المسند (١: ٥، ٣، ٤١٠) «حلبى».

وعلى أرض يثرب الجنة الخضراء عاشت رقية أجمل أيام حياتها مع زوجها وأخواتها وأبيها، وما كاد يستقر بها المقام في مدينة الرسول ﷺ حتى أحست رقية بجنين في بطنها إنها ستصبح أمّاً عما قريب، وسيصبح عثمان أباً. وما كادت تزف البشرية إلى زوجها حتى أحس كلاهما بأن الله تعالى أراد أن يعوضهما خيراً عن أيام الحرمان التي قضياها وهما يقطعان الصحارى ويركبان البحر فراراً بدينهم إلى أرض الحبشة، ثم الهجرة مرة أخرى إلى يثرب الحبيبة، وقاما فجدا طهورهما ثم توجها إلى خالقهما بالصلاة شكراً له.

إن رقية بالرغم من مضاعفات الحمل وآلامه تتفانى في خدمة زوجها وتصنع له كل ما يحتاجه من طعام وشراب، وتهيء له فراشه، وتعمل على راحته. وكان زوجها عثمان يتفانى في خدمة الإسلام والمسلمين، ويقدم لهم كل ما يدعم الدعوة ويدفعها إلى الانتشار في أقطار الأرض الأربعة، لقد اشترى للمسلمين من خالص ماله بئر رومة وكانت ملكاً لليهودي، وكان يبيع ماءها للمسلمين بأثمان عالية فقال الرسول ﷺ: «من يشتري رُومة ويجعلها خالصة للمسلمين، وله بها مشرب في الجنة».

فقال عثمان: أنا يا رسول الله. وتم شراؤها ووهبها لجماعة المسلمين. وقال الرسول ﷺ: «من يزيد في مسجدنا، فاشترى عثمان ﷺ موضع خمس سوار فزاده في المسجد».

وجهاز عثمان من خالص ماله جيش العسرة الذهاب لمعركة تبوك بتسعمائة وخمسين بغيراً وأتم الألف بخمسين فرساً. حتى قال الرسول ﷺ: «ما ضر عثمان ما يفعل بعد ذلك».

وفي ليلة مقمرة صافية، والنسيم العليل يداعب أشجار المدينة، وعثمان ابن عفان رضي الله عنه جالس في محرابه يرتل آيات الله سبحانه وتعالى ويناجي ربه، حتى إذا اقترب الهزيع الأخير من الليل، سمع صوتاً مكتوماً ينطلق من

حجرة رقية رضي الله عنها فتسلل مسرعاً إليها فوجدها مستيقظة تعاني من ألم الطلق، وتتقلب على فراشها يئمة ويسرة، فعرف عثمان ما تعانيه. وانطلق مهرولاً إلى الخارج ثم عاد مسرعاً تتبعه في خطوه قابلة المدينة، وأدخلها على رقية ثم عاد إلى صلاته وتسبيحه، ومناجاة ربه أن يخفف عن رقية. وفي أقل من ساعة زمنية، طرق سمع عثمان صوت الطفل الذي استهل صارخاً، فسجد لله شكراً. وما كاد ينفلت من سجوده حتى اقتربت منه القابلة وبشرته بمولود ذكر، وأخبرته أن أم الطفل بصحة جيدة وتطلب أن تراك، وهرولاً مسرعاً إلى رقية والتقت عيناها المملوءتان بالفرح والسرور، وخيل لهما أن الدنيا جميعها تشاركهما هذه الفرحة، وامتدت يد رقية تحمل الطفل الوليد لتضعه بين يدي والده، فأخذه منها وطبع على جبينه قبله ثم رده مرة أخرى إلى رقية قائلاً: يا أم عبد الله بارك الله فيك، وأقر الله عينيك به.

ثم خرج مسرعاً ليخبر إلى رسول الله ﷺ بحفيده الجديد، وكذلك أخوات رقية، أم كلثوم وزينب وفاطمة بشرهن بهذا الوليد.

وما هي إلا لحظات حتى امتلأ البيت على رقية مهنئين وفرحين، وأصبح لرقية من هذا اليوم أنيس يملأ وحدتها، وطفل أكمل سعادتها وانشغل وقتها بالناية به والرعاية له.

وسارت بهما الحياة وهي مملوءة غبطة وفرحاً، ولما لا تكون كذلك؟ وابنها عبد الله ينمو جسمه ساعة بعد ساعة، وشهراً بعد شهر، وعاماً بعد عام حتى اقترب من سن السادسة من عمره. وأراد الله أمراً حيث كان الطفل في ردهة المنزل وهو سابح في نومه، اقترب منه ديك ونقره عدة نقرات في وجهه وعينه.

وانخلع قلب الوالدين وهما يشاهدان الطفل أمامهما والدماء تسيل من جميع أجزاء وجهه - وهو يصرخ ويتألم - وهما لا يستطيعان التخفيف عنه أو رفع الألم الذي لا يحتمله طفل في مثل سنه.

وكان جده رسول الله ﷺ كثيراً ما يأتي لحمله والدعاء له ولكن الآلام قد برحت به، وجاءه أجله ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾^(١).

ففارق الدنيا ذاهباً إلى ربه ليصبح عصفوراً من عصافير الجنة.

وجلس عثمان في بيته يجتر أحزانه ويحبس دموعه وزوجه كذلك حتى ينفطر قلبه، ويضيق صدره، عندها يلجأ إلى كتاب الله سبحانه وتعالى ليمنحه الصبر والسلوان.

ومرت الأيام وتوالت الليالي، وذكرى عبد الله لا يغيب عنهما ولا تفارق مخيلتهما. حتى جاء يوم وسرى في أنحاء المدينة، خبر قريش وهي تعد العدة لحرب محمد وصحبه..

وقد أصدر الرسول ﷺ أمره لجماعة المسلمين بإعداد العدة والخيول للوقوف في وجه هذه الفئة الباغية، وكان عثمان رضي الله عنه أحد المسلمين الذين شغلهم هذا الأمر فانشغل به، وأخذ يعمل في تجميع العدة والعتاد لهذا اليوم، ولقد وجد في ذلك شغلاً عما هو فيه، وتخفيف الصدمة التي أحدثتها وفاة ابنه عبد الله.

أما رقية رضي الله عنها فقد جلست في بيتها والوحدة تجدد أحزانها وتنكأ جراحها، وتشعل آلامها، وفي وسط هذا كله سمعت رقية برجة في المدينة، وجلبة بين طرفاتها، وأصوات عالية تطرق أذنيها ولكنها لا تتبين معانيها ماذا يكون هذا..

وجاءها الخبر، إنه جيش الإسلام الخارج إلى مشارف ماء بدر لملاقاة هؤلاء المشركين المغيرين، وأخذت رقية تتأمل جيش الإسلام جيش النصر، وعلى كتيبة منهم شاهدت زوجها عثمان بن عفان ويجواره عبد الله بن مسعود يحمل الراية وينادي بالمسير، ولكن ما كاد الجيش يغز السير إلى بدر حتى شاهد رسول الله ﷺ عثمان بن عفان حتى أمره بالنزول والبقاء في المدينة لرعاية شئون رقية في محنتها هذه والتخفيف من آلامها. واستجاب

(١) سورة الرعد آية رقم: ٢٨.

عثمان لأمر قائده.

وانطلق الجيش إلى غايته وعاد عثمان إلى المدينة، وذهب إلى بيته وشاهد رقية، وهى لا تقوى على الوقوف، من مرض حلّ بها فجأة، فأذهب نضارتها، ونحل جسمها، وحولها إلى هيك من العظم تحمله قدما هشتان.. ومرت الأيام بطيئة متثاقلة على عثمان ورقية وقلقهما على رسول الله وصحبه من هذه الفئة الباغية يزداد حتى جاء البشير بانتصار المسلمين على عصابات الشرك والكفر، وعمت الفرحة أرجاء المدينة، وقامت رقية من فراشها وكأنها لم تصب بمرض قط..

وما هى إلا أيام قليلة حتى عاد رسول الله ﷺ ومعه المسلمون وعلى رؤوسهم تيجان النصر والفخار. إنهم الفئة المؤمنة الذين سينداحون عما قريب إلى أركان الأرض الأربعة لنشر دين الله ورفع راية التوحيد حتى قال الله تعالى عنهم:

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَتَتَفُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾ (١).

وما كاد الرسول ﷺ تطأ أقدامه أرض المدينة حتى هرول مسرعاً إلى بيت عثمان ليطمئن على رقية، ولقد كانت فى ذلك الوقت نشيطة مرحة، ووجهها مشرقاً وعيناها تمتلآن بالنضارة والحبور ورفعت نظرها فإذا أبوها أمامها فمدت ذراعها إليه ولكنه أخذها بين أحضانه وطبع على جبينها قبلة، وكأنها كانت قبلة الوداع الذى لا لقاء بعده فى هذه الدنيا.

ثم انطلقت روحها إلى بارئها بعد أن ألقت على زوجها وإخوتها وأبيها آخر نظرات الحياة.

رحمها الله رحمة واسعة، وأسكنها فسيح جناته، إنه سميع الدعاء.

(١) سورة الفتح آية رقم: ٢٩.

أسباب النزول

لما كانت عادة العربيات التبذل، وكن يكشفن وجوههن كما يفعل الإمام وكان ذلك داعية إلى نظر الرجال إليهن، وتشعب الفكره فيهن، أمر الله رسوله ﷺ أن يأمرهن بإرخاء الجلابيب عليهن إذا أردن الخروج إلى حوائجهن.

وكنَّ يتبرزن في الصحراء قبل أن تتخذ الكنف- فيقع الفرق بينهن وبين الإمام فتعرف الحرة بسترها فيكف عن معاكستها من كان عزياً أو شاباً. وكانت المرأة من نساء المؤمنين قبل نزول هذه الآية تخرج للحاجة فيتعرض لها بعض الفجار يظن أنها أمة فتصيح به فيذهب، فشكوا ذلك إلى النبي ﷺ ونزلت الآية بسبب ذلك.

قوله تعالى: ﴿من جلابيبهن﴾.

الجلابيب جمع جلباب وهو ثوب أكثر من الخمار، وروى عن ابن عباس، وابن مسعود أنه الرداء، وقد قيل إنه القناع، والصحيح أنه الثوب الذي يستر جميع البدن.

وفي صحيح مسلم عن أم عطية رضي الله عنها قلت يا رسول الله، إحدانا لا يكون لها جلباب؟

قال: «لتلبسها أختها من جلبابها»^(١).

واختلف الناس في صورة إرخائه فقال ابن عباس رضي الله عنه وعبيدة السلماني: ذلك أن تلويه المرأة حتى لا يظهر منها إلا عين واحدة تبصر بها.

وقال ابن عباس أيضاً وقتادة: ذلك أن تلويه فوق الجبين وتشده ثم تعطفه على الأنف، وإن ظهرت عيناها لكنه يستر الصدر ومعظم الوجه.

وقال الحسن: تغطي نصف وجهها.

(١) الحديث أخرجه البخاري في العيدين ٣٠، والحيض ٢٢، ومسلم في العيدين ١٢، والترمذي في الجمعة ٣٦، وابن ماجه في الإقامة ١٦٥، وأحمد في المسند ٥: ٨٤ «حلي».

فأمر الله سبحانه وتعالى جميع النساء بالستر، وأن ذلك لا يكون إلا بما لا يصف جلدها، إلا إذا كانت مع زوجها فلها أن تلبس ما شاءت لأن له أن يستمتع بها كيف شاء.

وقد ثبت أن النبي ﷺ استيقظ ليلة فقال: «سبحان الله ماذا أنزل الليلة من الفتن، وماذا فتح من الخزائن من يوقظ صواحب الحجر، رب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة» (١).

وروى أن دحية الكلبي لما رجع من عند هرقل، فأعطاه النبي ﷺ قبضية فقال: «اجعل نصفها لك قميصاً واعط صاحبك النصف تختمر به» ثم قال: «مرها تجعل تحتها شيئاً لئلا يصف».

وذكر أبو هريرة رضى الله عنه رقة الثياب للنساء فقال: «الكاسيات العاريات الناعمات المتعمات».

ودخل نسوة بنى تميم على عائشة رضى الله عنها وعليها خمار قُبْطِيّ معصفر فلما رأتها قالت: «لم تؤمن بسورة النور امرأة تلبس هذا الثوب».

وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «نساء كاسيات عاريات مائلات مميلات رعوسهن مثل أسنمة البخت لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها» (٢).

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ما يمنع المرأة المسلمة إذا كانت لها حاجة أن تخرج في أطمارها أو أطمار جارتها مستخفية لا يعلم بها أحد حتى ترجع إلى بيتها..

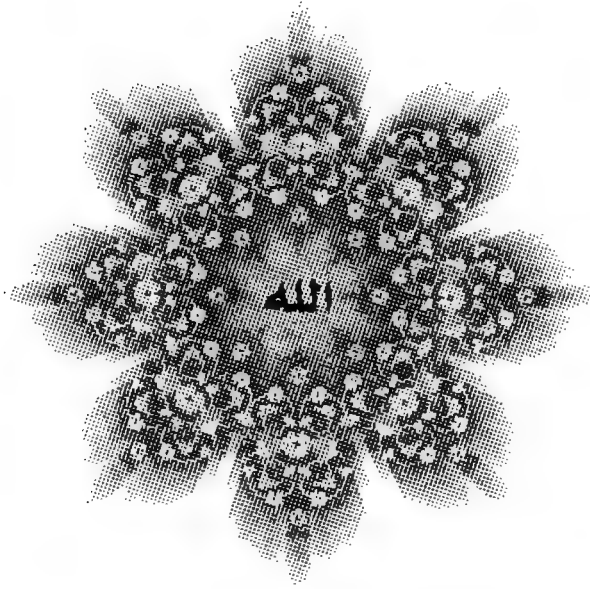
(١) الحديث ذكره القرطبي في التفسير ١٤: ٢٤٤ ط دار الكتب المصرية.

(٢) الحديث رواه الإمام مسلم في اللباس ٢٤ باب النساء الكاسيات العاريات ١٢٥ (٢١٢٨) وابن ماجه، وأحمد بن حنبل (٢٢٣٢، ٢٥٦). وهذا الحديث من معجزات النبوة فقد وجد هذا الصنف في هذا العصر في بلاد المسلمين ومعنى كاسيات من نعمة الله عاريات من شكرها، وقيل معناه تستر بعض بدنهن وتكشف بعضه، وقيل معناه تلبس ثوباً رقيقاً يصف لون بدنهن وأما مائلات فقيل معناه عن طاعة الله مميلات أى يملن غيرهن فعلمن المذموم، وقيل مائلات يمشين متبخترات مميلات لأكتافهن، ومعنى رؤسهن كأسنمة البخت أى يكبرنها ويعظمنها بلف عمامة أو عصابة أو نحوها.

وكان عمر إذا رأى أمة قد تقنعت ضريبها بالدرة محافظة على زى الحرائر. وقد قيل: إنه يجب الستر والتقنع الآن في حق الجميع من الحرائر والإماء، وهذا كما أن أصحاب رسول الله ﷺ منعوا النساء المساجد بعد وفاة رسول الله ﷺ مع قوله:

«لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»^(١).

حتى قالت عائشة رضي الله عنها: «لو عاش رسول الله ﷺ إلى وقتنا هذا لمنعهن من الخروج إلى المساجد كما منعت نساء بنى إسرائيل.



(١) الحديث أخرجه البخاري في الجمعة (١٣) ومسلم في الصلاة (١٣٥، ١٣٦) وأبو داود في الصلاة (٥٢) وصاحب الموطأ (١٢) وأحمد بن حنبل في المسند (٢: ٣٦، ٤٢) «حلي».



حرص الإسلام على إيجاد المجتمع النظيف

يحرص الإسلام على إيجاد المجتمع المسلم النظيف، الذى لا تعرى فيه الأجساد ولا تكشف العورات، ولا تهاج فيه الشهوات، ولا يبتلى بالاختلاط الجنسى التى يتم بين الرجل والمرأة بعيداً عن شرع الله، وفى غفلة من قوانين وأعراف المجتمع ولهذا قال الله تعالى:

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَى إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَى أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولَى الْإِرَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْطِفْلَ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١).

عن صفية بنت شيبة قالت: بينما نحن عند عائشة رضي الله عنها قالت إن لنساء قريش لفضلاً وإنى والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار أشد تصديقاً لكتاب الله، وإيماناً بالتنزيل لما نزلت فى سورة النور: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾.

انقلب رجالهن إليهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم فيها، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته وعلى كل ذى قرابته، فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرحل فاعتجرت به تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله من كتابه،

(١) سورة النور آيتان: ٣٠، ٣١.

فأصبحن وراء رسول الله ﷺ معجرات كان على رؤوسهن الفريان^(١).

فالإجابة فورية لأمر الله تعالى ولا تكاسل أو تهاون فيما يفرضه الله تعالى على عباده.

والجنس في الإسلام دافع من أقوى الدوافع لدى الإنسان، وذلك لحكمة أرادها الله سبحانه وتعالى. هذه الحكمة هي تعمير الكون وإقامة الخلافة في الأرض، واستمرار الحياة فيها.

والجنس في الإسلام ليس هو ينبوع القذارة والخطيئة كما يدعى أصحاب بعض المذاهب والديانات السابقة.

وليس - وحده - هو الطاقة المحركة لكيان الإنسان كما قال «فرويد» ومدرسته الذي أثبت العالم فشلها وضلالها.

وليس هو مسألة «بيولوجية» تؤدي على قارعة الطريق أو خلصة بين اثنين كما يفعل بعض دعاة المدنية الحديثة.

وليس هو رجلاً لكل النساء أو امرأة لكل الرجال كما يفعل دعاة العلمانية والرأسمالية - ومن سار سيرهم.

وإنما هو دافع، ودافع نظيف، وله وظيفة محددة قال الله تعالى:

﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾^(٢).

إن التعبير بالحرث يناسب هذا الواقع لأنه واقع إخصاب وتوالد ونماء وما دام حرثاً فاتوه بالطريقة التي تشاءون في موضع الإخصاب الذي يحقق غاية الحرث، واتجهوا إلى الله فيه بالعبادة والتقوى فيكون عملاً صالحاً تقدمونه لأنفسكم واستيقنوا من لقاء الله الذي يجزيكم بما قدمتم.

(١) الحديث أخرجه البخاري في التفسير ١٢ باب «وليضرين بخمرهن على جيوبهن» برقم ٤٧٥٨، ٤٧٥٩ عن صفية بنت شيبة، وأخرجه النسائي من رواية ابن المبارك.

(٢) سورة البقرة آية رقم: ٢٢٣.

قال الله تعالى: ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ﴾ (١).

وبذلك حدد منهج القرآن العلاقة الجنسية بتلك الصورة الموحية الجميلة صورة الأرض التي تحرث لوضع البذرة وتعهدها حتى تثبت وتأتي ثمرة جديدة من نفس النوع.

والجنس بهذا التصور وسيلة لبقاء النوع الإنساني وانتشاره قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ (٢).

وهو وسيلة السكن والراحة والمودة والرحمة قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٣).

إن هذه الصلة التي تكون بين الرجل وزوجه، هي صلة المودة والرحمة صلة فيها السكن للنفس والعصب. صلة فيها الرحمة للجسم والقلب. صلة فيها استقرار الحياة والمعاش.

وأنساً للأرواح والضمائر، واطمئناناً لكل من الرجل والمرأة. إن المؤمن يدرك حكمة الله سبحانه وتعالى في جعل كل من الجنسين موافقاً للآخر ملبياً لحاجته الفطرية سواء أكانت هذه الحاجة نفسية، أو عقلية، أو جسدية بحيث يجد في رحابها الراحة والطمأنينة والاستقرار، لأن في تركهما النفسى والعصبى والعضوى ملحوظ فيه تلبية رغائب كل منهما في الآخر، واثتلافهما وامتزاجهما في النهاية لإنشاء هذه الحياة الجديدة.

هذا هو رباط الجنس في منهج القرآن، وهذه هي العلاقة الجنسية في قواعد الإسلام، والمتأمل في ذلك يجد أن منهج القرآن يختلف عن كل

(١) سورة البقرة آية رقم: ٢٢٣.

(٢) سورة النساء آية رقم: ١.

(٣) سورة الروم آية رقم: ٢١.

المناهج الأرضية في هذه المسألة.

فالجنس ليس تسافداً كتسافد الطيور على الأشجار، وليس تصارعاً على المرأة الجميلة في الحانات والأندية كما تتصارع فصائل الكلاب على الأنثى وليس عملية تتم في الظلام بلا عقود أو شهود.

وإنما هو سكن يلجأ إليه الرجل، ليجد في أنسه الراحة، وفي قربه الأمن والاستقرار.. والهدوء والاطمئنان.. وهو أولاً وأخيراً مودة ورحمة..

وبهذا ينشأ الأطفال- الزغب- في هذا الجو، جو الدفء والحنان والرعاية، والجنس في منهج القرآن أيضاً وسيلة الإحصان والعفة وسيلة الستر والوقاية. قال الله تعالى: ﴿مَنْ لَبَسَ لَكُمَّ وَآتَمَّتْ لِهِنَّ﴾^(١).

لباس للستر والحفظ، يستر الجسد فلا ينكشف، ويستر العورة فلا تبين، يستر عورات الإنسان ونتوءات جسمه. يستر عيوبه الجسدية والخلقية والجنسية.

يستر جهله وطيشه وقلبات لسانه، يستر ضعفه أو شره ويخفي أسرارته التي لا يجب أن تعرض خارج نطاق الزوجين.

ووقاية للرجل والمرأة عن التفكير في الفحشاء أو ارتكابها، وتلطيف لوقدة الشهوة وفوران الرغبة. كما يلفظ الثوب الساتر أذى الهاجرة وقسوة الزمهرير.

لهذا كان منهج القرآن يعمل على تشجيع الأفراد على الزواج ويحثهم عليه ويصل في بعض هذه التوجيهات إلى درجة الأمر.

قال الله تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾^(٢).

ويقرر أن لهم أجراً في ذلك لا يقل عن أجره في أى عمل من أعمال الدنيا يؤديه. يقول الرسول ﷺ: «وفي بضع أحدكم صدقة».

(٢) سورة النساء آية رقم: ٢.

(١) سورة البقرة آية رقم: ١٨٧.

قالوا: يا رسول الله آياتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟

قال: «أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه فيها وزر؟»

قالوا: نعم يا رسول الله.

قال: «فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر»^(١).

ومنهج القرآن يرفع الجنس إلى مستوى بعض العبادات. ففى حديث الرسول ﷺ:

«حبب إلى من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء وجعلت قرة عينى فى الصلاة»^(٢).

والجنس فى منهج الإسلام، لا يتم إلا بعقد موثق ورضا وقبول وشهود يشهدون على هذا العقد.

فإذا تم على غير هذه الصورة فهو الفاحشة والمنكر، قال الله تعالى:

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣).

يقول الأستاذ محمد قطب: لأن هذه الفتاة التى تسلم فى جسدها لرجل ليس بينها وبينه عقد موثق مثلها كممثل الحارس الذى يدعو الناس إلى سرقة المال الذى يحرسه.

فذلك لا يعطى الناس الحق فى السرقة، لأن الحاربي لا يملك المال فى الحقيقة، وهذه الفتاة الحارسة على عرضها لا تملك التصرف فيه ولا دعوة الناس إلى اغتصابه، لأنه ليس عرضها وحدها، ولكنه عرضها وعرض والديها وعرض أسرتها وعرض الإنسانية المسلمة.

(١) الحديث رواه الإمام مسلم فى كتاب الزكاة بيان بأن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف رقم ٥٣.

(٢) الحديث رواه النسائى فى عشرة النساء (١)، وأحمد بن حنبل فى المسند (٣: ١٢٨، ١٩٩، ٢٨٥) «حلبى».

(٣) سورة النور آية رقم: ٢.

إنه عرض الأمانة التي ائتمن الله عليها البشر، وينبغي أن يردوا الأمانة نظيفة، كما تلقوها كاملة ولا يسلموها إلا بحقها الذي نص عليه صاحب الحق.

وهذا الذي نقوله بالنسبة للفتاة نقوله للرجل، فالرجل لا يملك من عرضه شيئاً إلا بحقه.

فإذا انحرف الإنسان عن هذا المنهج وخرج عن هذا الطريق، كان الجزاء ومع ذلك فإن منهج الإسلام يعترف بالضعف الإنساني قال تعالى:

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ (١).

ويعامله منهج الإسلام على أساس هذا الضعف فيغفر له زلاته ما دام لم يصر عليها قال الله تعالى:

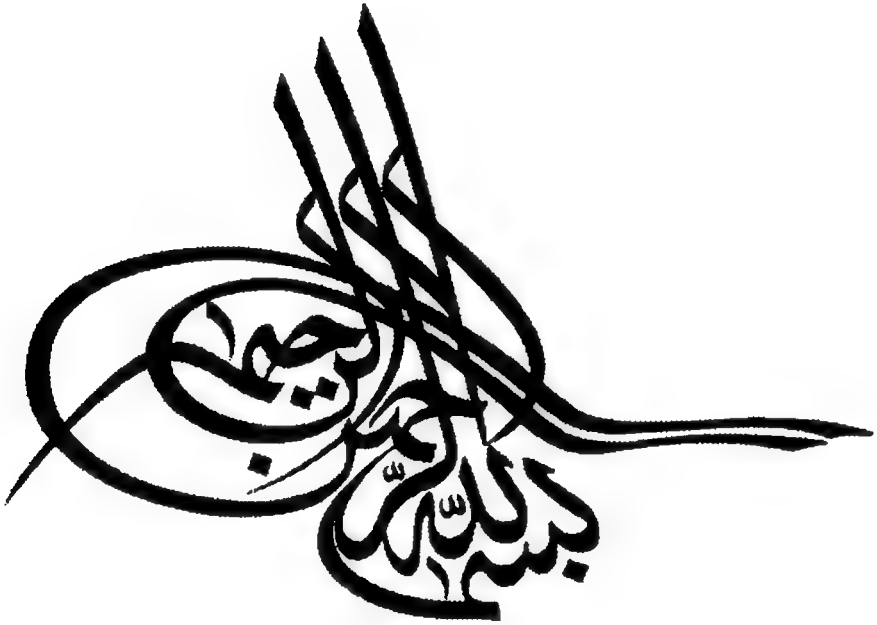
﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ لَهُمْ لَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (٢).

(١) سورة النساء آية رقم: ٢٨.

(٢) سورة آل عمران الآيتان: ١٣٥، ١٣٦.

زوجة موسى

عليه السلام



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى:

﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ
مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ (٢٦) قَالَ إِنِّي
أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى
أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ
عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ
سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾

(سورة القصص: ٢٦، ٢٧)

أقوال العلماء والمفسرين فى نزول هذه الآية

قال كثير من رجال التفسير والحديث نزلت هذه الآيات فى زواج موسى

عليه السلام.

قال ذلك الإمام الطبرى فى التفسير (٢٠ : ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢).

وقاله الإمام القرطبى فى التفسير (١٢ : ٢٦٧ ، ٢٦٨).

وقاله ابن كثير فى التفسير (٣ : ٣٩٦ ، ٣٩٧).

وقاله ابن الجوزى فى زاد المسير فى علم التفسير (٦ : ٢١٤ ، ٢١٥ ،

٢١٦).

فمن هى زوجة موسى عليه السلام؟



حياتها ونشأتها

هى صفوريا ابنة شعيب عليه السلام .

والدها شعيب بن ميكيل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم عليه السلام .

أرسله الله تعالى إلى أهل مدين قال فى كتابه الكريم:

﴿وَالِى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١).

وأرسل أيضاً إلى أصحاب الأيكة قال الله تعالى:

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ (٢).

وكان شعيب حسن الصوت فارع الطول معتلاً الجسم، وخطيباً مفوهاً

وروى عن النبى ﷺ أنه قال إذا ذكر شعيب قال: «هذا خطيب الملائكة» (٣).

وأما- كما تذكر بعض الروايات ابنة لوط عليه السلام . الذى أرسل إلى قومه،

(١) سورة الأعراف آية رقم ٨٥.

(٢) سورة الشعراء الآيات: ١٧٦ - ١٧٩.

(٣) ذكره الإمام القرطبى فى التفسير ج ٩ ص ٩٠ ط دار الكتب.

وكانوا يأتون الفاحشة جهاراً قال الله تعالى:

﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (١).

فأرسل الله تعالى ملائكة في صورة شباب فالتقت بهم ابنة لوط عليه السلام التي كانت تستسقى من الماء لأهلها فقالوا: يا جارية هل من منزل؟ قالت: نعم. فمكانكم لا تدخلوا حتى آتيكم- خوفاً عليهم من قومها- فأنت أباهما فقالت: يا أبتاه أراذك فتيان على باب المدينة ما رأيت وجوه قوم هي أحسن منهم. أخشى أن يأخذهم قومك فتكون فضيحة لنا؟

فخرج لوط عليه السلام وجاء بهم إلى بيته، ولم يعلم بهم أحد إلا زوجته وما كادت تراهم هذه المرأة حتى خرجت إلى قومها مسرعة لتخبرهم بضيوف زوجها الملاح الوجوه الفضة أجسامهم.

فجاءوا يراودون ضيوفه عن أنفسهم فأعماهم الله وطمس على عيونهم قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ (٢).

ثم صب الله تعالى عليهم العذاب صباً قال تعالى:

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مُنْضُودٍ (٨٢) مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ (٣).

وقال أيضاً: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ (٤).

وآل لوط هما ابنتاه اللتان تزوج صفراهما شعيب عليه السلام فولدت له «ليا» و«صفوريا».

ثم يصمت التاريخ فلا يحدثنا من قريب أو من بعيد عن طفولة «صفوريا» ابنة شعيب عليه السلام، لقد ولدت على أرض مدين، وكان أبوها رسولاً نبياً يدعو قومه لعبادة الواحد الأحد.

(٢) سورة القمر آية رقم: ٢٧.

(١) سورة الأعراف آية رقم: ٨٠.

(٤) سورة القمر آية رقم: ٢٤.

(٣) سورة هود آية رقم: ٨٢، ٨٣.

فماذا كانت حياة «صفوريا» هل نشأت نشأة مترفة؟ هل كانت تعيش في قصر متعدد الردهات؟ أم أنها كانت تعيش عيشة الكفاف، كما كان يعيش والدها وكل الأنبياء والرسل من قبله؟

ومتى سمح لها والدها أن تشارك أختها في رعي الغنم؟ لا شك أنها نشأت حياة عادية، ككل الفتيات على أرض البادية: سماء مفتوحة وشمس مشرقة، وأرض مكشوفة، ونسمات علية، وصحة ونشاط وحيوية وحركة، ومشاركة فعالة في شئون الحياة كلها، فلا ترف ولا خمول، ولا كسل ولا تبطل، وإنما هو جد وعمل.

ثم أراد الله سبحانه وتعالى أن تلتقي بموسى الشاب الهارب من أرض مصر، بعد أن قتل نفساً عن طريق الخطأ وهو يدفعه عن أحد أقاربه من بنى إسرائيل. فأمر فرعون مصر اللهاق بالقاتل وحضوره إلى مجلس الحكم ليكون القصاص والقتل، أو قتله في أى مكان وجد فيه.

وسمع رجل صالح من آل فرعون ما بيته هذه الفئة الباغية من قتل هذا الشاب فلحق به وقال له:

﴿إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتِمِرُونَ بِكَ لَيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ (١).

فخرج موسى من أرض مصر خائفاً يترقب حتى وصل إلى أرض مدين بعد رحلة شاقة مؤلمة، وكان لقاءه بهاتين الفتاتين اللتين تريدان أن تسقيا أغنامهما ولا تستطيعان ذلك حتى يصدر رعاة الغنم من على البئر وذكرتا أن أباهما شيخ كبير.

وقام الشاب الذى يملأ الإيمان والصدق كل جارحة من جوارحه فسقى لهما أغنامهما ثم توجه إلى ظل شجرة وتمتم بينه وبين نفسه: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (٢).

(١) سورة القصص آية رقم: ٢٠.

(٢) سورة القصص آية رقم: ٢٤.

وانطلقت الفتاتان إلى منزلهما- وشعر الوالد بمجيئتهما مبكرتين على غير العادة، وقصتا على أبيهما أمر هذا الشاب الذى ساعدهما فى سقى الغنم، ولا شك أنه غريب من غير هذه الديار. وطلب الوالد من ابنته الصغرى أن تحمل رسالة له تدعوه لمقابلة أبيها:

قال تعالى:

﴿لَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ (١).

جاءته سائرة وجهها بكم ذراعها- فروى أن موسى ﷺ لما جاءته بالرسالة قام يتبعها، وكان بين المكان الذى جلس فيه موسى وبين منزل شعيب ﷺ ثلاثة أميال، فهبت ريح فضمت قميصها فوصفت جسمها وبرزت مفاته، فتخرج موسى من النظر إليها، فقال: ارجعى خلفى وأرشديني إلى الطريق بصوتك. حتى وصل إلى المكان الذى جلس فيه شعيب. وتلاقى الضيف والمضيف. وقرب شعيب لضيفه طعاماً.

فقال موسى: «لا أكل أنا من هذا الطعام إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بملء الأرض ذهباً».

أى أن الذى فعله مع ابنتيه هو من الدين الذى أمر الله تعالى به فكيف يأخذ عليه أجراً؟.

فقال شعيب: ليس هذا عوض السقى، ولكن عادتى وعادة آبائى وأجدادى إكرام الضيف وإطعام الطعام فحينئذ أكل موسى.

ثم أخذ موسى يلقي على مسامع شعيب قصته مع فرعون، وما يلقاه بنى إسرائيل فى مصر على يد هذا الطاغية، حتى إنه ذبح منهم أكثر من سبعين ألف طفل، وكيف أن أتباعه وجنوده يسومون بنى إسرائيل سوء العذاب وعندما رأى أحد الفراعنة ينال من رجال من بنى إسرائيل لطمته بيدي

(١) سورة القصص آية رقم: ٢٥.

فكانت القاضية.

فخرجت الشرط في أثرى تريد قتلى، ولكن الله نجاني منهم حتى وصلت إلى بلادك هذه. عندها قال شعيب لموسى: ابشر واطمئن.
﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(١).

وعندما أوشكت أيام الضيافة أن تنصرم، وأراد موسى أن يفادر بيت شعيب وشعرت الفتاتان بعزمه على الرحيل:
﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبْتَ اسْتَاجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾^(٢).

إنها وأختها تعانيان من رعى الغنم، ومن مزاحمة الرجال على الماء ومن الاحتكاك الذي لا بد منه للمرأة التي تزاوّل أعمال الرجال، وهي تتأذى وأختها من هذا كله، وتريد أن تكون امرأة تأوى إلى بيت، امرأة عفيفة مستورة لا تحتك بالرجال الغريباء في الرعى والسقى، والمرأة العفيفة الروح، النظيفة القلب، السليمة الفطرة، لا تستريح لمزاحمة الرجال ولا للتبذل الناشئ من هذه المزاحمة.

وها هو ذا شاب غريب طريد، وهو في الوقت ذاته قوى أمين، رأت من قوته ما يهابه الرعاة فيفسحون له الطريق، ويسقى لهما، وهو غريب ورأت من أمانته ما يجعله عف اللسان والنظر حين توجهت لدعوته فهي تشير على أبيها باستئجاره ليكفيها وأختها مؤنة العمل والاحتكاك والتبذل، وهو قوى على العمل، أمين على المال، فالأمين على العرض هكذا أمين على ما سواه.

وهي تقول ذلك لا تتلمثم في هذه الإشارة، ولا تضطرب، ولا تخشى سوء الظن والتهمة، فهي بريئة النفس، نظيفة الحس، ومن ثم لا تخشى شيئاً ولا تتمم ولا تجمجم وهي تعرض اقتراحها على أبيها.

ولقد استراح شعيب لاقتراح ابنتيه وخصوصاً بعد معاشته لموسى أيام الضيافة: فهو الشاب القوى في جسمه، والقوى في إيمانه والقوى في صلته

(٢) سورة القصص آية رقم: ٢٦.

(١) سورة القصص آية رقم: ٢٥.

بريه. والقوى في عمله إذا أسند إليه شيء من الأعمال، وهو الأمين على أموال الآخرين وأعراضهم، فلا يخون، ولا يختلس ولا يحابي أو يجامل في الحق، لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي هداه إلى طريقه قبل أن يكلفه بأعباء الرسالة. قال الله تعالى: ﴿وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ (١).

وتقدم شعيب إلى موسى قائلاً له:

﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَاجَ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٢).

ووافق موسى على ما عرضه عليه شعيب من رعى الغنم وسقى الزرع والقيام بكل ما يحتاجه شعيب من الخدمة.

قال ابن عباس - رضي الله عنه - عندها أمر شعيب ابنته صفوريا أن تأتيه بعصا وكانت تلك العصا استودعها إياه مَلَكٌ في صورة رجل فعندما دخلت وأحضرتها ورآها شعيب قال لها: لا إيتيه بغيرها فدخلت وألقته وأرادت أن تأخذ غيرها فلا يقع في يدها إلا هي، وجعل يرددها ولكن ما كان يخرج في يدها إلا هذه العصا.

فلما رأى ذلك شعيب أعطاها له فرعى موسى بها ثم أراد شعيب أن يأخذها من موسى فأبى أن يعطيه، فاختصما بينهما ثم تراضيا أن يجعل بينهما أول رجل يلقاهما. فاتاهما ملك يمشى فقضى بينهما فقال: ضعاهما في الأرض فمن حملها فهي له.

فمالجها الشيخ فلم يطلق ذلك فتركها وأخذها موسى بيده فرفعها فتركها له الشيخ وعلم أن له شأنًا.

فلما أصبح قال شعيب لموسى: سق الأغنام إلى مفرق الطوق، فخذ عن يمينك، وليس بها عشب كثير، ولا تأخذ عن يسارك فإن بها عشباً كثيراً وتبيناً كبيراً لا يقبل المواشى.

(٢) سورة القصص آية رقم: ٢٧.

(١) سورة طه آية رقم: ٤١.

فساق المواشى إلى مفرق الطرق، فأخذت نحو اليسار ولم يقدر على ضبطها، ثم نام موسى وخرج التين من جحره، فقامت العصا وصارت شعبتها حديداً وحاربت التين حتى قتلتها. وعادت إلى موسى عليه السلام فلما انتبه موسى رأى العصا مخضبة بالدم والتين مقتولاً.

ولما عاد إلى شعيب ليلاً رأى شعيب أثر الشبع باد على الأغنام فسأله عن القصة. فأخبره بها.

ففرح شعيب بذلك فرحاً شديداً وقال لموسى: «كل ما تلد المواشى هذه السنة ذات لونين فهو لك». فجاءت جميع الخراف الصغيرة تلك السنة ذات لونين.

فعلم شعيب أن لموسى عند الله مكانة لا يدانيه فيها أحد من خلقه.

وتوالت الأيام وتتابعت السنون، وانقضى الأجل الذى حدده شعيب لموسى. عشر سنوات كاملة.

وقرر موسى أمراً لا رجعة فيه- لابد من الرحلة إلى مصر- حتى يرى أمه وأخاه هارون، ويصحب معه زوجه، الزوجة الصابرة المؤمنة الزوجة المطيعة، التى قررت أن تصحب زوجها فى رحلته لا إلى مصر فقط ولكن إلى آخر الدنيا- إن كان لها آخر ما دام فى ذلك رضاه وسعادته. وتم حزم أمتعتهمما وتجهيز ما يحتاجه المسافر فى رحلة ليست بالقصيرة وزودهمما أبوها بقطيع من الأغنام وبعض النوق وفرسين وسارا فى طريقهم المرسوم تباركهم دعوات شعيب وتحرسهم عناية الله ورعايته قال تعالى:

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ (١).

ونتساءل لماذا عاد: وقد خرج من مصر طريداً، وغادر مصر هارباً وبنو إسرائيل فيها يسومون العذاب ألواناً؟ بعد أن وجد الأمن والطمأنينة فى مدين إلى جو شعيب الذى آواه وزوجه إحدى ابنتيه؟

(١) سورة القصص آية رقم: ٢٩.

إنها جاذبية الوطن والأهل، وتعلق الإنسان بالأرض التي ولد عليها والمسرح الذي شهد حياته الأولى.

وهكذا عاد موسى بفضل طريقه في الصحراء ومعه زوجته، ضل طريقه والليل مظلم والمتاهة واسعة يعرف هذا من قوله:

﴿أَمْكُثِّرَا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ (١).

وأهل البادية يوقدون النار عادة على مرتفع من الأرض ليراهم الساري في الصحراء فتكشف له الطريق أو يجد عندها القرى والضيافة. لقد ذهب يطلب قبساً من النار، ويطلب هادياً يدلّه على الطريق، ولكنه وجد المفاجأة الكبرى، إنها النار التي تدفئ الأرواح لا الأجساد النار التي تهدي إلى رحلة الحياة الكبرى لا تلك الرحلة القاصرة المحدودة. قال تعالى:

﴿يَا مُوسَى (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ (٢).

إن الله اختار موسى نبياً ورسولاً وأمره بالاستماع لما يوحى إليه من عنده، وقواعد الاستماع أشار إليها العلماء بقولهم:

١- سكون الجوارح وغض البصر.

٢- الإصغاء بالسمع.

٣- حضور العقل والعزم على العمل.

فالاستماع الذي يحبه الله تعالى من العبد كف جوارحه فلا يشغلها فينشغل قلبه عما يسمع، وغض طرفه فلا يلهو قلبه بما يرى، ويحضر عقله فلا يحدث نفسه بشيء سوى ما يستمع إليه، ويعزم على أن يفهم فيعمل بما يفهم.

إن موسى يوحى إليه من ربه، وكانت قضية الوحي الأولى لموسى ﷺ

(١) سورة طه آية رقم: ١٠.

(٢) سورة طه الآيات: ١١ - ١٥.

هو التوحيد، توحيد الخالق فلا إله إلا الله، وتوحيد العقيدة فلا دين إلا الإسلام، وتوحيد البشرية كلهم من آدم وآدم من تراب. هذه قضية الوحي الأولى وكانت الثانية الذهاب إلى فرعون لكشف الألوهية الزائفة التي يدعيها. قال تعالى:

﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمِعُ وَأَرَىٰ (٤٦) فَاتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ (١)﴾.

إن البدء بإيضاح قاعدة رسالتهما ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ ليشعر منذ اللحظة الأولى بأن هناك إلهاً هو ربه، وهو رب الناس، فليس هو إلهاً خاصاً لموسى وهارون، أو لبني إسرائيل كما كان سائداً في خرافات الوثنية يومذاك أن لكل قوم إلهاً أو آلهة.

وأيضاً لموضوع رسالتهما: «فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم» ففي هذه الحدود كانت رسالتهما إلى فرعون لاستتقاذ بني إسرائيل. والعودة بهم إلى عقيدة التوحيد، وإلى الأرض المقدسة التي كتب الله لهم أن يسكنوها.

ثم استشهاد على صدقهما في الرسالة: ﴿قد جئناك بآية من ربك﴾ تدل على صدقنا في مجيئنا إليك بأمر ربك في هذه المهمة المحددة عند هذا الحد ثم إبلاغ موسى وحي ربه وقد وعاه قلبه وسمعه إذناه. ثم ماذا؟

عاد إلى زوجه، وقد مكث طويلاً بعيداً عنها - عاد وهو لا يملك ناراً ولا دليلاً، ولكنها كانت تحس بالدفء والأمان، وسار وزوجته متجاورين، وشعرا أن الأرض كانت تطوى من تحت أقدامهما والنسمات الرخية تضرب صفحة وجهيهما. حتى وصلا إلى مشارف مصر. ولاحت أمامهما مدينة منف بمبانيها العالية، وشوارعها المتسعة، ونخيلها المتشابك، وأرضها المنبسطة المفروشة بالخضرة، والثمار، ونيلها الرقراق الذي ينساب في سهولة ويسر نحو الشمال.

(١) سورة طه الآيات من: ٤٣ - ٤٧.

الرحلة إلى مصر

وطرق موسى باب داره الذى لم تغيره السنون المتتابة، ولم تؤثر فيه عوامل التعرية المتغيرة. وفتح الباب وتعانق موسى ﷺ مع أمه عناقاً طويلاً ممتداً واختلطت دموع الفرح بالابتسامة ثم قدم لها زوجته فرحبت بقدميها أرض النيل وأخذت فى تقبيلها واحتضانها لأنها زوجة ابنها وفيها رائحته وعطره، ثم أخذت من بين يدي الزوجة حفيدها وضمته إلى صدرها وكأنها تعوض بذلك حرمان السنين الذى افتقدت فيها ولدها موسى بعد أن طارده جنود فرعون واخفى تلك السنين الطوال. وكانت فرحتها بوصول موسى إليها حياً بعد هذه السنين لا تقل عن فرحتها يوم رد إليها طفلاً من قصر فرعون.

وفى اليوم التالى لوصوله جلس موسى مع أخيه هارون عليهما السلام وأبلغه رسالة ربه بالذهاب معاً إلى فرعون يدعوانه إلى الإيمان برب العالمين. قال هارون: سمعاً وطاعة لأمر ربي.

وما كادت الأم تسمع تحاور ولديها حتى انتفضت صائحة وقالت: أنشدكما الله ألا تذهبا إلى فرعون فيقتلكما؟

وما كان موسى وهارون عليهما السلام يملكان عدم الذهاب إلى فرعون بعد أن أمرهما الله بذلك وإلا انطبق عليهما قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾^(١).

ثم ذهبوا إلى فرعون فقال له موسى ﷺ:

هل لك يا فرعون فى أن أعطيك شبابك ولا تهرم، وملكك فلا ينزع منك ويرد إليك.

وتبقى عندك لذة المناكح والمشارب والركوب.

فإذا مت دخلت الجنة.. بشرط أن تصدقنى وتؤمن بالله الواحد الأحد؟

(١) سورة المائدة آية رقم: ٦٧.

فوقعت في نفسه هذه الكلمات اللينة فقال: كما أنت حتى يأتي هامان فلما جاء هامان قال له: أشعرت أن ذلك الرجل أتاني؟

قال هامان: من هو...؟

قال فرعون: موسى.

قال هامان: وما قال لك...؟

قال فرعون: قال لي: كذا وكذا.

قال هامان: وما رددت عليه..؟

قال: قلت حتى يأتي هامان فأستشير..؟

فمَجَّزَه هامان وقال: قد كان ظني بك خيراً من هذا، تصير عبداً يُعْبَدُ بعد أن كنت رباً يُعْبَدُ؟

فذلك حين خرج على قومه وقال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾^(١).

ثم قال لقومه: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ۖ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۚ﴾^(٢) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ^(٣) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ^(٤).

وكانت «صفوريا» زوجة موسى تتابع تحركات زوجها وتسمع أخباره مع فرعون. ولما جاء يوم الزينة وحشّر الناس ضحى من كل أنحاء مصر ليشاهدوا سحرة فرعون وتحديات موسى وأخيه هارون ذهبت «صفوريا» إلى مكان التجمع لتكون قريبة من زوجها.

وعندما قال السحرة لموسى: ﴿يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾^(٥).

وما كادت «صفوريا» تشاهد فعل السحرة حتى أصيبت بحالة من الكآبة والضيق ثم غابت عن الوعي، وذلك عندما شعرت أن موسى لا يستطيع

(١) سورة الشعراء آيات: ٢٤-٢٧.

(٢) سورة النازعات آية رقم: ٢٤.

(٣) سورة طه آية رقم: ٦٥.

مجاراة السحرة في حيلهم وأساليبهم الشيطانية.

ولم تفق «صفوريا» من غيبوتها إلا بعد حدوث الهرج والمرج من الجماهير التي شاهدت عصا موسى تلقف وتبطل سحر السحرة حتى لم يبق في الساحة غيرها، عندها خرَّ السحرة سجداً وقالوا: ﴿أَمَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ (١).

قالوا ذلك لاعتقادهم أنه لا يستطيع أن يتغلب عليهم سحر ساحر أما وقد غلبهم موسى لأن ما جاء به ليس سحراً وإنما هو من صنع العليم الخبير.

وجن جنون فرعون وأخذ يرغب ويزيد ويتوعد السحرة بقوله: ﴿فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأَصْلَبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى﴾ (٢).

وتتمت «صفوريا» بينها وبين نفسها بكلمات الحمد والشكر لله تعالى الذي نصر الحق وجنده، وهزم الباطل وحزبه. وصدق ربي في قوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣).

إن «صفوريا» تحولت إلى داعية للنساء في مدينة منف، داعية لعقيدة التوحيد التي هي دعوة الأنبياء جميعاً، وكانت تقول للنساء المصريات والإسرائيليات: إن الله سبحانه وتعالى واحد لا شريك له ودينه واحد لا يتعدد وإن كان الرسل والأنبياء تعددوا حسب الأزمان والعصور ودين الله الذي ارتضاه لعباده هو الإسلام إسلام الوجه لله. فأبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام وابنه إسماعيل كانا يقولان وهما بين يدي البيت:

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (٤).

وقال الله تعالى عنهما: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾ (٥).

(٢) سورة طه آية رقم: ٧١.

(١) سورة طه آية رقم: ٧٠.

(٤) سورة البقرة آية رقم: ١٢٨.

(٣) سورة الروم آية رقم: ٤٧.

(٥) سورة آل عمران آية رقم: ٦٧.

ونوح عليه السلام كانت دعوته إلى الإسلام قال الله تعالى على لسان نوح: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (١).

ويوسف عليه السلام كانت دعوته إلى الإسلام قال تعالى على لسانه: ﴿أَنْتَ وَلِيٌّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (٢).
وسحرة فرعون عندما تبين لهم الحق قالوا لفرعون: ﴿وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتَنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ (٣).

وذاع وشاع ما كانت تلقيه على النساء في دورهن. وأخذت النساء يتوافدن عليها في دارها حتى ضاقت بهن. ثم اتسعت هذه الدار وتحولت إلى محراب للصلاة والعبادة وتعليم الدين الذي جاء به موسى من عند الله تعالى: وكبر ولداه وتفرغا للحياة والعمل، وسارت بهم الحياة رخية هادئة. بعد أن غرق فرعون وجنده.

ثم ماذا...؟ لكل بداية نهاية ولكل أجل كتاب لقد جاء أجلها وذهبت روحها إلى بارئها. ودوى الكون كله بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (٤).

(١) سورة يونس آية رقم: ٧٢.

(٢) سورة يوسف آية رقم: ١٠١.

(٣) سورة الأعراف آية رقم: ١٢٦.

(٤) سورة الفجر الآيات: ٢٧ - ٣٠.

أسباب نزول هذه الآيات

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ قال عمر بن الخطاب استترت بكم قميصها وقيل ماشية على بعد مائلة عن الرجال ﴿إِنْ أَبِي يَدْعُوكَ﴾

يعنى أنها على الاستحياء قالت هذا القول لأن الكريم إذا دعا غيره للضيافة يستحي لاسيما المرأة وفى ذلك دلالة على أن شعيباً لم يكن له معين سواهما .

﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ ففيه إشكالات:

أحدها: كيف ساغ لموسى ﷺ أن يعمل بقول امرأة وأن يمشى معها وهى أجنبية فإن ذلك يورث التهمة العظيمة وقال ﷺ: «اتقوا موضع التهم».

وثانيها: أنه سقى أغنامهما تقرباً إلى الله تعالى فكيف يليق به أخذ الأجرة عليه فإن ذلك غير جائز فى المروة ولا فى الشريعة؟

وثالثها: أنه عرف فقرهن وفقر أبيهن وعجزهم وأنه ﷺ كان فى غاية القوة بحيث يمكنه الكسب الكثير بأقل سعى. فكيف يليق بمروءة مثله طلب الأجرة على هذا القدر من السقى من الشيخ الفقير والمرأة الفقيرة.

ورابعها: كيف يلقي بشعيب النبى ﷺ أن يبعث ابنته الشابة إلى رجل شاب قبل العلم بكون ذلك الرجل عفيفاً أو فاسقاً؟

والجواب عن الأول: أن نقول أما العمل بقول امرأة فكما نعمل بقول الواحد حرّاً أو عبداً ذكراً أو أنثى فى الأخبار، وما كانت إلا مخبرة عن أبيها، وأما المشى مع المرأة فلا بأس به مع الاحتياط والتورع.

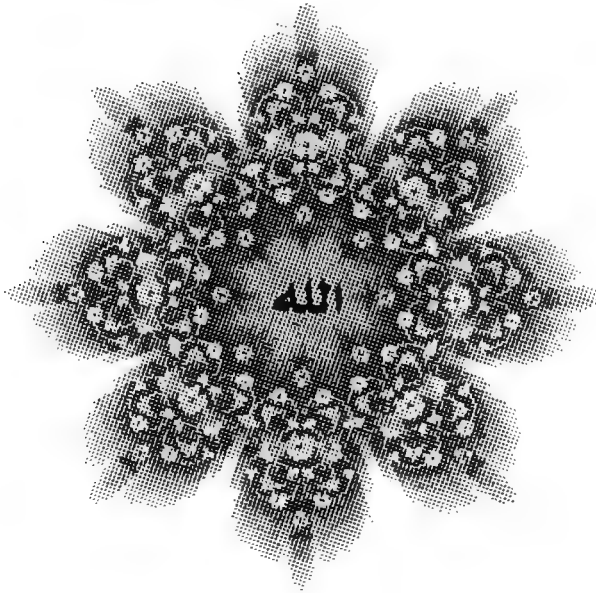
والجواب عن الثانى: أن المرأة وإن قالت ذلك فلعل موسى ﷺ ما ذهب إليهما طلباً للأجرة بل للتبرك برؤية الشيخ. وروى أنها لما قالت ليجزيك كره

ذلك، ولما قدم إليه الطعام امتنع وقال: إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بدنينا ولا نأخذ على المعروف ثمناً حتى قال شعيب هذه عادتنا في كل من ينزل بنا، وأيضاً فليس بمنكر أن الجوع قد بلغ إلى حيث ما كان يطيق تحمله فقبل ذلك على سبيل الاضطرار.

الجواب عن الثالث: فإن الضرورات تبيح المحظورات.

والجواب عن الرابع: لعله عليه السلام كان قد علم بالوحى طهارتها وبراءتها فكان يعتمد عليها^(١).

هذا وبالله التوفيق



(١) راجع تفسير الفخر الرازي ١٢: ٢٤٠، ٢٤١ بتصرف.



حلول الإسلام لمشكلة العنوسة...

هل يجوز للأب أن يتقدم لشاب تتوافر عنده متطلبات الزواج ويخطبه زوجاً لابنته؟

وإذا كان هذا جائز ولا غبار عليه؟

فما موقف الأب إذا عرض ابنته على من وقع عليه الاختيار ليكون زوجاً لها واعتذر الشاب عن الزواج؟

هل يكف الأب عن العرض ولا يعاود الكرة مرة أخرى مع غيره من الشباب؟

وإذا كان العرف في مجتمعاتنا لا يقبل ذلك ولا يجوزه فماذا نفعل في أيامنا هذه والعنوسة تتكاثر، وانصراف الشباب عن التفكير في الزواج يزيد يوماً بعد يوم.

ونتساءل هل حدث في الأزمنة السابقة من قام بعرض ابنته على راغبى الزواج من الرجال أم أن ذلك لم يحدث؟

إن صاحب كتاب «تاريخ الرسل والملوك» يقدم لنا أول حادثة عرض من نوعها كانت في عهد النبي ﷺ:

حيث جلس شيخان عزيزان لأحدهما ابن يرغب له في الزواج وللآخر ابنة لا يجد لها كفتاً.. فلما جمع بينهما المجلس قال والد الفتاة لصاحبه: ما يمنعك أن تزوج ابنك وقد توفرت له كل متطلبات الزواج؟

قال الآخر: لا أجد له كفتاً..؟

قال والد الفتاة: فإن ابنتي كفاء له وأنا أزوجك. وتم زواج الفتى والفتاة.

وكانت الحادثة الثانية التي ذكرها القرآن الكريم عندما قال شعيب عليه السلام لموسى بن عمران: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكَحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١).

وهكذا في بساطة وصراحة عرض شعيب إحدى ابنتيه على موسى، عرضها في غير تحرج ولا التواء فهو يعرض زواجاً لا يخجل منه، يعرض بناء أسرة وإقامة مجتمع وليس في هذا ما يخجل ولا ما يدعو إلى التحرج والتردد أو الإشارة عن بعد، أو التصنع والتكلف مما نشاهده في هذه البيئة التي نعيش فيها والتي تتحرف عن الفطرة السليمة، وتخضع للتقاليد المصطنعة الباطلة والتي تمنع الوالد أو ولي الأمر من التقدم لمن يرتضى خلقه ودينه وكفاءته لابنته أو أخته أو قريبته وتحتم أن يكون الزوج أو وليه أو وكيله هو الذي يتقدم، ولا يليق أن يجيء العرض من الجانب الذي فيه المرأة.

ومن مفارقات هذه البيئة أن الفتيان والفتيات يلتقون ويتحدثون ويختلطون وينكشفون بعضهم لبعض في غير ما خطبة ولا نية زواج فأما حين تعرض الخطبة أو يذكر الزواج فيهبط الخجل المصطنع وتقوم الحوائل المتكلفة وتمتنع المصارحة والبساطة والإبانة.

ولقد كان الآباء يعرضون بناتهم على الرجال في عهد الرسول ﷺ كان يتم هذا في صراحة ونظافة وأدب جميل لا تخدش معه كرامة ولا حياء.

من ذلك أن حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنها تزوجت خنيس بن حذافة بن قيس.. واستشهد في غزوة أحد - وعاشت حفصة في بيت أبيها تجتر أحزانها، وتعيش آلامها لا يحلو لها مطعم ولا تطيب لها حياة، وأخذت زهرة شبابها تذبل ونضرتها تضوى وكان عمر - رضي الله عنه - يلحظ بعينه اللماحة وقلبه الكبير ما تعانيه ابنته من قلق وضيق، ومن حزن وألم بعد أن فقدت رجلها

(١) سورة القصص آية رقم: ٢٧.

وعاشت تجتر أيامها السابقة أيام كانت ملكة في بيتها تتأذى زوجها إذا حضر وتنتظر إياه إذا ذهب.

فخرج عمر يبحث عن السعادة لابنته ولكن كيف؟

إنه يقدر ما تعانيه هذه الإنسانية المترملة بعد أن تعودت على الحياة الزوجية إن ذهب العالم وفضته لا يمكن أن يعوضا المرأة شيئاً عندما تفقد زوجها.. ولكن يمكن لرجل أن يعيد لها السعادة، ويوجد لها الأمل ويجمع أيامها ولياليها.

إذن لابد من زواج حفصة.. إن رجلاً آخر يمكن أن يعيد لها السعادة ويريح قلب عمر.

وعندما وصل عمر - رضي الله عنه - إلى هذه النتيجة استراح قلبه واطمأن خاطره، إن زواج حفصة ليس بمشكلة سيعرضها بنفسه على أحد المسلمين نعم. أو لا؟

أليس في هذا حل لمشكلته ومشكلتها أيضاً؟

إن قلبه يكاد يتقطع كلما دخل بيته ووجد حفصة على هذه الصورة الكئيبة الحزينة التي لا تفارقها.

وبينما ينقل عمر خطواته في إحدى الطرق الممتدة داخل المدينة وقعت عينه على عثمان بن عفان - رضي الله عنه - فاقترب منه وبادله التحية وجلسا يتكلمان وبينما هم في ذلك لمت الفكرة في ذهن عمر. فقال: بكل ما يحمله قلب الإنسان من حب لابنته ورغبة في إسعادها.. يا عثمان فأجابه: نعم يا عمر.

فقال: أنتزوج حفصة يا عثمان؟

وأخذت المفاجأة عثمان لأنه لم يفكر في هذا الأمر من قبل ولم يكن لديه جواب. فقال: يا أخي يا عمر.. ما لي في النساء حاجة.

عمر بن الخطاب يخطب لابنته حفصة

ولكن عمر رضي الله عنه لم ييأس، ولم ير أن في ذلك عيباً ينقص من قدره أو يزرى بمروئته:

ثم ماذا التقى بأبي بكر رضي الله عنه وما قاله لعثمان قاله لأبي بكر: أتتزوج حفصة يا أبا بكر..؟

ولكن أبا بكر لأمر في نفسه سكت ولم ينطق..؟!

فغضب عمر وكيف لا يغضب وهؤلاء إخوته في الإسلام لا يتقدمون لمساعدته في مشكلته. وعندما وقف أمام الرسول ﷺ.

قال: يا رسول الله ألا تعجب..؟ من عثمان إنى عرضت عليه حفصة فأعرض عني، وعرضتها على أبي بكر. فلم يرد عليّ جواباً.

فقال الرسول ﷺ: يا عمر قد زوج الله عثمان خيراً من ابنتك. وزوج ابنتك خيراً من عثمان.

وأشرفت في خاطر عمر لمعة مضيئة أيتزوج رسول الله ﷺ ابنته.. إن هذا شرف عظيم لم تتطاول إليه أمانيه.

أتزوج أم كلثوم بنت الرسول ﷺ من عثمان نعم فهذه خير من حفصة. وتتزوج حفصة رسول الله ﷺ فهذا خير من عثمان.

ونهض عمر إلى الرسول ﷺ يصافحه مهلاً وقد زال عنه ما كان يجد من مهانة الرفض.

وخرج مسرعاً يزف إلى ابنته وإلى أبي بكر وعثمان والمدينة كلها بشري الخطبة المباركة.

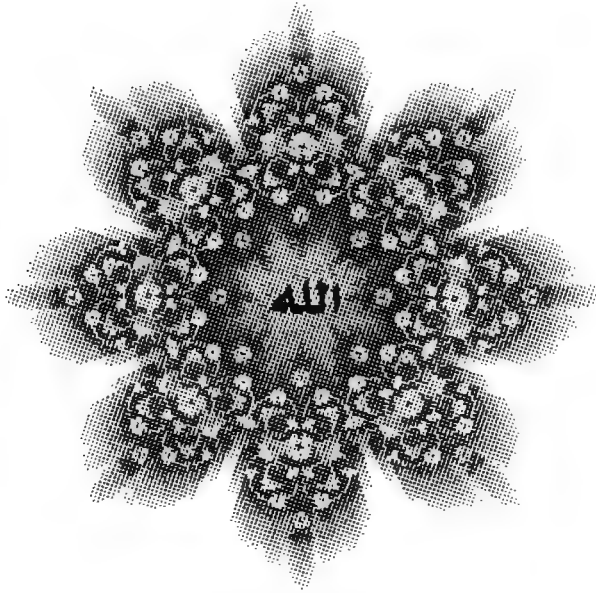
وكان أبو بكر أول من لقيه بعد خروجه من عند الرسول ﷺ فما نظر إليه حتى أدرك على الفور سر تهله وفرحته فمد يده مهنتاً معتذراً بقوله:

لاتجد على ياعمر. فإن رسول الله ﷺ ذكر حفصة. فلم أكن لأفشى سر
رسول الله..؟

ولو تركها لتزوجتها..

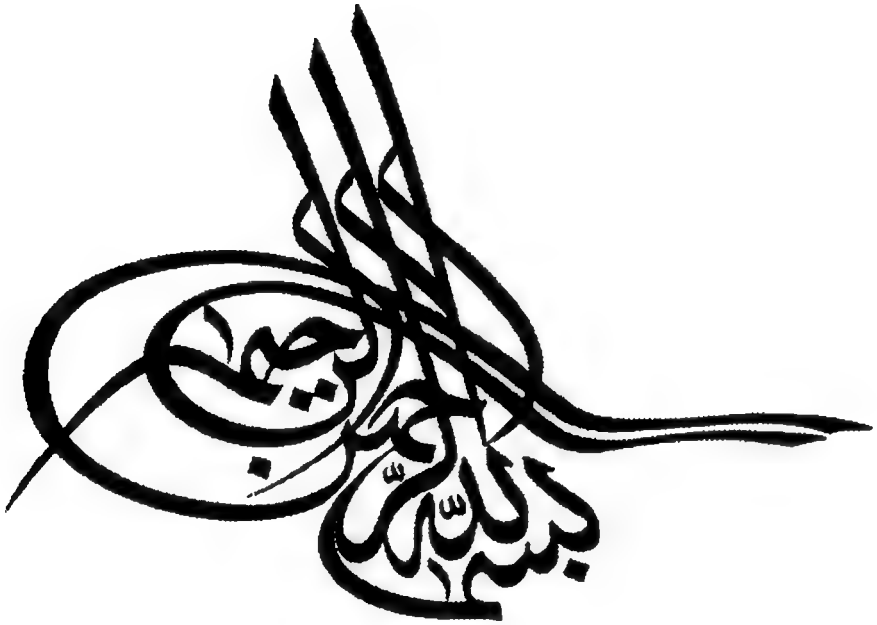
ونتساءل هل يفعل أولياء أمور الفتيات في عالمنا هذا ما فعل أجدادهم
بالأمس..؟

لو تم ذلك لحلت الكثير من المشكلات.. وما عرف المجتمع جيل
العوانس. ولادت كل فتاة منهن دورها في الحياة من إسعاد زوجها، ورعاية
أطفالها. وطهارة المجتمع. فهل نحن فاعلون..؟ نرجو من الله التوفيق
والسداد.



امراة لوط

عليه السلام



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا
أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ
يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ
كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ
مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الْمُجْرِمِينَ﴾.

(الأعراف: ٨٢ - ٨٤)

أقوال العلماء والمفسرين فى نزول هذه الآية

- قال رجال التفسير نزلت هذه الآيات فى: قوم لوط وامراته.
قال ذلك الإمام القرطبى فى تفسيره (٧ ص ٢٤٦).
وقاله ابن كثير فى التفسير (٢ ص ٢٣٠ - ٢٣١).
وقاله صاحب الدر المنثور (٣ ص ١٠٠ - ١٠١).
وقاله الفخر الرازى فى التفسير الكبير (٧ ص ١٧٦).
فمن تكون امرأته..؟

امراة لوط عليه السلام

حياتها ونشأتها ودعوتها للفجور

يقف كتاب السنة موقفاً عدائياً منها فلا يذكرونها من قريب أو بعيد .

فمن هي؟ وما اسمها؟ وأين عاشت؟ ومتى اقترنت بزوجها عليه السلام؟ أكان ذلك قبل الرسالة أم بعدها؟ كل هذه الأسئلة تبقى حائرة بالنسبة لزوج لوط عليه السلام .

أما هو فيسمى لوط بن هاران بن تارح ابن أخى إبراهيم عليه السلام . ويبدأ التاريخ فى تسجيل أعماله، ويعطى صورة واضحة عنه- عندما شخص من أرض بابل مع عمه إبراهيم مؤمناً به متبعاً له على دينه، مهاجراً معه إلى الشام ومعهما سارة بنت ناحور.

ولم يطل المقام بهما فى أرض الشام فرحلوا إلى مصر، وكان ملكها فى ذلك الوقت سنان بن عازان. ثم تفرقت بهم السبل. فنزل إبراهيم عليه السلام أرض فلسطين.

ونزل لوط الأردن، فبعث الله إلى أرض سدوم وما يليها، وكانوا أهل كفر وفواحش، ولقد عبر القرآن الكريم عن حالتهم هذه بقوله: ﴿تَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (١).

(١) سورة الأعراف الآيتان: ٨٠، ٨١.

قال عمرو بن دينار: ما كان يُرى ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط عليهم السلام. وقال تعالى: ﴿أَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ﴾^(١). يأتون الرجال: وهي فاحشة شاذة قدرة تدل على انحراف الفطرة وفسادها من أعماقها، فالفطرة قد تقسد بتجاوز حد الاعتدال والطهارة مع المرأة، فتكون هذه جريمة فاحشة، ولكنها داخلية في نطاق الفطرة ومنطقها، فأما ذلك الشذوذ الآخر فهو انخلاع من فطرة الأحياء جميعاً.

ويقطعون السبيل: فينهبون المال، ويروعون المارة، ويعتدون على الرجال بالفاحشة كرهاً. ويأتون في ناديهم المنكر، ويأتونه جهاراً وفي شكل جماعي متفق عليه لا يخجل بعضهم من بعض.

روى أبو صالح عن أم هانئ قالت: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقال: «كانوا يجلسون على الطريق فيحذفون من مر بهم، ويسخرون به، وهو المنكر الذي كانوا يأتونه».

وكان لوط ينهاهم عن ذلك ويدعوهم بالتوبة منه ويخوفهم من العذاب الأليم فلا يزرهم عن ذلك وعده، ولا يزيدهم إلا تمادياً واستعجالاً بعذاب الله تعالى. ولذا قالوا: ﴿فَأْتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾^(٢).

حتى سأل لوط ربه أن ينصره عليهم فقال: ﴿رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٣) فاستجاب الله تعالى لعبده لوط وأرسل الملائكة لإهلاكهم، فأقبلوا مشاة في صورة شباب مرد حسان حتى نزلوا على إبراهيم عليه السلام فاستضافهم فلما فرغوا من ذلك أخبروا إبراهيم عليه السلام أن الله بعثهم لإهلاك قوم لوط فحاجهم إبراهيم في ذلك.. قال الله تعالى:

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشَرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾^(٤).

ما نوع الجدل الذي استعمله إبراهيم عليه السلام؟ ولماذا الجدل وهو يعلم من

(٢) سورة الأعراف الآية: ٧٠.

(١) سورة العنكبوت الآية: ٢٩.

(٤) سورة هود الآية: ٧٤.

(٣) سورة العنكبوت الآية: ٣٠.

هم قوم لوط؟ أخاف على المؤمنين في هذه القرية؟ إن بعض الروايات التاريخية تؤكد ذلك بقوله للملائكة:

أتهلكون قرية فيها أربعمائة مؤمن؟

قالوا: لا.

قال: أفتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن؟

قالوا: لا.

قالوا: أفتهلكون قرية فيها مائتا مؤمن؟

قالوا: لا.

قال: أفتهلكون قرية فيها أربعون مؤمناً؟ قالوا: لا.

عندها نزل قول الله تعالى ينهى إبراهيم عن الجدل بقوله: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ (١).

ثم مضت رسل الله نحو سدوم فلما انتهوا إليها لقوا لوطاً عليه السلام في أرض له يعمل فيها، فأتوه فقالوا: إننا ضيوفك الليلة. فانطلق بهم وسار بهم ساعة ثم التفت إليهم قائلاً: أو ما بلفكم أمر هذه القرية؟ قالوا: وما أمرها؟ قال: أشهد بالله أنها لشر قرية في الأرض، وما أعلم أناساً أخبث منهم. فدخلوا معه منزله، وعلم لوط أنه سيحتاج إلى المدافعة عن أضيافه. وخاف عليهم من قومه فلذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَ بِهِمْ وَبِأَقْ بِيهِمْ ذُرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ (٢).

قال السدي بإسناده: «ثم خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط فأتوها نصف النهار، فلما بلغوا مدينة سدوم لقوا بنت لوط عليه السلام تستسقى الماء لأهلها. وكان له ابنتان اسم الكبرى ريثا والأخرى غيثاً. فقالوا

(١) سورة هود الآية: ٧٦.

(٢) سورة هود الآية: ٧٧.

لها: يا جارية هل من منزل؟ قالت: نعم مكانكم لا تدخلوا حتى آتيكم، لأنها خافت عليهم من قومها، ثم أتت أباها فقالت: يا أبتاه فتيناً على باب المدينة ما رأيت وجوه قوم قط أحسن منهم لئلا يأخذهم قومك فيفضحوك. وقد كان قومه نهوه أن يضيف رجالاً وقالوا له خل عنك ضيافة الرجال فلذلك قوله تعالى: ﴿أولم ننهك عن العالمين﴾.

فجاء لوط إلى منزله ما يعلم بهم أحد إلا أهل بيت لوط، وعندها تظهر امرأته مرة أخرى على مجرى الأحداث.

لقد سمعت هذا المرأة ما دار بين لوط وابنته، وأحسست أن هؤلاء الأضياف صيد ثمين لقومها. وعندما شاهدتهم، ورأت نضارة وجوههم، وجمال صورتهم، أسرع إلى قومها كعادتها تدعوهم إلى فعل الفاحشة في هؤلاء الأضياف.

إنها المرأة السيئة، التي تنفر من نصائح زوجها الذي يأتيه الوحي من السماء وتقف ضد كل ما يدعو إليه، وتهدأ نفساً وتقر عيناً، عندما ترى هذه الأفعال القبيحة، والفطرة المقلوبة، عند أهلها وذويها.

قال أبو حمزة الثمالي: بلغنا أن الإشارة التي كانت بين امرأة لوط وقومها إذا حضرت إليها الضيفان أن ترسل رسولها إلى قومها فيقول: هيتوا لنا ملحاً تدعوهم بذلك إلى الفاحشة بأضياف لوط. قالوا: فلما أخبرت امرأة لوط قومها بأضياف زوجها جاءه قومه يسرعون ويهرولون فلما رأهم، وشاهد ما فيهم من سعار، وشهوات متأججة قال: ﴿يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ (١).

فردوا عليه قائلين كما أخبر القرآن الكريم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ (٢).

(٢) سورة هود الآية: ٧٨.

(٣) سورة هود الآية: ٧٩.

قال مجاهد وسعيد بن جبير: المراد نساء أمته. قال الفخر الرازي: ويدل عليه وجوه:

الأول: أن إقدام الإنسان على عرض بناته على الأوباش والفضجار أمر مستبعد لا يليق بأهل المرأة فكيف بأكابر الأنبياء؟

الثاني: وهو أنه قال: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ فبناته اللواتي من صلبه لا تكفى للجمع الأكبر، أما نساء أمته ففيهن كفاية لكل.

الثالثة: أنه عليه السلام ما دعا القوم إلى الزنا بالنسوان بل المراد أنه دعاهم إلى التزوج بهن بشرط أن يقدموا الإيمان.

وقال: إنه كان يجوز تزويج المؤمنة من الكافر في شريعته، وهذا كان في أول الإسلام بدليل أنه عليه السلام زوج ابنته زينب من أبي العاص بن الربيع وكان مشركاً وزوج ابنته من عتبة بن أبي لهب ثم نسخ ذلك^(١) بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾^(٢).

فلما رأت الملائكة ما لقى لوط من الكرب والتعب بسببهم قالوا له: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَمْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾^(٣).

لقد خرجوا من تلك القرية وتركوا أموالهم فنهوا أن يتعلقوا بشيء منها وعدم الالتفات إليها.

﴿إِلَّا أَمْرَاتُكَ﴾ فهل خرجت هي معهم، ولم تعلم بالنهي عن الالتفات؟ أم أن النهي كان عاماً؟ ولكن هذه المرأة ما كادت تسمع العذاب النازل على قومها حتى قامت بالالتفات؟

يقول الإمام القرطبي عند تفسيره لهذه الآية: لقد التفتت وقالت: واقوماء فأدرکہا حجر فقتلها. وصدق ربى فى قوله: ﴿إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾.

(٢) سورة البقرة الآية: ٢٢١.

(١) راجع التفسير الكبير (٩: ٢٤).

(٣) سورة هود الآية: ٨١.

ثم ماذا؟ قال تعالى: ﴿جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مُنْضُودٍ
(٨٢) مُسَوِّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ (١).

ولقد صدق قول الشاعر في قوله:

راحوا فما بكت الدنيا لفرقتهم ولا تعطلت الأعياد والجمع

وروى أن النبي ﷺ قال لجبريل عليه السلام إن الله تعالى قال عنك: ﴿ذِي قُوَّةٍ
عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ (٢٠) مُطَاعٌ ثُمَّ آمِينَ﴾ (٢).

فأخبرني عن قوتك؟

قال: يا محمد رفعت قرى قوم لوط من تخوم الأرض على جناحي في
الهواء حتى سمعت ملائكة السماء أصواتهم، وأصوات الديكة ثم قلبتها ظهراً
لبطن.

قال: فأخبرني عن قوله تعالى: ﴿مُطَاعٌ﴾

قال: إن رضوان خازن الجنان، ومالكاً خازن النيران متى قلت لهما أو
كلفتهما فتح أبواب الجنان أو النيران فتحاها.

قال: فأخبرني عن قوله تعالى: ﴿آمِينَ﴾

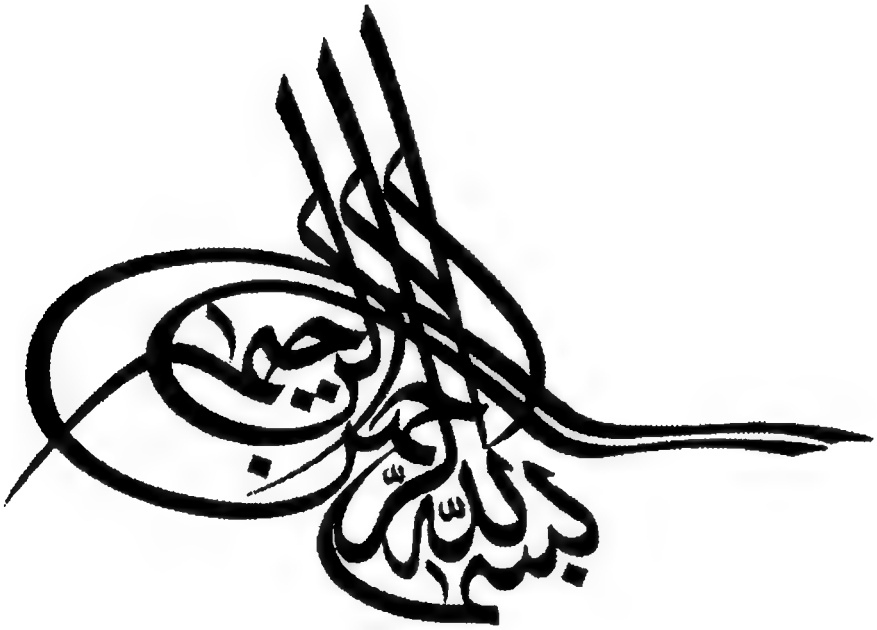
قال: إن الله تعالى أنزل من السماء مائة وأربعة كتب على أنبيائه لم
يأتهم عليها غيري.

هذا وبالله التوفيق

(١) سورة هود الآيتان: ٨٢، ٨٣.

(٢) سورة التكويد الآيتان: ٢٠، ٢١.

بالتیس بنت شراحیل



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى:

﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾

(النمل الآيات من ٢٣ - ٢٦)

أقوال العلماء والمفسرين فى نزول هذه الآية

اتفق رجال التفسير على أن هذه الآيات نزلت فى: بلقيس بنت شراحيل ملكة سبأ.

قال ذلك فخر الدين الرازى فى التفسير (١٢: ١٩٠).

وقاله صاحب الكشاف (٣: ٢٨٤).

وقاله ابن كثير فى تفسير القرآن العظيم (٣: ٣٦٠).

وقاله الشوكانى فى فتح القدير (١٣٢: ٤ - ١٣٣).

وقاله السيوطى فى الدر المنثور (١٠٥ - ٥).

فمن هى بلقيس بنت شراحيل؟..

بلقيس بنت شراحيل

إنها ملكة سبأ- عندما كانت هذه الدولة في أوج حضارتها ونهضتها- يصفها المؤرخون: بصاحبة العقل الراجح والفكر السليم، نشأت في بيت الملك والعز، وترعرعت طفولتها فوق الأرض الياضعة، وفتحت عينيها على الحقائق المليئة بالثمر الفواحة بالأريج، وقد ذكرها الله في كتابه بقوله:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَآ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جِئَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ (١).

وهذه الجنان الكبيرة، والخير الوفير الذي تنتجه هذه الأرض دفع أهلها إلى سلم الحضارة حتى تحكموا في مياه الأمطار الغزيرة التي تأتيهم عبر البحر في الجنوب والشرق، فأقاموا خزاناً طبيعياً يتألف جانباه من جبلين كبيرين وجعلوا على فم الوادي بينهما سداً محكماً تتخلله عيون تفتح وتغلق فحزنوا الماء بكميات عظيمة خلف السد، وتحكموا فيها وفق حاجتهم فكان لهم من هذا مورد مورداً مائياً عظيماً، وقد عرف هذا الحاجز في التاريخ باسم «سد مأرب» والذي جاء ذكره في القرآن الكريم قال تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ (٢).

أعرضوا عن شكر الله، وعن العمل الصالح فسلبهم الله تعالى الرخاء الكثير والخير الوفير، وأرسل عليهم السيل الجارف الذي حمل في طريقه الحجارة الثقيلة لشدة تدفقه فحطم السد الكبير فساحت المياه حتى طغت وأغرقت كل شيء.

(٢) سورة سبأ الآية: ١٦.

(١) سورة سبأ الآية: ١٥.

فى هذا النعيم المقيم، والعز الأثيل، عرفتها الحياة طفلة تملأ الحياة حولها جمالاً وبهاءً، وشابة تسير بخطوات ثابتة إلى المجد والتمتع بالحياة، حتى مات والدها، وأوشكت الحياة أن تقلب لها ظهر المجن، إذ طمع فى الملك الطامعون، وشد بريقه الرجال المتسلطين.

وكان أقواهم فى حلبة السباق عمرو ذى الأذعار الذى جمع حوله الأتباع والأنصار وجلس على العرش، وأعلن نفسه ملكاً على البلاد وحاكماً على رقاب العباد. ولكن بلقيس احتالت عليه حتى دخلت إلى مجلس منادمتة؛ فبهرتة بجمالها، وسلبت ليه بحديثها ومسامرتها، فاطمأن إليها وأسلم قياده لها عندها استلت خنجرها الذى كانت تخفيه بين جدائل شعرها، ثم ذبحته كما تذبح الشياه، ووارت جثته تحت الأمتعة والطنافس. ثم خرجت إلى حرسه فى جوف الليل قائلة لهم: «إن الملك يأمركم أن تحضروا له عليّة القوم، وملوك حمير وأبناء الملوك وفرسان القبائل ورجالات التدبير والحكم».

وعندما تكامل عددهم فى ساحة قصر غمدان خرجت عليهم وأخبرتهم أن الملك رغب فى زواجها فاستجابت له، وفى سبيل ذلك تنازلت عن الملك لملكهم لأنه أقدر على حكم البلاد، وعلى إدارة وتنفيذ سياسة الحكم فيه على أن يكون لها الملك من بعده، ثم قالت وقد أمرنى أن آخذ عليكم بذلك عهداً وميثاقاً. فماذا أنتم قائلون؟ قالوا: سمعاً وطاعة للملك فيما دبر وأراد.

وما هى إلا أياماً قليلة حتى أعلنت وفاة الملك وأنها الوريثة الشرعية للملك بالعهد والميثاق السابقين.

وأخذت فى تجميع الجيوش وحشد الكتائب ثم توجهت إلى أرض بابل فأخضعتها لحكمها وأسلمت قيادتها لبعض رجالها، ثم ساحت فى الأرض الوعرة والجبال المرتفعة حتى بلغت أرض نهاوند تلك المدينة العظيمة وتخطتها إلى بلاد الديلم- ثم عادت مرة أخرى إلى أرض اليمن.

وسارت بها الحياة رخاء لا هم لها إلا تدبير سياسة البلاد والتحكم فى رقاب العباد، حتى شاء الله تعالى أن يرسل رسوله سليمان بن داود عليهما السلام برسالة التوحيد، وعبادة الواحد الأحد الفرد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥) وَوَرَّثَ سُلَيْمَانَ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنَطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩)﴾

هذه الآيات تبرز قيمة العلم، والإشارة إليه والعلم كله هبة من الله تعالى وبأن اللائق بكل ذى علم أن يعرف مصدره وأن يتوجه به إلى الله، وألا يصرفه هذا العلم عن الابتعاد عن الله تعالى.

ولقد انتهت البشرية اليوم إلى مرحلة جيدة من مراحل العلم بتحطيم الذرة واستخدامها ولكن ماذا جنت البشرية اليوم من مثل هذا العلم الذى لا يذكر أصحابه الله ولا يخشونه ولا يتوجهون بالحمد له؟ إنها لم تكن غير الضحايا فى قنبلتى «هيروشيا و نجازاكى» والخوف والقلق الذى يؤرق جفون الشرق والغرب ويهددهما بالتحطيم والدمار والقضاء.

نقول: سارت الحياة بالملكة بلقيس رخاء، فدولتها كبيرة، وخيراتها وفيرة وشعبها مطيع حتى كان يوم ليس كمثله يوم وجدت رسالة على عرشها وما كادت تفرض غلافها حتى قرأت ما فيها فهلعت وأسرعت إلى مستشاريها لتعلمهم بما حدث لها قائلة:

(١) سورة النمل الآيات: ١٥ - ١٩.

﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ (١).

ثم تابعت حديثها قائلة: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُون﴾ (٢).

وعلى عادة رجال الحاشية أبدوا استعدادهم للعمل ولكنهم فوضوا للملكة الرأي واتخاذ القرار: ﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلَا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسْرِ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ (٣).

وهنا تظهر شخصية المرأة من وراء شخصية الملكة، المرأة التي تكره الحرب والتدمير والتي تبرز سلاح الحيلة والملاينة قبل أن تبرز سلاح القوة والمقاتلة.

قالت بلقيس: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (٤).

إنها تعرف أن من طبيعة الملوك إذا دخلوا إلى البلاد فاتحين أشاعوا فيها الإفساد وأباحوا ذمارها، وانتهكوا حرمتها، وحطموا القوة المدافعة عنها، وعلى رأسها حكامها وجعلوهم أذلة لأنهم عنصر المقاومة فيها. فماذا تفعل؟

عليها أن تلجأ إلى السياسة قبل الحرب وأن ترسل لسليمان هدية تصانعه بها وتستنزله مودته بسببها، وتصرف مطامعه عنها. هكذا كانت تحادث نفسها، وتدير الأمور في عقلها واستقرت أخيراً على هذا الرأي وحين تم إعداد الهدية طلبت من رسلها أن يقفوا على أحوال الملك ليعودوا إليها بتقرير واف عن حقيقته، ومدى قوته في مملكته، ولقد انصاعوا لأوامرها وانطلقوا نحو بلاد سليمان ﷺ.

(٢) سورة النمل الآية: ٣٢.

(١) سورة النمل الآيات: ٢٩ - ٣١.

(٤) سورة النمل الآية: ٣٤.

(٣) سورة النمل الآية: ٣٣.

إن بلقيس بهذا العمل نراها تتصرف بكامل الحكمة والذكاء، فهي بحاجة لأن تعرف عن هذا الملك الذى يتهددها على غير جريرة ويطلب حضورها خاضعة بلا تردد، وما هى العواقب فيما لو قبلت أو رفضت، إنها بحاجة لأن تكون على رأس قرارها، حتى إذا فعلت أمراً فعلته بعد تدبير العواقب وحساب الاحتمالات.

وسارت القافلة إلى سليمان حتى وصلت إليه، ووضعت الهدايا بين يديه، وإذا سليمان ينكر عليهم اتجاههم إلى شرائه بالمال أو تحويله عن دعوتهم إلى الإسلام ويعلن فى قوة وإصرار تهديده ووعيده الأخير.

﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانُ قَالَ أَتُمَدُّونَ بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (١).

وفى الرد احتقار للمال واستنكار للاتجاه إليه فى مجال غير مجاله، مجال العبادة لله وحده لا شريك له ﴿أَتُمَدُّونَ بِمَالٍ﴾ أقدمون لى هذه الزينة الفانية وتريدون منى أن استبدلها بالقيمة الباقية ﴿فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ﴾.

لقد آتانى من المال خيراً مما لديكم، ولقد آتانى ما هو خير من المال على الإطلاق العلم والنبوة، وتسخير الجن والطير، فما عاد شىء من عرض الأرض يفرحنى بل أنتم بهديتكم تفرحون، وتقبلون على هذا النوع من الزينة الرخيصة التى تعنى هؤلاء الذين يتكالبون على متاع الدنيا الذى وصفه الله تعالى بقوله: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ (٢).

ثم يتبع سليمان ﷺ هذا الاستنكار بالتهديد «ارجع إليهم» بالهدية وانتظروا المصير المرهوب ﴿فَلَنَأْتِيَهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا﴾ (٣)

جنود لم تسخر لبشر من البشر فى أى مكان، ولا طاقة للملكة وقومها

(١) سورة النمل الآيتان: ٣٦، ٣٧.

(٢) سورة النمل آية: ٣٧.

(٣) سورة النساء الآية: ٧٧.

بهم في قتال، ثم ماذا؟ نخرجهم منها أذلاء مقهورين مدحورين. نفعل ذلك لرفضهم عبادة الله تعالى واستبدالها بعبادة الشمس والقمر والله تعالى يقول:

﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (١).

وعادت القافلة إلى الملكة تجر أذيال الخيبة والفشل عندها علمت بلقيس أن الذي أمامها ليس ملكاً من الملوك ممن يرغبون في الجاه والمال ويلهثون خلف متاع الدنيا الخلاب. ولكنه نبي من الأنبياء يحمل رسالة من ربه ليبلغها إلى خلقه إنها رسالة التوحيد قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾.

إنها رسالة السلام والأمان، رسالة الهداية للتوجه إلى خالق الأرض والسماء. إنه الإسلام.

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ (٢)

عندها قررت بلقيس السعى إليه، والوقوف بين يديه وسارت بجيشها وحاشيتها ورجال دولتها تقطع الفيافي والقفار حتى وصلت إليه عندها: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣).

لقد اهتدى قلبها واستتار واتجهت إلى خالقها بالعبادة الخالصة وعرفت أن الإسلام ليس استسلاماً لأحد من خلق الله - ولو كان نبياً من الأنبياء أو ملكاً من الملائكة وإنما الإسلام إسلام لله رب العالمين ومصاحبة للمؤمنين به والداعين إلى طريقه على سنة المساواة ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤).

ولقد سجل القرآن الكريم هذه اللفتة وأبرزها للكشف عن طبيعة الإيمان بالله والإسلام له، فهي العزة التي ترفع المغلوبين إلى صفوف الغالبين، بل التي

(١) سورة فصلت الآية: ٣٧. (٢) سورة آل عمران الآية: ١٩.

(٣، ٤) سورة النمل الآية: ٤٤.

تجمل الغالب والمغلوب فى صف واحد أخوين متحابين ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(١)

لا غالب ولا مغلوب.

لا قاهر ولا مقهور.

لا ملك ولا مملوك.

وانما الكل عبيد لله رب العالمين وصدق ربي فى قوله:

﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾^(٢)

ثم ماذا؟ بعد هذه النهاية والإيمان؟

هل أقرها سليمان على ملك اليمن؟

هل تركت الملك والحكم وتحولت إلى عبادة قانتة لله تعالى؟

هل تزوجت سليمان وولدت له ولداً وأصبحت ربة بيت تهدد الطفولة

وتصنع الرجولة وتقف خلف زوجها النبى تشد من أزره حتى يبلغ رسالة ربه؟

إن كتب التاريخ تزيد فى ذلك وتقول، وتصدر الرواية تلو الأخرى ولكن

الكتاب الذى لم يأت الباطل من بين يديه ولا من خلفه لم يتعرض لذلك من قريب أو بعيد.

لهذا لم يجز لنا أن نخوض مع الخائضين فيما لم يدعمه نص من كتاب

الله تعالى وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه.

وهى مؤمنة قانتة قد أعد الله لها مثل ما أعد للمؤمنين والقانتين لا

فرق فى ذلك بين ذكر وأنثى. قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ

عَمَلَ غَائِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾^(٣).

العمل الذى يعتبره الإسلام عبادة كعبادة التفكير والتدبر والذكر

والاستغفار والخوف من الله والتوجه إليه بالرجاء مقبول من الجميع ذكرانا

(٢) سورة غافر الآية: ١٦.

(١) سورة الحجرات الآية: ١٠.

(٣) سورة آل عمران الآية: ١٩٥.

وإنائاً بلا تفرقة ناشئة من اختلاف الجنس فكلهم سواء فى الإنسانية ولهذا يقول الله تعالى:

﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ (١).

ويقول الله تعالى أيضاً:

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٢).

وهى مساوية للرجل فى الحقوق والواجبات، ولها كامل الحرية فى التصرف فى مالها.

يقول الأستاذ العقاد:

«ومعاملة الحقوق دستورها الجامع أن الرجل والمرأة سواء فى كل شىء، وأن النساء لهن ما للرجال، وعليهن ما عليهم بالمعروف ثم يمتاز الرجال بدرجة هى درجة القوامة التى تثبت بتكوين الفطرة وتجارب التاريخ وليس فى هذا الامتياز خروج على شرعية المساواة حين تقضى المساواة بين الحقوق والواجبات، والزيادة فى الحق تقابلها زيادة مثلها فى الواجب فهى المساواة العادلة بين الذكر والأنثى بين الرجل والمرأة».

(١) سورة النحل الآية: ٩٧.

(٢) سورة الأحزاب الآية: ٣٥.



الزباء وجذيمة بن الأبرش

كانت فتاة عاقلة أديبة عربية اللسان.
حسنة البيان، شديدة السلطان، كبيرة الهمة.
قال ابن الكلبي: ولم يكن في نساء عصرها أجمل منها.
وكانت تسمى فارعة. وكان لها شعر طويل إذا مشت سحبته وراءها- وإذا
نشرته- تغطى به جسمها.
فسميت الزباء لذلك.
وكان والدها مليح بن البراء ملكا على الحضر في أرض العراق، وهو
الحاجز بين الروم والفرس.
فقتله جذيمة الأبرش وطرده الزباء فلحقت بأرض الروم.
فبلغت بها همتها أن جمعت الرجال، وبذلت الأموال. ثم عادت إلى ديار
أبيها وهزمت جذيمة وطرده من أرض العراق.
ثم بنت على شاطئ نهر الفرات مدينتين متقابلتين في شرقي الفرات
وغربيه... وجعلت بينهما نفقا تحت الفرات.
فكانت إذا هاجمتها الأعداء آوت إليه وتحصنت.
وكانت هذه الفتاة الجميلة قد اعتزلت الرجال فهي عذراء بتول.
وتمت هدنة بينها وبين جذيمة بعد الحرب التي خاضتها معه وألحقت به
هزائم متتابعة حتى آخر جثة من أرض العراق.

عندها حدثت جذيمة نفسها بخطبة الزياء.

فجمع خاصته وشاورهم في ذلك. فسكت القوم وتكلم رجل يدعى قُصَيْر- وكان ابن عمه- وكان عاقلاً لبيباً، وكان خازن أسرارهم، وصاحب مشورته وعميد دولته فقال:

أيها الملك: إن الزياء امرأة حرمت على نفسها الرجال فهي عذراء، ولا ترغب في مال ولا جاه ولها عندك ثأر أبيها- والدم لا ينام، وإنما هي تاركتك رهبة وحذراً.

والحق دفين في سويداء القلب له اختباء كاختباء النار في الحجر.. ٩٩

إن قدحته أوري بالنار وإن تركته توارى حتى يظهر.

وللملك في بنات الملوك الجميلات متسع، ولهن فيه منتفع.

ولقد رفع الله قدرك عن الطمع فيمن هو دونك. وعظم الرب شأنك فما أحد فوقك..

ثم تكلم وزراؤه وكل واحد منهم أيده فيما رغبت فيه نفسه. وإن في تلك المصاهرة مصلحة للدولة.

ولكن قصير تابع حديثه بعد أن تكلم الوزراء وختمه بقوله:

أيها الملك هذه خديعة ومكر. أعاذك الله منهما.

فقال جذيمة: يا قصير الرأي ما رأيته وقتله صحيح.

ولكن النفس تواق، وإلى ما تحب وتهوى مشتاقة.

ولكل امرئ قدر لا مفر منه ولا وزر.

ثم وجه جذيمة قصير إلى الزياء خاطباً وقال له:

اذكر لها ما ترغبها في وتصبو إليه.

فجاء رسول جذيمة إلى الزياء خاطباً له. فلما سمعت كلامه، وعرفت

مراده قالت: أنعم بك عيناً. وبما جئت به.

ثم أظهرت له السرور والرغبة فيه وأكرمت مقدمه، ورفعت موضعه وقالت: قد كنت أضربت عن الزواج مخافة أن لا أجد كفواً ولكن جذيمة فوق قدرى، وأنا دون قدره.

ثم أرسلت ضحكة أنثوية وقالت: وقد أجبته إلى ما سأل ورغبت فيما قال. ولولا أن السعى فى مثل هذا الأمر بالرجال أمثل لسرت إليه ونزلت عليه. وعندها هم رسول جذيمة بالعودة.

حملته الزياء هدايا كثيرة ساقت إليه فيها العبيد والإماء والسلاح والأموال والإبل والأغنام، وغير ذلك من الجواهر والثياب. فلما رجع الرسول إلى جذيمة أعجبه ما سمع من كلامها. وأدخل السرور إلى قلبه ما حملته إليه من الهدايا والتحف.

سفر جذيمة إلى الزياء

عند ذلك قرر جذيمة السفر إلى مملكة الزياء وأخذ معه حاشيته وخاصة رجاله وفيهم قصير خازن أسرارهم، ومستشار دولته.

وأنا ب لتدبير شئون دولته عمرو بن عدى اللخمى... ابن أخت جذيمة والذي تولى الحكم بعد قتل خاله جذيمة- وكانت مدة ملكه. مائة وعشرين سنة.

وعندما وصلوا إلى شاطئ نهر الفرات نزلوا بمدينة (نيفه) فأكلوا وشربوا.

ثم طلب جذيمة من أصحابه- مرة أخرى- الرأى والمشورة- فسكت القوم وافتتح قصير الكلام فقال:

أيها الملك: لا تثق بزخرف قول لا محصول له.

ولا تقذف الرأى بالهوى فيفسد. ولا الحزم بالمنى فيبعد.

والرأى عندى للملك أن يراجع أمره بالثبوت، ويأخذ حذره بالتيقظ.
ولولا أن الأمور تجرى بالمقدور لعزمت على الملك عزمًا «قاطعاً» ألا يفعل.

فأقبل جذيمة على أصحابه وقال: ما عندكم أنتم فى هذا الأمر؟
فتكلموا بحسب ما عرفوا من رغبته فى ذلك، وصوبوا رأيه وقووا عزمه.
فقال جذيمة:

الرأى مع الجماعة والصواب ما رأيتم؟
فقال قصير: أرى القدر يسابق الحذر، فلا يطاع لقصير رأى؟
ثم سار جذيمة. فلما اقترب من ديار الزباء أرسل إليها يعلمها.
فأظهرت السرور به، والرغبة فيه.
ثم أمرت بحمل البشرى إليه.
وقالت لجندها ولخاصة أهل مملكتها ورعياتها. تلقوا سيديكم ملك دولتكم.
فعاد الرسول إليه بالجواب وأخبره بما رأى وسمع.
فلما أراد أن يسير دعا قصيراً وقال:
أنت على رأيك؟

قال نعم. وقد زادت بصيرتى فيه.
ثم تابع حديثه قائلاً لجذيمة: أفأنت على عزمك؟
قال جذيمة: نعم. وقد زادت رغبتي فيه.

قال قصير: ليس الدهر بصاحب لمن لم ينظر فى العواقب؟
ثم قال: وقد يستدرك الأمر قبل فواته. وفى يد الملك بقية هو بها مسلط
على استدراك الصواب.

قال جذيمة كيف...؟

قال قصير: فإنك إن وثقت بأنك ذو ملك وسلطان وعشيرة وأعوان فإنك قد نزعت يدك من سلطانك، وفارقت عشيرتك وأعوانك.

والقيتها في يد من لست آمن عليك مكروه وغدره. فإن كنت ولا بد فاعلاً ولهواك تابعاً فإن القوم قد يلقوك غداً جمعهم واحد، ثم قاموا لك صفين. حتى إذا توسطتهم اطبقوا عليك من كل جانب، وأحدقوا بك فقد ملكوك وصرت في قبضتهم.

وهذه الفرسة لا يسبق غبارها.

وكانت فرس جذيمة تسبق الطير وتسابق الريح ويقال لها العصا. فإذا رأيت الأمر كذلك فاعتلى ظهرها فهي ناجية بك إن ملكت ناصيتها. فسمع جذيمة كلامه ولم يرد له جواباً.

ثم ساروا. وكانت الزباء لما رجع رسول جذيمة من عندها قالت لجندها: إذا أقبل جذيمة فتلقوه بأجمعكم وقوموا له صفين عن يمينه وعن شماله، فإذا توسط جمعكم فانقضوا عليه من كل جانب حتى تحدقوا به، وإياكم أن يفلت من قبضتكم.

حتى إذا لقيه القوم قاموا له صفين - فلما توسطهم انقضوا عليه من كل جانب فعلم أنهم قد ملكوه.

وكان قصير يسايره فأقبل جذيمة عليه وقال:

«صدقت يا قصير».

فقال قصير: هذه العصا لملك تتجو بها..؟

فأنف جذيمة أن يفر، وسارت به الجيوش.

ولما رأى قصير أن جذيمة قد استسلم للأمر، وأيقن بالقتل، جمع نفسه

ووثب على ظهر العصا، وزجرها فذهبت تهوى به هوى الريح، وترك جذيمة لمصيره.

ثم دخل جذيمة على الزباء ولم يكن معه في قصرها إلا جواربها وهي جالسة على سريرها وحولها ألف وصيفة.. وهي بينهن كأنها قمر قد حفت به النجوم.

ثم أمرت الزباء به فأجلس موثقاً بالحبال ثم قالت لوصيفاتها:

«خذن بيد سيدكن وزوج مولاتكن. ٩٩»

فأخذن بيده وأجلسنه على آلة القتل بحيث تراه ويراه، وتسمع كلامه ويسمع كلامها.

ثم أمرت الجوارى فقطعن شراينه وجعلت الدماء تتساقط في إناء وضع تحته.

فقطرت بعض قطرات الدماء خارج الإناء.

فقالت لجواربها لا تضيعوا دم الملك.. ٩٩»

فقال جذيمة: لا يحزنك دم ضيعه صاحبه.

قالت الزباء: والله ما وفي دمك ولا شفى قتلك. ولكنه غيض من فيض.

فلما مات أمرت به فدفن.

عمرو بن عدى والقصير

وأما عمرو فكان يخرج كل يوم إلى ظهر الحيرة يطلب الخبر عن خاله جذيمة.
فخرج ذات يوم فإذا فارس قد أقبل تهوى به الفرس هوى الريح.
فقال عمرو: أما الفرس ففرس جذيمة. وأما الراكب فلا يبين؟
ولما وقف قصير بين يديه قال عمرو:

ما وراءك يا قصير؟

قال: سعى القدر بالملك إلى حتفه على الرغم من أنفى وأنفه؟
ثم قال: يا عمرو اطلب بئارك من الزياء.

قال عمرو: وأنى يطلب من الزياء وهى أمتع من عقاب الجوى؟
قال قصير: قد علمت نصحى لخالك وكان الأجل طالبه.

وصدق ربى فى قوله:

﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾^(١).

ثم تابع قصير حديثه قائلاً:

وأنا والله لا أنام عن الطلب بدمه ما لاح نجم أو طلعت شمس أو أدرك
به ثأراً.

ثم طلب من عمرو: أن يجدع أنفه، ويقطع أذنيه، ويجلد ظهره حتى يؤثر
فيه. ولكن عمراً رفض أن يفعل به ذلك.

عندها جدع قصير أنفه.

ولحق بالزياء هارباً من عمرو بن عدى.

(١) سورة الأعراف آية رقم: ٢٤.

الزباء والقصير..

سار القصير حتى وصل إلى قصر الزباء فقالوا لها:

هذا قصير ابن عم جذيمة وخازنه وصاحب أمره قد أتاك هارباً.

فأذنت الزباء له وقالت:

ما الذى جاء بك إلينا يا قصير؟

وبيننا وبينك دم عظيم؟

قال قصير: يا ابنة الملوك العظام لقد أتيت فيما يأتى فيه مثلى إلى

مثلك.

ولقد كان دم أبيك المطلوب يطلب جذيمة حتى أدركه.

وقد جثتك مستجيراً من عمرو بن عدى فإنه اتهمنى بخاله لمشورتى عليه

فى المسير إليك.

فجذع أنفى، وأخذ مالى وجلد ظهرى، وقطع أذنى، وحال بينى وبين

أهلى، وتهددنى بالقتل.

وانى خشيت على نفسى فهريت منه إليك وأنا مستجير بك.

فقال له: أهلاً وسهلاً لك حق الجوار وذمة المستجير. وأمرت به فأُنزل.

ثم أجرت له النفقات وزادت فى إكرامه.

فاقام مدة لا يكلمها ولا تكلمه، وهو يطلب الحيل وموضع الفرصة منها.

وكانت ممتعة فى قصر مشيد فلا يقدر أحد عليها.

فقال لها قصير يوماً:

أيتها الملكة: إن لى فى العراق مالاً كثيراً ودخائر نفيسة مما يصلح

للملوك. فإذا أذنتنى فى الخروج إلى العراق وأعطينتنى شيئاً أتعلل به فى

التجارة وأجعله سبباً إلى الوصول إلى مالى أتيك بما قدرت عليه من ذلك.

فاذنت له وأعطته مالا فقدم به إلى العراق. وأخذ مالا كثيراً ثم رجع إلى الزباء.
وقد جمع من طرائف العراق ولطائفها الشيء الكثير.
فلما قدم عليها أعجبها ذلك وأبهجها، وعظمت منزلته عندها.
ثم عاد إلى العراق ثانية وقدم ومعه أكثر مما كان في المرة الأولى.
وزادها أضعافاً من الجواهر واللآلئ والبز والقرز والديباج.
فازدادت مكانته عندها. وعظمت منزلته عندها ورغبتها فيه.
ولم يزل قصير يتألف في الحيلة حتى عرف موضع النفق الذي تحت
نهر الفرات والطريق إليه.
ثم خرج ثالثة. فقدم بأكثر من المرتين الأوليين.
عندها اطمأنت الزباء إليه، واسترسلت في الحديث معه.
وعولت في الكثير من أمورهما عليه.
وكان قصير: رجلاً حسن العقل والوجه أديباً لبيباً.
فقالت له يوماً:
إنى أريد أن أغزو مدينة كذا من أرض الشام. فأخرج إلى العراق وأتتني
بكذا وكذا من الدروع والعبيد والشباب.
قال قصير: لى ببلاد عمرو بن عدى ألف بعير، وخزانة من المال، وخزانة
من السلاح فيها كذا وكذا.
وما لعمرو بها من علم. ولو علم بها لأخذها واستعان بها على حرب الملكة.
وقد كنت انتظر موته.
والآن أستطيع أن أخرج متكرراً - من حيث لا يعلم - فأتى الملكة بذلك مع
الذي سألت فأعطته من المال ما أراد وقالت:
يا قصير: الملك يحسن بمثلك، وعلى يد مثلك يصلح أمره.

وقد بلغنى أن جذيمة كان إيرادها وإصداره إليك، ما أقصر بك عن شيء تتاله يدي، ولا يقعد حال تنهض بي.

ولما عرف قصير مكانه منها وتمكنه من قلبها قال:

«الآن طاب الخداع، وخرج من عندها فأتى عمرو بن عدى فقال: لقد أصبت الفرصة من الزياء.

قال عمرو: قل أسمع، ومر أقبل، فأنت طبيب هذه القرحة.
قال الرجال والأموال.

قال عمرو: حكمتك فيما عندي نافذ...؟

فعمد قصير إلى رجال من فتاك قومه وصناديد أهل مملكته فحملهم على ألف بعير في الفرائر السود بالأسلحة وجعل ربطها من داخل الجوالق.

وكان عمرو بن عدى من هؤلاء الرجال.

وساق قصير الخيل والكراع والسلاح والإبل محملة.

فكانوا يسيرون بالليل ويكمنون بالنهار.

فلما دخل قصير على الزياء وكان قد تقدم على العير فقال لها: قفى وانظري إلى العير.

فصعدت على سطح قصرها وجعلت تنظر إلى العير مثقلة بحمل
الفرسان فقالت يا قصير:

ما للجمال مشيها وثيدا

اجندلاً يعملن أم حسيدا

أم صرفاناً بارداً شديدا

أم الرجال جثماً قعوداً..؟

ثم دخلت العير المدينة. وكان عمرو على فرسه فدخل الحصن عقب الإبل وحل الرجال من الجوالق فظهروا فى المدينة.

ووقف عمرو على باب النفق ينتظر الزياء والتى كانت تلجأ إليه كلما حل خطر بالمدينة.

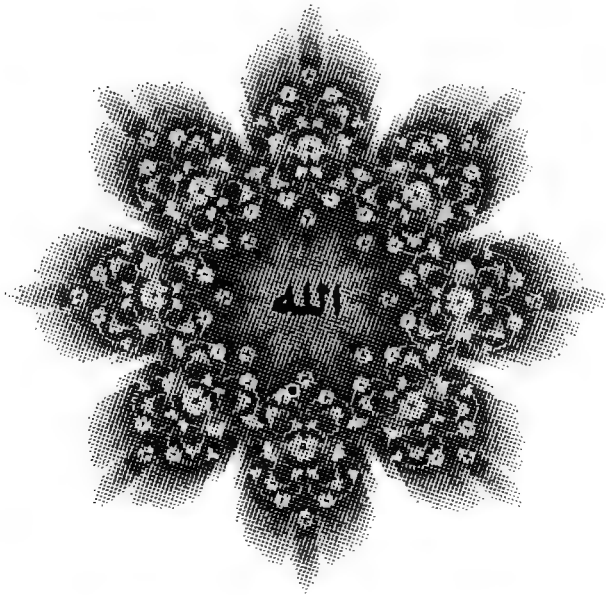
فرأت عمرو واقفاً على بابه.

فعرفت أنها النهاية.

فاقدمت على خاتم كان فى يدها مسموماً وأخذت فى مصه.

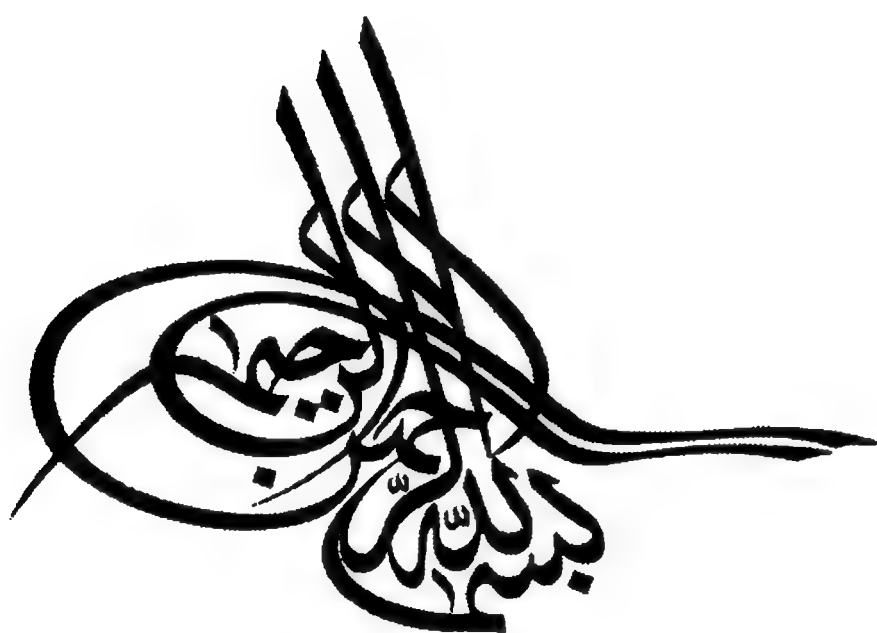
وقالت قبل أن تسقط جثة هامدة من تأثير السم بيدى لا بيد عمرو. ثم ماتت.

عندها استولى عمرو على بلادها وتم جمع الشمل.



مريم البتول

رضى الله عنها



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾.

(آل عمران: ٤٢ - ٤٣)

أقوال العلماء والمفسرين في نزول هذه الآية

قال كثير من رجال التفسير والحديث نزلت هذه الآية في مريم ابنة عمران عليها السلام.

قال ذلك الإمام القرطبي ٢: ٨٢، ٨٣، ٨٤ ط دار الكتاب العربي.

وقاله الإمام ابن كثير في تفسيره ١: ٣٧٠ - ٣٧١ ط دار المعرفة بيروت.

وقاله ابن جرير الطبري في التفسير ٦: ٤٠١ - ٤٠٢ ط المعارف مصر.

وقاله ابن الجوزي في زاد المسير في علم التفسير ١: ٢٨٧ - ٢٨٨ ط الكتب الإسلامية: بيروت الحازمية.

فمن هي مريم ابنة عمران؟

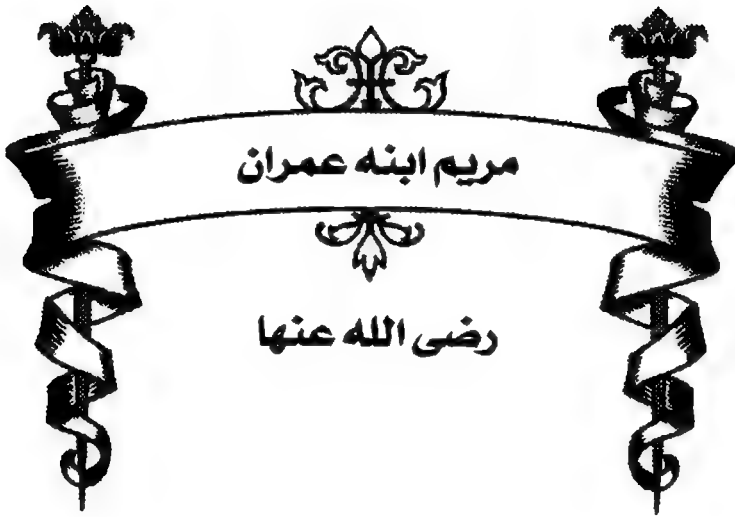


قال الرسول ﷺ:

«ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسّه حين يولد فيستهل صارخاً من
مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها» ثم يقول أبو هريرة أقرأوا إن شئتم «وإني
أعيزها بك وذريتها من الشيطان الرجيم»

رواه البخاري في التفسير

٨: ٢١٢ رقم ٤٥٤٨





حياتها ونشأتها

عمران من الصفوة المختارة التي قال الله تعالى عنهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (١).

قال الزجاج: الاصطفاء: الاختيار على عالمي زمانهم.

وفي البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: آل إبراهيم وآل عمران المؤمنون من آل إبراهيم وآل عمران وآل محمد يقول الله تعالى:

﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢).

وأن محمداً ﷺ من آل إبراهيم.

وقيل آل عمران آل إبراهيم لقوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٣).

وقيل عمران أبو مریم وهو من ولد سليمان عليه السلام.

وامراته حنة.

وقوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ﴾

يعني التناصر في الدين كما قال ﴿الْمُتَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ﴾ (٤)

يعني في الضلالة.

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٦٨.

(١) سورة آل عمران آية ٣٣.

(٤) سورة التوبة آية ٦٨.

(٣) سورة آل عمران آية رقم ٣٤.

ومعنى التناصر في الدين والتوافق فيه أن جميع الأنبياء كانت دعوتهم إلى التوحيد.

وقالوا جميعاً لقومهم ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ (١)

وقوله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (٢).

وكل الرسل والأنبياء جاءوا بعقيدة الإسلام من ذلك إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يقولان ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ (٣) وعيسى عليه السلام يقول له الحواريون ﴿وَأَشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (٤)

ويوسف عليه السلام يقول: ﴿أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (٥)

وكذا بقية الأنبياء والمرسلين. ولقد كان عمران بن يصر بن فاهات وزوجته حنة، وهم في صلاتهم وصيامهم، يرجون الرحمة والمغفرة من ربهم.

ولكن حنة كان يشغلها أمر ذى بال، ويراد خيالها ليل نهار، ولكنها لا تفصح عنه، ولا تذكره لقريب أو بعيد، حتى كان يوم وهى تجلس في حديقة منزلها تحت إحدى شجيرات الزيتون، وقد أوشكت الشمس على الغروب سقطت زيتونة على قدمها، فرفعت نظرها إلى أغصان الشجرة، فوجدت طائراً يقف أمام عشه، ويمد منقاره المملوء بالطعام إلى فرخه الصغير وكلما تناول الفرخ شيئاً من الطعام رقص الطائر أمام العش وتمايل يمنة ويسرة فرحاً بذلك.

إنها الأمومة ذلك الشيء الطاغى الفطرى في داخل الأنثى والذكر ولا يستطيعان الخلاص من طفئانه بل يزداد الحنين إليه كلما افتقدها أو طالت السنون عليهما ولم يتحقق ذلك الأمل لهما.

(١) سورة الأعراف آية رقم ٥٨.

(٢) سورة الأنبياء آية رقم ٢٥.

(٣) سورة البقرة آية رقم ١٢٨.

(٤) سورة آل عمران آية رقم ٥٢.

(٥) سورة يوسف آية رقم ١٠١.

عندها توجهت حنة وهى مشبوبة الحنين متقدة الرغبة إلى ربها وخالقها الذى ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَآثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذَّكَوْرَ (١٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَآثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَاقِبَةً﴾ (١).

توجهت إليه تعالى أن يهبها ولداً من عنده، وينبته نباتاً حسناً لتقرب به أعينها ويؤنس وحشتها، ويكون نعمة من الله تعالى لهما، وخليفة من بعدهما فى طاعة الله ورضوانه.

ومرت الأيام وتوالت الليالى، وأحست حنة أن جنيناً فى بطنها، إذن استجاب الله دعاءها عندها قالت حنة مناجية ربها:

﴿رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّى إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٢)

إنها نذرت أن مولودها سيكون محرراً خالصاً لله تعالى فى عبادته وأداء ما عليه تجاه مسجد الله تعالى.

إنها تريد أن يكون ابنها ربانياً لله تعالى. يرشد العباد إلى خالقهم ويوجههم إلى مولاهم ويطالبهم بالفرار إليه تنفيذاً لقوله تعالى: ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ (٣).

وانقضت أيام الحمل وجاء المولود أنثى ولم يكن ولداً، وهذا مشيئة الله وقدره، فاعتذرت حنة إلى ربها قائلة:

﴿إِنِّى وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَئِىَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّى سَمِيتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّى أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرِّيَّتُهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (٤).

أى عوذتها بالله عز وجل من شر الشيطان وعوذت ذريتها كذلك.

ولذلك قال الرسول ﷺ:

«ما من مولود يولد إلا يمسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخاً من

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٣٥.

(١) سورة الشورى آية رقم: ٤٩، ٥٠.

(٤) سورة آل عمران آية رقم: ٣٦.

(٣) سورة الذاريات آية رقم: ٥٠.

مسه إياه إلا مريم وابنها»^(١).

ثم يقول أبو هريرة اقرؤا إن شئتم: «وإني أعيدنها بك وذريتها من الشيطان الرجيم».

وبعد فترة من ولادتها أخذت حنة الوليدة مريم ولفتها في قماش ومضت بها إلى الهيكل وفاء لنذرهما، وسلمتها إلى أحبار الهيكل أبناء هارون، وكان عددهم ثلاثين وقالت لهم:

«دونكم هذه النذيرة، وتنافس الأحبار عليها، لأنها ابنة الرجل الصالح عمران الذي كان يقدم القرابين في الهيكل.

وتقدم زكريا زوج أخت حنة ليقول: أنا أحق بها منكم، لأن خالتها زوجتي وهي في حكم أمها.

ولكن الجميع قالوا نلجأ إلى القرعة ومن وقعت عليه كان أحق بها.

ومضى الأحبار إلى نهر الأردن وألقوا أقلامهم التي كانوا يكتبون بها التوراة في مائه. وكما كانت دهشتهم عندما ابتلع الماء أقلامهم جميعاً، ولم يبق عائماً على صفحة الماء غير قلم زكريا، وبذلك كان لزكريا الحق في كفالة الوليدة مريم. يقول الله تعالى:

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٢).

يخبر ربنا أنه تقبلها من أمها نذيرة وأنه أنبتها نباتاً حسناً أي جعلها شكلاً جميلاً ونظراً بهيجاً ويسر لها أسباب القبول، وقرنها بالصالحين من عباده تتعلم منهم العلم والخير والدين.

(١) سبق تخريج هذا الحديث وأيضاً ذكره ابن جرير في تفسيره والإمام مسلم عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ.

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٢٧.

ولما كفلها زكريا أخذ لها موضعاً، فلما أسنت جعل لها محراباً لا يرتقى إليه إلا بسلم، واستأجر لها ظئراً وكان يغلق عليها باباً، وكان لا يدخل عليها إلا زكريا حتى كبرت. وكانت إذا حاضت أخرجها إلى منزله، فتكون عند خالتها امرأة زكريا، وقيل كانت أختها، فإذا طهرت واغتسلت ردها إلى المحراب. وقال بعضهم، كانت لا تحيض، وكانت مطهرة من الحيض.

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ يعني وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف.

قال زكريا: ﴿يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا﴾

قالت: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ (١).

وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ أقام أياماً لم يطعم طعاماً حتى شق ذلك عليه، فطاف على منازل أزواجه فلم يجد عند واحدة منهن شيئاً فأتى فاطمة فقال:

«يا بنية هل عندك شيء آكله فإنني جائع..»

قالت: لا والله، بأبي أنت وأمي.

فلما خرج من عندها بعثت إليها جارة لها برغيفين وقطعة لحم، فأخذته منها فوضعت في جفنة لها وقالت: والله لأوثرن بهذا رسول الله ﷺ على نفسي ومن عندي.

فبعثت حسناً وحسيناً إلى رسول الله ﷺ فرجع إليها.

فقالت: بأبي أنت وأمي قد أتى الله بشيء فخبأته لك.

قال: هلمى يا بنية.

قالت: فأتيته بالجفنة فكشفت عنها فإذا هي مملوءة خبزاً ولحماً، فلما نظرت إليها بهتت وعرفت أنها بركة من الله، فحمدت الله وصليت على نبيه،

(١) سورة آل عمران آية رقم ٣٧.

وقدمته إلى رسول الله ﷺ وقال:

«من أين لك هذا يا بنية..؟»

قالت: يا أبت ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (١).

فحمد الله وقال: «الحمد لله الذي جعلك يا بنية شبيهة بسيدة نساء بنى إسرائيل فإنها كانت إذا رزقها الله شيئاً وسئلت عنه قالت: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾».

لقد اكتملت أنوثة مريم عليها السلام، وأصبحت قادرة على الحمل والولادة. وأن تكون أمّاً لعيسى عليه السلام المقرب إلى ربه عند ذلك كان أمر الله تعالى لملائكته لتبشير مريم قال تعالى:

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٢).

إذا عيسى لم تسمه أمه مريم ولا أحد من قرابتها، وإنما سماه رب العزة سبحانه وتعالى. وهذا الولد الذي بشرت به مريم ستكون له وجاهة ومكانة عند الله في الدنيا بما يوجبه الله عليه من الشريعة وينزله عليه من الكتاب، وغير ذلك مما منحه الله به، وفي الدار الآخرة يشفع عند الله فيمن يأذن له فيه فيقبل منه أسوة بإخوانه من أولى العزم من الرسل صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

وفي يوم شديد الحرارة بطييء الزوال نفذ منها الماء فتناولت جرتها وذهبت بها إلى المغارة القريبة من المسجد الذي تقوم فيه لتملاً جرتها. وما كادت تدلف بقدمها داخل المغارة حتى كان جبريل عليه السلام قد سبقها إلى المغارة

(١) سورة آل عمران آية رقم: ٢٧.

(٢) سورة آل عمران الآيات من ٤٥ إلى ٤٧.

متمثلاً في صورة بشر سوى.

فقال لها: إن الله قد بعثني إليك لأهب لك غلاماً زكياً. إنه رجل مكتمل سوى ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾. وها هي ذى تنتفض انتفاضة العذراء المذعورة يفجؤها رجل في هذه الخلوة. فماذا تفعل وبمن تستغيث؟ فلجأت إلى الله تستعيز به وتستجده وتستثير مشاعر التقوى في نفس الرجل قالت: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَقِيًّا﴾. قال: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾.

وليتمثل الخيال مقدار الفزع والخجل وهذا الرجل السوى، الذى لم تثق بعد بأنه رسول ربها، فقد تكون حيلة فاتك يستغل طيبتها- يصارحها بما يخدش سمع الفتاة الخجول- وهو يريد أن يهب لها غلاماً، وهما في خلوة وهذه هي الهزة الثانية.

ثم تدركها شجاعة الأنثى المهددة في عرضها، فتسأل في صراحة كيف؟ قالت: ﴿أَنْتَى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ (١).

هكذا في صراحة وبالأفاظ مكشوفة، فهي والرجل في خلوة، والفرص من مباغتته قد صار مكشوفاً. فما تعرف هي بعد كيف يهب لها غلاماً؟

ولم يخفف من روع الموقف أن يقول لها: «إنما أن رسول ربك» ولا أنا مرسل لأهب لها غلاماً طاهراً غير مدنس المولد، ولا مدنس السيرة ليطمئن بالها. لا: الحياء هنا لا يجدى والصراحة أولى:

كيف؟.. وهى عذراء لم يمسسها بشر، وما هي بغى فتقبل الفعله التى تجئ منها بفلام.

قال جبريل: ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَلَنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا﴾ (٢).

فهذا الأمر الخارق الذى لا تتصور مريم وقوعه، هين على الله فأمام

(٢) سورة مريم آية رقم ٢١.

(١) سورة مريم آية رقم: ٢٠

القدرة التي تقول للشيء كن فيكون كل شيء هين سواء جرت به السنة المعهودة أو جرت بغيره. فاستسلمت لقضاء الله فتفخ في جيبها ثم انصرف عنها. وتم قدر الله، وما أمر به. وبذلك انتهى الحوار بين الروح الأمين ومريم العذراء.

﴿وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ﴾

أي دلالة وعلامة للناس على قدرة بارئهم وخالقهم الذي نوع في خلقهم، فخلق أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى.

وخلق حواء بقية الذرية من ذكر بلا أنثى وخلق باقى الناس من ذكر وأنثى. وخلق عيسى عليه السلام من أنثى بلا ذكر فتحت القسمة الرباعية الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه، فلا إله غيره، ولا رب سواه قالت مريم البتول- عليها السلام: كنت إذا خلوت حدثنى عيسى وكلمنى وهو فى بطنى.. ٩٩٠

وإذا كنت مع الناس سبّح فى بطنى وكبر.. ٩٩٠

ومرت الأيام والشهور على حملها. واختلف العلماء فى مدة الحمل اختلافًا كثيرًا، وهذا لا يدخل فى نطاق القصص القرآنى الذى قال الله تعالى فيه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ (١)

ثم ماذا بعد هذا.. ٩٩٠

كان المسجد الذى تعمل فيه مريم عند جبل صهيون، وكان يومئذ من أعظم مساجدهم، وكان معهم قريب لها يدعى يوسف النجار، وكانا يقومان سويًا بخدمة ذلك المسجد، وكان لخدمته فضل عظيم، فكان لا يعلم من أهل زمانها أحد أشد اجتهاداً وعبادة منها.

ولكن يوسف شاهد على مريم أشياء لم تظهر عليها قبل ذلك. لقد شاهد دقة جسمها، واصفرار لونها، وكلف وجهها وتواء بطنها، وضعف قوتها

(١) سورة يوسف آية رقم: ٣.

ودأب نظرها . ولم تكن مريم قبل ذلك كذلك .

أتكون حاملاً ومن أين؟ وهى لا تترك المسجد ليلاً أو نهاراً . ولكن هذه الأشياء لا تظهر إلا على الحوامل .. فإذا أراد يوسف أن يتهمها ذكر صلاحها وبرائها، وأنها لم تغب عنه ساعة قط، وإذا أراد أن يبرئها ذكر الذى ظهر عليها . فلما اشتد عليه ذلك كلمها . وكان أول كلامه إياها أن قال لها: إنه قد وقع فى نفسى من أمرك شئ حرصت على أن أميته، وأكتمه فى نفسى فغلبنى ذلك فرأيت أن الكلام فيه أشفى لصدري .

قالت: فقل قولاً جميلاً...

قال: ما كنت لأقول إلا ذلك فحدثينى:

هل ينبت زرع بغير بذر..؟

قالت: نعم .

قال: فهل تثبت شجرة من غير غيث يصيبها؟

قالت: نعم .

قال: فهل يكون ولد من غير ذكر؟

قالت: نعم . ألم تعلم أن الله تعالى أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر . والبذر إنما كان من الزرع الذى أنبته الله من غير بذر .

أو لم تعلم أن الله أنبت الشجر من غير غيث، وأنه جعل بتلك القدرة الغيث حياة للشجر بعد ما خلق كل واحد منهما وحده؟

أو تقول لم يقدر الله على أن ينبت الشجر، حتى استعان عليه بالماء ولولا ذلك لم يقدر على إنباته .

قال يوسف: لا أقول ذلك، ولكنى أعلم أن الله تعالى بقدرته على ما يشاء يقول لذلك ﴿كن فيكون﴾ .

قالت له مريم: أولم تعلم أن الله عز وجل خلق آدم وامرأته من غير ذكر ولا أنثى؟

قال: بلى.

فلما قالت له ذلك وقع في نفسه أن الذي بها شيء من الله عز وجل، وأنه لا يسعه أن يسألها عنه، وذلك لما رأى كتمانها لذلك.

ثم تولى يوسف النجار خدمة المسجد، وكفاها كل عمل كانت تعمله.

ومرت الأيام بطيئة متثاقلة على مريم حتى اقترب موعد وضعها لهذا الحمل أوحى الله إليها أن تمضي إلى حيث قدر الله لها المكان الذي تضع فيه وليدها فذهبت إلى أختها زوجة زكريا لتخبرها بحالها، وما عازمت عليه من الرحيل عن هذه البلدة. وما كادت الأخت يقع نظرها على مريم حتى اعتنقتها في شوق وحنين، لأنها ابتعدت عنها فترة. ثم جلست الأختان تتأجبان وتلقى كل أخت على مسامع أختها ما حدث لها في تلك الفترة، وما مر بها من أفراح وأحزان، ثم قالت الأخت الكبرى هل شعرت يا مريم أنى حبلى؟..

فردت عليها مريم مهنئة ومباركة لهذا الحمل متمنية لأختها أن تضع مولودها ليكون قرة عين لها ولزوجها.

ثم قالت مريم: وهل علمت أنى أنا حبلى أيضاً؟..

قالت الأخت الكبرى: نعم يا أختي شعرت بذلك.

قالت مريم: هل تكلم أحد عندك بشيء كهذا؟..

قالت الأخت: لم يحدثنى أحد بذلك. ولا يجرؤ أحد أن يخوض معى فى مثل هذه الأمور، ولكنى عندما اقتربت منك واحتضنتك شعرت أن الذى فى بطنى قد سجد للذى فى بطنك؟

ثم ودعت مريم أختها وخرجت من دارها إلى حيث أراد لها الله، فأين ذهبت هل ذهبت إلى مصر. كما قال وهب بن منبه؟ «فلما كانت بين الشام

وبلاد مصر ضربها الطلق».

أم ذهبت إلى بيت لحم؟

إن القرآن الكريم يحدثنا أنها انتبذت مكاناً شرقياً، وهذا المكان يحدده العلماء بأنه يبعد عن المجراب الذي كانت تقيّم فيه بنحو سبعة أميال. وهذا ما نستريح إليه.

﴿فَاجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِياً مَنْسِياً (٢٣) فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً (٢٤) وَهَزَى إِلَيْكِ جِذْعُ النَّخْلَةِ تُسَاقُطُ عَلَيْكَ رَطْبٌ جَنِيّاً (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرِينِ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيّاً (١)﴾.

لقد ولد عيسى ﷺ، الذي أراد الله سبحانه وتعالى أن يكون الحمل به وولادته آية للناس، كل الناس، ورحمة منه تعالى إلى عباده.

فإذا شب عن الطوق علمه الكتاب والحكمة، تعليماً من عنده، وإحاطة بشرعة خارجان عن كل أساليب التعليم والتفقيه اللذين عرفتهما البشرية في القديم والحديث، ثم يبعث رسولاً إلى بنى إسرائيل، تلك الفئة الباغية التي عاثت في الأرض فساداً حتى قتلوا الأنبياء، واستحلوا الحرمات، وحرفوا كتاب الله تعالى.

رسولاً إلى بنى إسرائيل يقدم بين يديه المعجزات التي يجريها الله سبحانه وتعالى على يديه مثل إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، وغير ذلك من المعجزات. وسرى في الكون كله صوت البشير النذير بمولد عيسى ابن مريم عليهما السلام، فأصبحت الأصنام التي كانت تعبد من دون الله بكل أرض مقلوبة، منكوسة على رؤوسها. فقزعت الشياطين من هول ذلك ولم يعرفوا سبب جعل أصنامهم - التي تعبد من دون الله - في هذا الوضع المخزي المشين.

(١) سورة مريم الآيات من ٢٣ إلى ٢٦.

عندها فروا إلى رئيسهم إبليس اللعين، وما كاد إبليس يشاهد أعوانه في جمعهم هذا حتى فزع هو الآخر، لأنه لم يرههم في جمعهم هذا منذ أن فرقهم في أركان الأرض، وإنما يراهم أشتاتاً ويقدم لهم النصائح في إغواء بني آدم.

فسألهم عن سر جمعهم وخوفهم ٩٠٠

فقالوا: لقد حدث في الأرض حدث لا ندري ما هو، ولكن آثاره قلبت الأصنام المعبودة على رؤوسها، ولم يكن شيء أعون لنا على إغواء بني آدم منهم، حيث كنا ندخل في أجوافها، فنكلمهم، وندبر أمورهم فيظنون أنها التي تكلمهم - فيعبدونها من دون الله ٩٠٠

فلما أصابها هذا الحدث صفرها في أعين بني آدم وأذلها وجعلها في مرتبة سلبها كل إغوائها، وخشينا ألا تعبد في الأرض بعد هذا اليوم أبداً ٩٠٠
واعلم أننا لم نأتك حتى أحصينا الأرض مسحاً، وقلبنا البحار غوصاً فلم نزد بما أردنا إلا جهلاً.

قال لهم إبليس: إن هذا الأمر عظيم، ولقد علمت الآن بأنه كتم على فابقوا في أماكنكم حتى آتيكم بالخبر اليقين.

فطار إبليس عند ذلك ومكث في رحلته هذه فترة ليست بالقصيرة ومر بالمكان الذي ولد فيه عيسى ابن مريم، فلما رأى الملائكة محذقة به علم أن ذلك الحدث في هذا المكان فأراد أن يأتيه من فوقه فإذا فوقه رؤوس الملائكة ومناكبهم حتى أبراج السماء، ثم أراد أن يأتيه من تحت الأرض، فإذا أقدام الملائكة راسية أسفل مما أراد إبليس ثم أراد أن يدخل بينهم فأبعدوه عن ذلك.

لقد فشل إبليس أن يفتح مهد الطفل الذي كانت رعاية الله وعنايته تحفظه وترعاه، فعاد إلى أتباعه وقال لهم: ما جئكم حتى أحصيت الأرض كلها من مشرقها إلى مغربها وبرها وبحرها ثم أخبرهم بمولد نبي جديد ثم قال: قد كتمت أمره. وما اشتملت قبله رحم أنثى على ولد إلا علمته، ولا

وضعته قط إلا وأنا حاضرها ومشاهد له. وإنى لأرجو أن أضل به أكثر مما يهتدون به، وما كان نبي قبلة أشد علىّ وعليكم منه.

وخرج فى تلك الليلة من أرض بابل قوم يريدون أن يتعرفوا على ولادة عيسى عليه السلام، وذلك بسبب ظهور نجم فى صفحة السماء وكانوا قبل ذلك يتحدثون أن مطلع هذا النجم من علامات مولود فى كتاب «دانيال». وله من العلامات والصفات كيت وكيت.

وكانوا يحملون معهم من الهدايا له. الذهب، والمر، واللبان. وعندما اقتربوا من أرض الشام اشتبه فيهم حراس الملك فساقوهم إليه فلما وقفوا بين يديه. ذكروا قصتهم والسبب فى تجشمهم هذه المسافة البعيدة ثم ذكروا له ما يحملون من هدايا لهذا المولود.

فقال لهم الملك: ولماذا هذه الهدايا بالذات؟

قالوا: تلك الهدايا كأوصاف الطفل: لأن الذهب هو سيد المدخر كله وكذلك هذا النبي هو سيد أهل زمانه كلهم.

وأما عن المر فهو يجبر به الجروح والكسور ويطبب الكثير من الأمراض وكذلك هذا المولود النبي يشفى به الله تعالى كل سقيم ومريض.

وأما اللبان: فينال دخانه السماء ولا ينالها دخان غيره، كذلك هذا المولود النبي يرفعه الله إلى السماء لا يرفع فى زمانه أحد غيره فلما قالوا ذلك للملك حدث نفسه بقتل هذا المولود.

فقال: اذهبوا فإذا علمتم مكانه فأعلمونى ذلك فإنى أرغب أن أفعل مثل فعلكم فى تقديم الهدايا له.

فانطلقوا حتى دفعوا ما كان معهم من تلك الهدايا إلى مريم، ولم يخبروا الملك بمكانه لأنهم أحسوا أنه يريد أن يقتله^(١).

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى ج ١ ص ٥٩٥ إلى ٥٩٧.

وما كادت تنتهي مدة النفاس حتى حملته وعادت به إلى قومها. قال تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ (١).

بدأت مريم بالدخول على أهلها القريبين، وكانوا أهل بيت صالحين وحين رآوها تحمل طفلاً وليداً بكوا وحزنوا وقالوا: ﴿يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾.

وتتابعت الأسئلة من أين لك هذا الولد؟ ماذا تقول مريم؟

أنقص عليهم أخبار المعجزة ٩٠٠ لا: إنها أشارت على طفلها فهو الشاهد الوحيد على براءتها وطهارته ذيلها وصدق إيمانها وإذا بقدرة الله تتجلى وإذا بالوليد ينطق بقدرة الله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣)﴾.

لقد سمع القوم جميعاً كلمات الوليد وهي تخرج من فمه قوية جياشة تكشف حقيقته وتبرئ ساحة أمه مما علق بها من أقاويل المتقولين وتزيد الخائضين بالباطل.

وخرجت مريم من عند قومها وقد امتلأ قلبها ثقة بنصر الله ينصر الله من يشاء. ولكن بعد هذه الحجة الباهرة والمعجزة الخارقة التي أجراها الله على لسان هذا الطفل الوليد بقيت مجموعة من قومها لم تدعن للحق، وصمت آذانها وأغلقت قلبها حتى لا تصدق آيات الله البينات، واستمرت في غمزها ولمزها والسخرية من مريم وابنها.

ولكن أين تذهب مريم بوليدها وفي أي أرض تجد الأمن والأمان لنفسها ووليدها. وهناك ملك يسمى «هيردوس» يتريص بهما الدوائر وقد أكل الحقد قلبه وهو يتسمع لمعجزات هذا الطفل وكراماته، والذي قرر أن يقتله في أي بقعة يكون فيها. إذن ليس أمام مريم إلا الرحيل إلى مصر الذي قال

(١) سورة مريم الآيات من ٢٧ - ٢٩. (٢) سورة مريم الآيات من ٣٠ - ٣٣.

اللَّهُ تعالى عنها :

﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾^(١).

وفى رحاب مصر، وبالقرب من نيلها العذب المبارك عاش المسيح ابن مريم وأمه مريم العذراء البتول، وكانت هذه الأم لا تأمن على وليدها أحداً، وكانت تعيش هي ووليدها على التقاط السنبيل المتساقط فى موسم الحصاد، واستمر الحال على ذلك حتى تم لعيسى عليه السلام اثنتا عشرة سنة. فكان أول آية رآها الناس منه أن أمه كانت تقيم فى دار دهقان^(٢) من أهل مصر وفى يوم من الأيام سطا بعض اللصوص على خزينة له وسرقوا كل ما فيها، وكان لا يسكن فى داره إلا المساكين فلم يتهم منهم أحداً.

فحزنت مريم لمصيبة ذلك الدهقان.

فلما رأى عيسى عليه السلام حزن أمه بمصيبة صاحب ضيافتها. قال لها: «يا أمه أتحبين أن أدله على ماله ؟»
قالت: نعم يا بنى.

قال: قولى له يجمع لى مساكين داره.

فقالت مريم: للدهقان ذلك، فجمع له مساكين داره.

فلما اجتمعوا عمد عيسى إلى رجلين منهم، أحدهما أعمى، والآخر مقعد فحمل المقعد على عاتق الأعمى، ثم قال له: قم به.

قال الأعمى: أنا أضعف من ذلك..؟

قال عيسى عليه السلام: فكيف قويت على ذلك البارحة..؟

فلما سمعوه يقول ذلك، بعثوا الأعمى حتى قام به، فلما استقل قائماً حاملاً هو المقعد إلى كوة الخزانة.

(١) سورة يوسف آية رقم ٩٩.

(٢) الدهقان: بالكسر والضم القوى على التصرف مع حدة والتاجر، وزعيم فلاحي العجم، ورئيس الإقليم، ودهاقين، والاسم الدهقنة.

قال عيسى: هكذا احتالا لملك البارحة، لأنه استعان الأعمى بقوته، والمقعد بعينه.

فقالا: المقعد والأعمى: صدق، فردا على الدهقان ماله. فوضعه الدهقان في خزانته، وقال: يا مريم خذى نصفه.

قالت: إني لم أخلق لذلك.

قال الدهقان: فأعطيه ابنك.

قالت: هو أعظم منى شأناً^(١).

ثم توالى معجزاته وكراماته في مصر في سنوات متتابعة واستمر في مصر حتى مات الملك (هيردوس) فأوحى الله إلى أمه أن انطلقى بابنك إلى أرض الشام فلم تزل مريم بالشام حتى بلغ ابنها سن الثلاثين فجاءه الوحي، ليكون رسولاً إلى بنى إسرائيل.

واستجاب لأمر ربه في الدعوة إليه ونبذ كل الآلهة المزيفة التي تعبد من دون الله. وسرت دعوته بين الناس واستجاب له الكثير، ولكن أعداء الحق في كل زمان ومكان من الأحرار الذين كان لديهم وسيلة لجمع المال وتحقيق الثراء أخذوا في محاربته حرباً ظالمة استخدموا فيها كل أسلحة الباطل رغبة في الانتصار.

وكانت أمه مريم البتول تراقب خطى ابنها وتشجعه وتواسيه حتى كان ذلك اليوم الذي وصل فيه الحقد على الحق إلى ذروته حيث أوهموا الحاكم الروماني أن عيسى يعمل ضد الدولة.

وما أسرع تصديق بعض الحكام لهذه التهمة سواء كانت بالحق أو بالباطل فإذا أحس الحاكم أن عرشه يهتز، أخذ في التدمير والتكيل حماية لعرشه، حتى يبقى مترعباً عليه، وليذهب الجميع إلى الجحيم - حتى ولو كانوا أبرياء امتثالاً للحكمة القائلة (سوء الظن عصمة وحسن الظن ورطة).

(١) راجع تاريخ الرسل والملوك للطبري ج ١ ص ٥٩٧ - ٥٩٨.

وارتفعت الأصوات الهادرة الفاضبة من كل فج وناحية تحمل الشر والحق والتآمر اصلبه. اصلبه واستجاب الحاكم لأصوات الفوغاء ولكن الله تعالى وعده بالرعاية والحماية، فلن يصاب بأذى ولن يناله مكروه، وتم تنفيذ الصلب فيمن يشبهه في الصورة فقط لأن الله تعالى وعد ووعدته الحق.

﴿ إِنِّي مُتَوَكِّفٌ وَرَافِعُكَ إِلَىٰ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ ﴾ (١).

ووصل الخبر الكاذب إلى أمه المكلومة فخرجت تهرول إلى مكان الصلب لتلقى النظرة الأخيرة على جسده الطاهر، وأخذت تزرف الدموع الغزار.

ولكن عيسى ﷺ لن يترك أمه لهذا الحزن المميت فظهر أمامها سليماً معافى وقال: على من تبكين يا أماء..

قالت: أبكى عليك يا بنى.

قال لها: إن الله نجاني من كيدهم ورفعني إليه..

وانطلق في الوجود كله صوت الاطمئنان والأمان بقوله تعالى:

﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ۖ (١٥٧) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۖ ﴾ (٢).

اطمأن قلب مريم، وعلمت أن ابنها عيسى نجاه الله، ففيم الحزن والبكاء، وجوار الله خير جوار.

ثم عادت إلى بيتها وأسلمت أمرها إلى ربها: وما كادت تمكث في بيتها بضع ساعات من النهار حتى جاءها اثنان من الحواريين هما شمعون الصفا، ويحيى. وقالا لها:

«يا أماء لقد أمرنا ابنك قبل رفعه أن نكون في خدمتك ولا نفارقك وأن نواصل سويّاً دعوة الحق التي بدأها عيسى ﷺ».

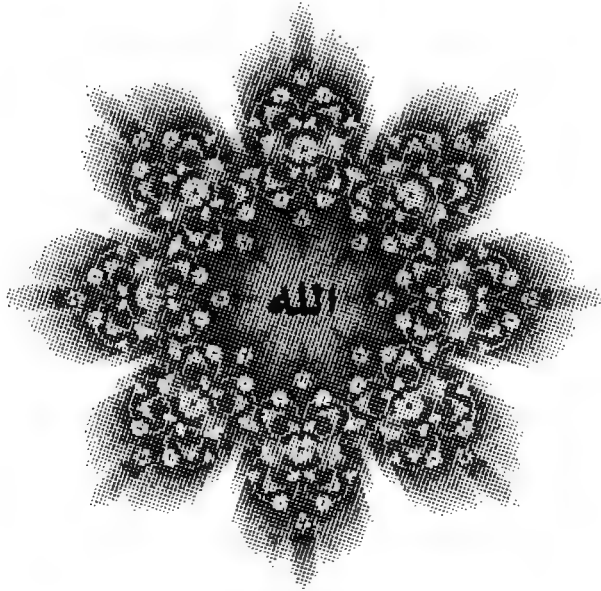
(١) سورة آل عمران آية رقم ٥٥.

(٢) سورة النساء الآيتان ١٥٧ - ١٥٨.

قالت مريم البتول: ليبارك الله خطواتنا على طريق الخير والحق الذي سار عليه عيسى ابني.

ومرت الأيام وتوالت الليالي. ودعوة الحق تنتشر وأتباع عيسى يتزايدون يوماً بعد يوم، ولينصرون الله من ينصره إن الله لقوى عزيز.

ثم ماذا أوشكت مريم البتول أن تلحق بابنها لتكون بجواره في الجنة بعد أن أدت رسالتها واستجابت لأمر ربها، وفي ليلة مقمرة، مضيئة وعند ساعات السحر، وفي جو مليء بالهدوء والسكينة فاضت روحها إلى خالقها بعد ست سنوات من رفع ابنها إلى ربه رحمة الله عليها ورضوانه في مقعد صدق عند مليك مقتدر.



أقوال العلماء في نزول الآيات

قال العلماء: المراد بالملائكة ههنا جبريل وحده، وهذا كقوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ (١)

يعنى جبريل هذا وإن كان عدولاً عن الظاهر إلا أنه يجب المصير إليه، لأن سورة مريم دلت على أن المتكلم مع مريم عليها السلام - هو جبريل ﷺ لم تكن من الأنبياء وهو قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ (٢).

ومريم عليها السلام لم تكن من الأنبياء لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٣).

وإذا كان إرسال جبريل ﷺ إما أن يكون كرامة لها - وهو مذهب من يجوز كرامات الأولياء، أو إرهاباً لعيسى ﷺ، ومن الناس من قال: إن ذلك كان على سبيل النفث في الروح والإلهام والإلقاء في القلب «كما كان في حق أم موسى ﷺ في قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ (٤).

والمذكور في هذه الآية أولاً: الاصطفاء، وثانياً: التطهير، وثالثاً: الاصطفاء على نساء العالمين.

والنوع الأول من الاصطفاء هو أمور:

أحدها: أنه تعالى قبل تحريرها مع أنها كانت أنثى ولم يحصل مثل هذا المعنى لغيرها من الإناث.

وثانيها: قال الحسن: إن أمها لما وضعتها ما غذتها طرفة عين بل ألقتهما إلى زكريا وكان رزقها يأتيها من الجنة.

ثالثها: أنه تعالى فرغها لعبادته، وخصها في هذا المعنى بأنواع اللطف والهداية والعصمة.

(٢) سورة مريم آية رقم ١٧.

(١) سورة النحل آية رقم ٢.

(٤) سورة القصص آية رقم ٧.

(٣) سورة الأنبياء آية رقم ٧.

ورابعها : أنه كفاها أمر معيشتها، فكان يأتيها رزقها من عند الله تعالى على ما قال الله تعالى: ﴿أَتَىٰ لَكَ هَٰذَا قَالَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ (١).

وخامسها : أنه تعالى اسمعها كلام الملائكة شفاها، ولم يتفق ذلك لأنثى غيرها. فهذا هو المراد من الاصطفاء الأول.

وأما التطهير ففيه وجوه:

أحدها : أنه تعالى طهرها عن الكفر والمعصية فهو كقوله تعالى في أزواج النبي ﴿وَيُطَهِّرُكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (٢).

وثانيها : أنه تعالى طهرها عن ميسيس الرجال.

وثالثها : طهرها عن الحيض قالوا : كانت مريم لا تحيض.

ورابعها : وطهرها من الأفعال الذميمة والعادات القبيحة.

وخامسها : وطهرها عن مقالة اليهود وتهمتهم، وكذبهم.

وأما الاصطفاء الثاني: فالمراد أنه تعالى وهب لها عيسى عليه السلام من غير أب وأنطق عيسى حال ولادته منها حتى شهد بما يدل على براءتها عن التهمة، وجعلها وابنها آية للعالمين.

وروى أنه عليه الصلاة والسلام قال: حسبك من نساء العالمين أربع: مريم وآسية امرأة فرعون، وخديجة، وفاطمة عليهن السلام (٣).

فقليل هذا الحديث دل على أن هؤلاء الأربع أفضل النساء، وهذه الآية دلت على أن مريم عليها السلام أفضل من الكل.

هذا وبالله التوفيق

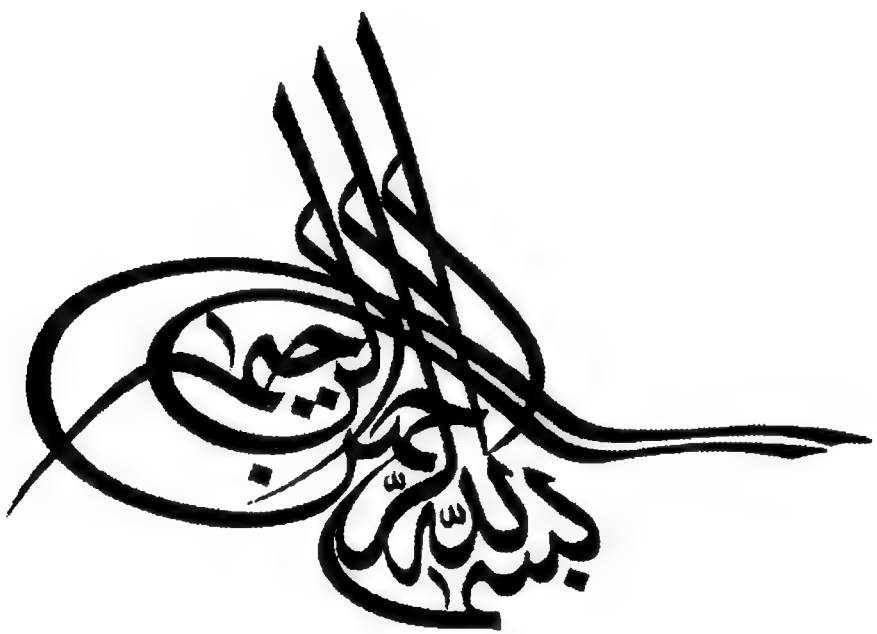
(١) سورة آل عمران آية رقم ٣٧.

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٣٣.

(٣) سبق تخريج هذا الحديث في هذا الجزء.

المرأة فرعون آسيا بنت مزاحم

رضى الله عنها



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى:

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ
فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي
الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي
مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ .

(التحریم: ۱۱)

أقوال العلماء والمفسرين فى نزول هذه الآية

المقصود بهذه الآية عند ابن جرير زوجة فرعون

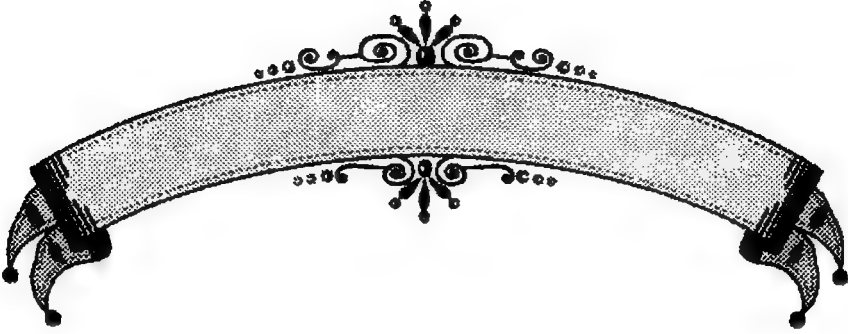
قاله ابن جرير عند تفسيره لهذه الآية جـ ٢٩ ص ٢٥

وقاله ابن كثير جـ ٤ ص ٤١٩

وقاله القرطبى جـ ٩ ص ٢٠٢

وقاله ابن الجوزى فى زاد المسير فى علم التفسير جـ ٨ ص ٣١٤

فمن هى زوجة فرعون ٩٠٠



قال الرسول ﷺ:

«كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية بنت مزاحم امرأة فرعون ومريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد».

رواه الصحيح ومسلم في فضائل

الصعابة، والترمذي، وقال:

حسن صحيح





حياتها ونشأتها

على ضفاف النيل الحبيب، وبين المروج الخضراء الناعمة، وتحت أغصان البساتين السامقة والمليئة بالزهور والثمار، الفواحة بالشذى والعطر، كانت أولى خطواتها. طفلة يافعة، وزهرة باسمه وفراشة تهفو وتطير.

لقد كانت نشيطة واعية تسابق الطيور في البكور، لتلتقى مع لداتها على ضفاف النيل، حيث الخضرة اليانعة، والمياه الصافية، يجلسن متحلقات يتسامرن ويتسابقن، ويملأن الكون ضجيجاً وغناء، فإذا عادت إلى دارها لعبت بعرائسها، وداعبت الدمى والتماثيل على مخدعها وملأت البيت على زويها سعادة وحبوراً.

تلك كانت حياتها الأولى. ولكن ما كادت تقف على أولى عتبات الأنوثة حتى حال والدها بينها وبين الخروج إلى أماكنها المحببة، حيث كانت كل صباح تسابق الطيور وتتاجى الزهور، وتكاد تلامس قرص الشمس عندما ترسل أشعتها ودفعها على الكون فتملاً الحياة جمالاً ونماء ولكن لماذا يحول والدها بينها وبين ذلك..؟

وكيف تستطيع الصبر عن رؤية صحيباتها خارج الدار، إنها لم تفعل

خطأ حتى تعاقب به، فلماذا تفلق أمامها الأبواب وتوصد في وجهها نوافذ الدار؟ إنها لا تعرف سبباً لذلك الحرمان.

وعندما أعيها التفكير ذهبت إلى أمها التي كانت مشغولة في إعداد الطعام وإيقاظ النيام من إخوتها حتى يذهبوا مع أبيهم لرعى الماشية والإشراف على زراع الحقل.

وما كادت الأم تقع عينها على ابنتها حتى شاهدت الدموع تترقرق في عينها وتأبى أن تتحدر، فنفضت يديها مما هي فيه وضمتها بين أحضانها مستفسرة عما أصابها.

وخرجت كلمات الابنة متحشجة متقطعة. لماذا تحولون بيني وبين الخروج لألعب كما كنت أعب مع صديقاتي يا أماه.

عندها ابتسمت الأم ابتسامة صافية، وطبعت على خد ابنتها قبلة حانية واتبعتها بضحكة مجلجلة. وقالت: أهذا كل ما بك يا ابنتي..؟

نعم يا أماه: إننى لا أطيق الحياة بعيداً عن صديقاتي، ولا أمل الانطلاق في الحقول والسهول، ثم في النهاية أغمس قدمي في مياه النيل.

ولكن الأم ضمت ابنتها إليها أكثر وهمست في أذنها قائلة لقد ودعت عهد الطفولة يا ابنتي ودخلت إلى دنيا الأنوثة.

كيف يا أماه إننى لا أفهم ما تقصدين؟

وردت الأم الحنون والسعادة تتطلق من بين كلماتها، ألا ترين يا ابنتي ما حدث لك؟

ماذا حدث يا أماه؟

قالت الأم: لقد نهد صدرك، واستدار جسمك، وصرت ملاكاً جميلاً تتجاذبك عيون الشباب، وتهفو إليك قلوبهم، وأصبحت أمنية غالية لكل منهم- الأمر الذى جعلهم يتزاحمون على دار أبيك كل ليلة- بعد رجوعهم من

حقولهم، كل منهم يريدك أن تكونى أنيسة لوحده، وزوجة لصبوته، وأماً حانية لأطفاله، وتملئين البيت عليه بالبنين والبنات و.. وما كادت الأم تتطرق بكلماتها هذه حتى انطلقت هاربة من حضن أمها الدافئ لتتأمل فى حجرتها جسمها، وتظهر فى مرآتها إلى صدرها، وتصلح من شأن ثيابها وتتهيا لحياة أخرى.

ومرت الأيام وتوالى الليالى والفتاة قانعة بحياتها الجديدة، تشارك أمها فى أعمال البيت، وخاصة ما يتعلق بطهو الطعام وتنوع صنوفه اتباعاً لوصية أمها التى تقول: «إن امتلاء معدة الرجل هى الطريق الأمثل لامتلاك قلبه». والحب والمودة والرحمة بين الرجل وزوجته هى الأعمدة القوية التى يقام عليها البيت السعيد.

ومرت حياة الفتاة حلوة متجددة، هائلة مترقبة. حتى كان يوم اقتربت من شرفة دارها فشاهدت الزينات تقام والأعلام ترفرف والسفن تنهذى على صفحة النيل، والكل يتسابق فى الأعمال، وهم يرددون أغانيهم ومواويلهم التى تجدد نشاطهم وتساعدهم على إنجاز أعمالهم. ونزلت مسرعة تسأل أمها عما يحدث ويقام.

وقالت الأم: لقد اقترب يا ابنتى عيد وفاء النيل، هذا الشريان الذى يمد مصر كلها بالحياة والنماء بإذن الله تعالى، والمصريون جميعاً فى مثل هذا الوقت يستعدون لهذا اليوم ويتسابقون إلى تجميل منازلهم، وشراء الجديد من ثيابهم، وكل فتاة تلبس أجمل ثيابها وتزين بحليها وجواهرها وتظهر فى أبهى صورة، لعلها تكون السعيدة الحظ فتفوز بلقب عروس النيل، ثم تلقى بين أمواجه، وتفوص إلى أعماقه، ويتم نقلها إلى جناته- كما تحكى الأساطير- فإذا فعلوا ذلك فاض على أرض مصر بالماء الفزير والخير الوفير.

إذن يا أماء ساكون عروس النيل المجلوة فى عامى هذا ولكن الأم أحست بوخزة فى صدرها وغصة فى حلقها- وقالت: لا. لا. لا. يا ابنتى إننى لا

أستطيع فراقك أو الحياة بدونك.

ولكن الفتاة تمتمت بينها وبين نفسها وماذا لو وقع الاختيار عليها وأخذت أمها معها في هذه الرحلة السعيدة حيث العز الكبير والخير الوفير أيعترض النيل على ذلك؟

لا لن يكون اعتراض؟

ومرت الأيام، وجاء اليوم الموعد، وخرج المصريون جميعاً شيوخاً وشباناً رجالاً ونساءً، بنين وبنات للاحتفال بوفاء النيل، ويكون لهم شرف المساهمة في اختيار العروس.

وظهرت آسيا ابنة مزاحم في هذا اليوم في أجمل صورها وأبهى حللها فبهرت العيون، وحركت القلوب وصارت موضع الترقب والانبهار ولكن الاختيار لم يقع عليها لتكون عروس النيل. لقد أصابت سهام عينها قلب فرعون فأسرته بجمالها، وجرح قلبه بدلالها فقرر أن تكون عروساً له لا للنيل. فتصبح جوهرة التاج في ملكه وينبوع الحب لقلبه.

زفاف آسيا إلى فرعون

وقبل أن تتحرك راجعة إلى منزلها سمعت صوت الوزير هامان وهو يطالب المصريين ببقاء الزينات وإقامة الأفراح، وإشعال الثريات لتحويل ظلمة الليل إلى نهار. ابتهاجاً بمقد قران فرعون المعظم ملك مصر ومالكها حتى حكى القرآن الكريم كلماته التي كان يقولها:

﴿أَلَيْسَ لِي مَلِكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ (١).

ولكن من سعيدة الحظ جوهرة التاج زوجة الملك العملاق، ذى السطوة والجبروت، الذى اتخذ من رعيته عبداً فلا يمارضه أحد في قليل أو كثير، واتخذ من ثرواتهم كنزاً عظيماً فلا يفنى ولا يزول.

(١) سورة الزخرف آية رقم ٥١.

إنها آسيا بنت مزاحم الطاهرة المؤمنة، الجميلة الفاتنة، ولبست مدينة منف^(١) أجمل حللها، وتحولت مياه النيل إلى فضة مذابة عندما لامست صفحاتها أشعة الثريات المضاءة.

وتم زفافها إلى فرعون، وعاشت معه ملكة متوجة، رأيها نافذ، ومطالبها مجابة، وقصرها يطل على النيل مباشرة، النيل الذى أحبته وكحلت عينيها كل صباح بمائه، وأشجار القصر وحدائقه المحيطة به يداعبها النسيم العليل فتمتلئ حجراته وصلالاته بالشذى والعطر.

ونتساءل متى التفت التاريخ إلى آسيا وأصفى لحديثها، وسجل بالنور على صفحاته كلماتها ؟..

أكان ذلك عندما زفت إلى فرعون المعظم ؟.. إنها زفت كما تزف أى فتاة فى الدنيا، وهذا ليس حدثاً عظيماً يقف أمامه التاريخ طويلاً ولهذا لم يذكره القرآن الكريم فى أى من سوره وآياته.

(١) منف: بالفتح ثم السكون وفاء اسم مدينة فرعون بمصر، قال القضاى أصلها بلغة القبط (مافة) فعريت فقليل منف، وقال عبد الرحمن بن عبد الله أول من سكن مصر بعد أن أغرق الله تعالى قوم نوح ﷺ، ببصر بن حسام بن نوح ﷺ فسكن منف وهى أول مدينة عمرت بعد الفرق هو وولده وهم ثلاثون نفساً منهم أربعة أولاد قد بلغوا وتزوجوا فبذلك سميت «مافة» ومعنى مافة بلسان القبط ثلاثون ثم عريت فقليل منف وهى المرادة بقوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ سورة القصص آية رقم ١٥ قال الهمدانى: ذكر لى شيخ صدوق قال: رأيت بمنف دار فرعون ودرت فى مجالسها ومساربها، وغرفها وصفافها فإذا هى جميع ذلك حجر واحد منقور. وأثار هذه المدينة وحجارة قصورها إلى الآن ظاهرة (فى عهد الهمزانى) بينها وبين الفسطاط ثلاثة فراسخ، وبينها وبين عين شمس ستة فراسخ وقيل إنه كان فيها أربعة أنهار يختلط ماؤها فى موضع سريره ولذلك قال: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ سورة الزخرف آية ٥١ وذكر بعض عقلاء مصر قال: دخلت منف فرأيت عثمان بن صالح عالم مصر وهو جالس على باب كنيسة بمنف ومكتوب على باب الكنيسة: لا تلومونى على صغرها. قال عثمان بن صالح. وعلى باب هذه الكنيسة وكز موسى ﷺ الرجل فقضى عليه. وبها كنيسة الأسقف لا يعرف طولها من عرضها مسقفة بحجر واحد. وبمنف آثار الحكماء والأنبياء وبها كان منزل يوسف الصديق ﷺ ومن كان قبله، وكان فى قرية المقطم موضع يسمى المرقب ويطلق عليه تنور فرعون.

الطفل موسى بين يدي آسيا

ولكن المؤرخين يرون أن التفات التاريخ إليها ومعه أقلامه وسجلاته كان ذلك في يوم ليس كمثله يوم. حيث كانت تجلس في قصرها ساهمة تتأمل قدرة الخالق في إبداعه لهذا الكون المتراعى الأطراف، وتتسمع أذنيها خريير مياه النيل المتدفق نحو الشمال في سهولة ويسر، وكأنها موسيقى حاملة، عندها تساءلت لقد أعطاهما الله تعالى كل ما أرادت ووهبها فوق ما تريد، ولكنها الآن تطمع في كرم خالقها وواهبها الصحة والسعادة أن يهبها ولداً نعم ولد. لتكتمل بها سعادتها، ويدغدغ حبه نياط قلبها، وتزهو به على الدنيا كلها، ويكون وريثاً لملك فرعون من بعده. ثم ماذا؟ أخذت تتخيل ملامح ابنها المرتقب وترسم في مخيلتها صفاته وطباعه، فهو جميل الصورة، باسم الثغر فارع الطول، قوى الشكيمة، طيب القلب، واسع الصدر. وهو من قبل هذا ومن بعده، بعيد عن التجبر والجبروت، محباً للخير، عطوفاً على الناس جميعاً لأنهم خلق الله الذي أبدع السموات والأرض وأوجد الظلمات والنور.

وما دام ابنها على هذه الصفات والطباع هفت إليه النفوس بالمحبة، وبادلته الود والإخلاص، وسيكون واحة للحيارى وملجأ لليتامى، ومنصفاً للمظلومين، وأميناً على الرعية، وأخاً للجميع وأخرجها من تأملاتها تلك صوت وصيفاتها يستأذن للدخول إليها والمثول بين يديها، وهن يحملن صندوقاً بين أيديهن، عثرن عليه طافياً فوق الماء، ومستقراً على جدار القصر.

ولقد حاولت الوصيفات فتح الصندوق وعالجنه من كل الجوانب ولكنهن فشلن في فتحه.

وتقدمت سيدة القصر- وجلة مضطربة- وما كادت تلقى نظرة على الصندوق حتى بهرت به، لقد شاهدت النور ينبعث من إحدى جوانبه، وما كادت تقترب من غطاءه حتى كان طوع بنانها وفتح بين يديها وكم كانت دهشتها عندما رأت بداخله طفلاً حديث الولادة يمص إصبعه في هدوء،

ومطمئن فى نومته وكأنه مستسلم لقضاء الله وقدره.

طفلاً يختلف عن كل الأطفال فهو من أحسن خلق الله تعالى، تعلوه جلالة وبهاء، وما كاد يقع نظر آسيا عليه حتى امتلأ قلبها حباً له، وأحست أن الله قد استجاب لدعائها ورزقها من حيث لا تحتسب بهذا الغلام الجميل.

قال وهب بن منبه: بلغنى أن فرعون ذبح فى طلب موسى سبعين ألف وليد، ويقال تسعين ألفاً.

ويروى أنها حين اقتريت أمه من الولادة، وجاءها الطلق، وكانت بعض القوابل «التي تقوم بعملية الولادة» الموكلات بحبالى بنى إسرائيل صديقة لأم موسى فقالت لها: لتفعلنى صداقتك اليوم.

فعالجتها حتى وضعت جنينها فلما رآته القابلة هالها نور بين عينيه فارتعش كل مفصل منها، ودخل حبه قلبها.

ثم قالت القابلة لأمه: ما جئتك إلا لأقتل مولودك، وأخبر فرعون بذلك، ولكنى وجدت لابنك حباً ما وجدت مثله قط فاحفظيه.

فلما خرجت القابلة جاء عيون فرعون، فما كان من أمه إلا لفته فى خرقة ووضعته وهى مسرعة فى تتور مسجور- وهى لا تدرى ما تصنع- لما طاش عقلها خوفاً على وليدها.

وقام الشرط بتفتيش المنزل فلم يعثروا على شيء فخرجوا، وهى لا تدرى أمه أين مكانه.

وبعد برهة سمعت بكاء ينبعث من داخل التتور، وقد جعل الله عليه النار برداً وسلاماً، كما جعلها على إبراهيم ﷺ.

وما حدث مع القابلة، حدث مع آسيا امرأة فرعون، فاحتضنته، ودخل عليها فرعون وهو بين يديها.

وما كادت عين فرعون تقع عليه، حتى تذكر رؤياه وما قالته الكهنة له:

من أن غلاماً من بنى إسرائيل يفسد ملكك. إذن هو هذا، وجسم له خياله أنه هو بعينه الطفل المقصود بكلام الكهنة، وبإفساد المملكة عليه فهم بقتله، ولكن الزوجة حالت بينه وبين ذلك وما زالت تسترضيه وتستعطفه وتقول له كما أخبر القرآن الكريم:

﴿قُرْتُ عَيْنَ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ (١).

إن قدرة الله تعالى تتحدى، تتحدى بطريقة واضحة مكشوفة فرعون وهامان وجنودهما، إنهم ليزبحون الذكور من مواليد قوم موسى خوفاً على ملكهم وعرشهم ودولتهم، ويبثون العيون والأرصاد على قوم موسى كي لا يفلت منهم طفل ذكر.

فها هي يد القدرة الإلهية تلقى بين أيديهم بلا بحث ولا مشقة بطفل ذكر وأى طفل؟ إنه الطفل الذي على يديه هلاكهم أجمعين، ها هي تلقيه في أيديهم مجرداً من كل قوة، ومن كل حيلة، عاجزاً عن أن يدفع عن نفسه أو حتى يطلب النجدة، ها هي القدرة الإلهية تقتحم على فرعون حصنه وهو الطاغية ثم تعلن عن مقصدها في هذا الطفل.

﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَرْنًا﴾.

(١) سورة القصص آية رقم ٩.

آسيا تتشفع لفرعون حتى لا يذبح موسى

ليكون لهم عدواً يتحداهم وحزناً يدخل الهم على قلوبهم، ولقد اقتحمت القدرة الإلهية على فرعون قلب امرأته بعد ما اقتحمت به عليه حصنه لقد حمته بالمحبة ذلك الستار الرقيق الشفيف، ولم تحمه بالسلاح ولا بالجاه، ولا بالمال، وإنما حمته بالحب الحانى الكبير فى قلب امرأة، وتحدثت به قوة فرعون وغلظته وحذره، وهان فرعون على الله أن يحمى منه الطفل الضعيف بغير هذا الستار الشفيف.

(لا تقتلوه) وهو الذى على يديه مصرع الطاغية وجنده.

﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ (١).

وهو الذى تخبئ لهم الأقدار من ورائه ما حذروه طويلاً.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

إنها القدرة الإلهية القادرة التى تتحداهم وتكيد لهم وهم لا يشعرون ولما استقر الطفل فى بيت فرعون- عرضوا عليه المراضع التى كن فى القصر المنيف، فلم يقبل منها ثدياً واحداً، ورفضها فى إباء وشمم تحقيقاً لأمر الله تعالى:

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾ (٢).

فخرجوا به إلى السوق، عليهم يجدون امرأة تتمكن من إرضاعه. وشاء الله سبحانه وتعالى أن يحقق وعده لأمه ﴿إِنَّا رَأَوُوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٣).

فجاءت أمه واعطته ثديها فالتقمه فى لهفة وعب من لبنها حتى شبع، وفرح أهل القصر بذلك فرحاً شديداً وتسابقوا إلى تبشير سيدة القصر بذلك فكانت لوعة أعقبتها فرحة ونعمة وفضل من الله تعالى.

(١) سورة القصص آية رقم ٩.

(٢) سورة القصص آية رقم ٧.

(٣) سورة القصص آية رقم ١٢.

وطلبت سيدة القصر من هذه المرضعة- والتي لا تعرف أنها أم للطفل- أن تقيم معها لترضع هذا الطفل، ولها كل ما تطلب وتريد ولكن المرأة اعتذرت عن تلبية هذا الطلب لظروفها فهي زوجة ولها أولاد ولا تستطيع فراقهم. ولكن إن رغبت سيدة القصر أن أحمل الطفل معي وأقوم برضاعته والمحافظة عليه قبلت ذلك.

ولم يكن أمام سيدة القصر إلا أن توافق وعادت أم موسى بولدها راضية مرضية تشكر ربها لنعمه عليها وعودة ابنها لها في عز وجاه ورزق دائر.

ولهذا جاء في الحديث: «مثل الذي يعمل ويحتسب في صنعته الخير كمثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها».

كم عدد السنين التي قضاها الطفل مع أمه؟.. وهل عاد واستقر في قصر فرعون بعد انقضاء فترة الرضاعة؟.. وماذا كان موقف فرعون من الطفل وهو في قصره؟..

تساؤلات كثيرة يقف الإنسان أمامها حائراً ولا يجد لها جواباً؟..

ويصمت التاريخ عن تسجيل فترة طويلة من حياة موسى، وزوجة فرعون ولا يفصح عن ذلك إلا عندما أصبح موسى شاباً جلدأ يقف على أعتاب الرجولة، ويصرع رجلاً من آل فرعون.

وصوت الطاغية وهو يجلس عالياً أقبضوا على موسى ليكون عبرة لغيره وينال الجزاء الذي أعد له.

عندها يصور لنا التاريخ القلق الكبير الذي عاشته هذه المرأة التي اتخذت موسى ولداً لها، والخوف عليه من أن يقع في قبضة الأشرار من عيون الوزير هامان.

واستمرت فترة على ذلك وهي لا تعرف طعم الاستقرار، ولا يقترب النوم

من أجفانها إلا لماماً. حتى كان يوم أتى زوج ماشطة بناتها ودعاها للاطمئنان على موسى، لأنه التقى به وحذره الوقوع في قبضة الجلادين ونصحه بالخروج فوراً من البلاد بقوله:

﴿إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾^(١).

فحمدت الله كثيراً على نجاته. ودعت ربها وخالقها أن يحفظه ويرعاه وإن كان في هذا عذاب لها لا بتماده عن عينها وغروب شخصه عن بيتها ولكنها تصبرت وتحملت. لأن عذاب البعاد أخف وطأة عليها من أن تسمع خبر وفاته، أو أن يغيب في أقبية السجون إلى أن يحين مماته.

ومرت السنون على امرأة فرعون بطيئة وثقيلة، سماؤها مليئة بالضباب فلا تشرق فيها شمس، وليها دامس لا بصيص فيه من النور، وأيامها رتيبة لا جديد ولا انبهار، فكانت تجلس في قصرها. تجتر أحزانها، وتناجي وليدها. وتتساب دموعها فوارة متتابعة ومع هذا كان دعاؤها إلى ربها لا ينقطع وأملها في رؤية وليدها لا يخبو. إنها تكاد تراه رؤيا العين، وتناجيه بأعذب الألفاظ، ولكنها لا تسمع إلا رنين الصدى، وصمت المكان.

(١) سورة القصص آية ٢٠.

موسى وأخوه عليهما السلام يدعوان فرعون للإيمان برب السموات والأرض

حتى كان يوم أشرقت شمسُه، وصفا نهاره، وغنت بلابله. فخرجت إلى شرفة القصر. تتأمل عناقيد العنب وكأنها ثريات مضيئة وتترك صفحة وجهها للنسيم العليل، وتمتع نظرها بمياه النيل وهي منسابه تداعب أمواجها وتلامس شطآنها.

ووسط هذا الهدوء الشامل. الذي لف المكان سمعت أصواتاً عالية، وجلبة صاخبة، وأصواتا هامسة متتابعة إنه موسى وأخوه هارون. وما كادت تخرج من خدرها حتى شاهدت ابنها اليافع الطويل العالى الجبهة يقف أمام فرعون قائلاً له ويجواره أخوه هارون:

﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَلَا تَعْذِْبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بَآيَةً مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ (١).

إن هذه الكلمات المحدودة قلبت موازين فرعون، فلم يعرف ما يأتى وما يدع وملاّته بالهوان، وأحس أنه طائر فى مصيدة لا يملك منها فكاكاً. ثم تاب إلى عقله وأخذ يهذى ويقول:

إذا لم أكن أنا ربكم الأعلى فمن يكون؟

قال موسى: ﴿رَبَّنَا الَّذِى أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ (٢).

قال فرعون: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾ (٣).

قال موسى: ﴿عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّى فِى كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَىٰ (٥٢) الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَّكَ لَكُمُ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ

(١) سورة طه آية ٤٧، ٤٨.

(٢) سورة طه آية رقم ٥٠.

(٣) سورة طه آية رقم ٥١.

(٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى ﴿١﴾.

إن موسى يقول لفرعون: ربنا الله الذى وهب الوجود لكل موجود فى الصورة التى أوجده بها وفطره عليها. ثم هدى كل شىء إلى وظيفته التى خلقه لها، وأعطاه من الإمكانيات ما يساعده على أداء هذه الوظيفة ويعينه عليها.

وهذا الوصف الذى حكاه القرآن الكريم عن موسى ﷺ يلخص أكمل آثار الألوهية الخالقة المدبرة لهذا الوجود.

الوجود الكبير الذى خلقه الله تعالى: والمؤلف مما لا يحصى من الذرات والخلايا، والخلائق والأحياء، وكل ذرة فيه تنبض، وكل خلية فيه تحيا، وكل حى فيه يتحرك، وكل كائن فيه يتفاعل مع الكائنات الأخرى.

ولقد سمعت امراة فرعون ذلك الحوار والجدال بين موسى وفرعون فازدادت إيمانا بدعوة الحق الذى جاء بها موسى ﷺ. ولكنها كانت وماشطة بناتها فى قلق على موسى من بطش فرعون ومؤامرات وزيره هامان. ودعنا الله تعالى أن ينصر موسى يوم الزينة عندما تحداه فرعون بالسحرة والأعبيهم. وخرجت زوجة فرعون وماشطتها لتشاهدن هذا التحدى، وكم كانت فرحتها عندما أبطلت معجزة موسى ﷺ سحر السحرة. الأمر الذى دعاهم إلى الإيمان بموسى وإعلانهم ذلك بقولهم:

﴿أَمَّا رَبِّ هَرُونَ وَمُوسَى﴾ (٢).

قال فرعون: ﴿أَمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحَرَ فَلْأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأَصْلَبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ (٣).

(٢) سورة طه آية رقم ٧٠.

(١) سورة طه الآيات رقم ٥٢ - ٥٤.

(٣) سورة طه آية رقم ٧١.

عند ذلك استشاط فرعون غضباً وخرج عن طوره وقال:

﴿ذُرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ (١).

وأوشكت امرأة فرعون أن تفقد عقلها وأن يتوقف قلبها إن ابنها وفلذة كبدها يقتل أمام عيناها- وتناست أن الله تعالى الذي حمى موسى في وسط البحر، وأنقذه من نار التنور وأبعد عنه شفرات الذبح التي أعدها جند فرعون قادر على حمايته من جعجة فرعون وعصابته.

ولقد أعاد لها صوابها ورد لها عقلها صوت حزقيال زوج الماشطة وهو يقول غير هياب ولا وجل أمام فرعون.

﴿اتَّقُوا اللَّهَ أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾.

وهم فرعون بالبطش بحزقيال: ولكنه اختفى في لحظة خاطفة وفشلت كل المحاولات في العثور عليه. وكانت هذه من الهزائم التي أخذت تتلاحق متتابعة على رأس فرعون ووزيره هامان.

وعاد فرعون إلى قصره بعد هذا اليوم المصيب، وتتابع الأحداث فيه وقال لآسيا بعد حديث طويل: لن أستريح حتى أقتل موسى بيدي هاتين. ولكن آسيا أرادت أن تغير دفة الحديث. ولكنه صاح فيها: لم لا تشاريكني الغضب من موسى؟.

فقالت: ولم أغضب عليه؟.

وعندها جن جنونه وقال لها: لأنه لا يعترف أنني الإله، إنه يريدني وأنا الإله العظيم أن أعبد إلهه: أليس هذا من الجنون الذي يدعيه موسى. ويدعوني إليه؟.

(٢) سورة غافر آية رقم ٢٨.

(١) سورة غافر آية رقم ٢٦.

قالت آسيا: إن هامان وزيرك هو الذى يريد أن تكون هناك جفوة دائمة بينك وبين موسى. حتى يستخلصك لنفسه.

قال فرعون: إن هامان وزيرى ومن أكثر المخلصين لى. لابد أن يمتلئ قلبك غضباً على موسى. أنا أعلم أنك اتخذتيه ولداً حين كان صغيراً ولكنه عاق لى ويسعى لإفساد مملكتى..

وماهى إلا لحظات حتى دخل هامان، وأخذاً يتاجيان ويدور الهمس بينهما.. واستمر هذا الهمس لفترة طويلة. ولم يقطعه إلا صوت أقدام مسرعة تقطع عليهما خلوتهما.

ولم تكن إلا ابنة فرعون التى كانت تهزول مسرعة. لتلحق بأبيها وما كاد فرعون يراها على هذه الصورة حتى قال لها ماذا دهاك؟..

قالت الفتاة: ماشطتى من أتباع موسى..؟

قال فرعون: أواثقة أنت من ذلك؟..

قالت الفتاة: نعم يا أبى.

وهناك هاج فرعون وماج كيف يكون أتباع موسى فى قصره. إن هذا لن يكون ساقلب بهم الأرض. وأغرقهم فى اليم، وأقدمهم طعمة سائفة للذئاب الجائعة.

وماهى إلا لحظات حتى جاء الجند يسحبون الماشطة من شعرها ويلقون بها تحت أقدام فرعون.

وسألها فرعون من ريك يا امرأة.

قالت: ربى وربك الله.

وعلى الفور أمر فرعون بإعداد تنور من نحاس ويحمى بالنيران فى وسط القصر. ويأتون بأبناء الماشطة.

وعلمت آسيا بالأمر فهمت أن تذهب لتشفع لها. ولكن شعرت أن غضب فرعون لفي عقله فلن يستجيب لرجاء.

وعلى الفور جاء الحراس بالتتور وبالمراة وأبنائها - وهم صفار - ووقف فرعون وهامان ومن خلفهم الجنود يلقون بابلن لها في النار فيشتعل جسمه وما هي إلا لحظات حتى يتحول إلى قطعة متفحمة ويسألها فرعون: من ربك؟

وهي تقول: ربى الله ربى الله الواحد الأحد الفرد الصمد.

قالت ذلك وهي تعلم أنه لم يبق من أولادها إلا طفل رضيع انتزعه الجند من بين يديها. فتملكها الهلع وحل بها الجزع لأن أولادها يحترقون أمام عينيها وأوشكت أن تضعف أمام الرضيع خوفاً عليه من النار.

وإذا بالرضيع ينطق ويقول: اصبرى يا أماء فإنك على الحق. وتكرر ما حكاه القرآن عن المؤمنين الصابرين عندما ألقى بهم الجبابرة في أخاديد النار قال تعالى مصوراً حالهم:

﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) ﴾ (١).

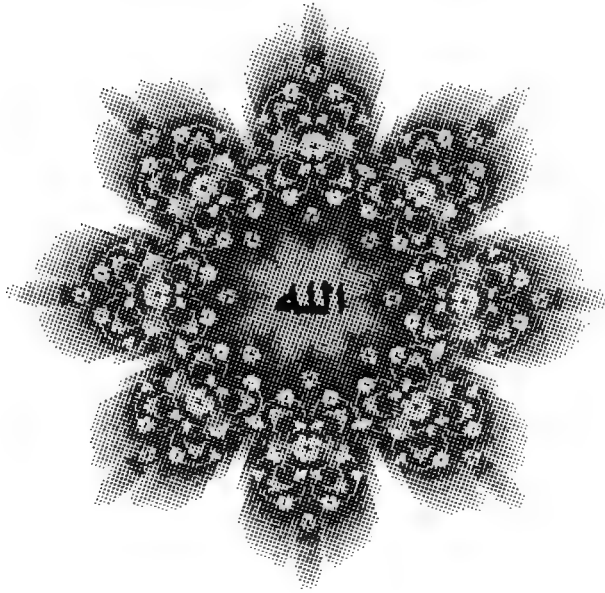
وما فعله فرعون مع الماشطة وأولادها فعله مع زوجته، حيث رماها بصخرة كبيرة ووضع لها الأوتداد بالأرض وربط يديها وقدميها حتى فاضت روحها إلى خالقها رحمها الله رحمة واسعة- واسكنها فسيح جناته.

إن هذا التجبر والطغيان الذى وقع من الجبابرة الطفافة على عباد الله المخلصين لم يخل منه أكثر العصور والأمصار ولم يسلم منه صغير ولا كبير.

والقرآن الكريم حدثنا عن الكثير من هؤلاء الجبارين أمثال يوسف بن سراحيل بن تبع الحميرى الذى أخذ أكثر من ثمانين رجلاً من المؤمنين وحفر

(١) سورة البروج الآيات من ٤ إلى ٨.

لهم أخذوداً وأحرقهم فيه- كما حكاه الماوردي وقال الكلبى: هما نصارى
نجران أخذوا بها قوماً مؤمنين، فحفروا لهم سبعة أخاديد طول كل أخذود
أربعون ذراعاً، وعرضه اثنتا عشرة ذراعاً ثم طرح فيه النفط والخطب ثم
عرضوهم على النار فمن أبى قذفوه فيها، وقيل: قوم من النصارى كانوا
بالقسطنطينية زمان قسطنطين. وقال مقاتل أصحاب الأخدود ثلاثة،
أحدهم بنجران والثانى بالشام، والآخر بفارس. أما الذى بالشام فانطنيانوس
الرومى، وأما الذى بفارس؟ فلم يذكر له أحد من العلماء اسماً ولا رسماً
والذى بأرض العرب يوسف بن ذى نواس هذا والله أعلم.



أسباب نزول الآيات

قال قتادة: كان فرعون أعتى أهل الأرض وأكفرهم، فوالله ما ضر امرأته كفر زوجها حين أطاعت ربها، ليعلموا إذن أن الله حكم عدل لا يؤاخذ أحداً إلا بذنبه.

وقال ابن جرير عن أبي عثمان عن سليمان قال: كانت امرأة فرعون تعذب في الشمس فإذا انصرف عنها أظلمت الملائكة بأجنحتها، وكانت ترى بيتها في الجنة.

وقال ابن جرير عن ابن أبي بزة قال: كانت امرأة فرعون تسأل من غلب؟ فيقال غلب موسى وهارون.

فتقول: آمنت برب موسى وهارون. فأرسل إليها فرعون فقال: انظروا أعظم صخرة تجدونها، فإن استمرت على قولها فآلقوها عليها، وإن رجعت عن قولها فهي امرأتى.

فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء فأبصرت بيتها في الجنة فمضت على قولها، وانتزعت روحها وألقيت الصخرة على جسد ليس فيه روح. فقولها: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ (١).

قال العلماء: اختارت الجار قبل الدار ﴿وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾ (٢).

أى خلصنى منه فإنى أبرأ إليك من عمله ﴿وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٣) وهذه المرأة هى آسية بنت مزاحم - رضي الله عنها.

وقال أبو جعفر الرازى عن أبى العالية: كان إيمان امرأة فرعون من قبل إيمان امرأة خازن فرعون. وذلك أنها جلست تمشط ابنة فرعون فوق المشط من يدها.

(١)، (٢)، (٣) سورة التحريم آية رقم: ١١.

فقال: تعس من كفر بالله.

فقال لها ابنة فرعون: ألك رب غير أبى.

قالت نعم ربى ورب أبيك، ورب كل شىء الله.

فلطمتها بنت فرعون وضربتها وأخبرت أباه، فأرسل إليها فرعون.

فقال: تعبدین رباً غيرى ٩٠.

قالت: نعم ربى وربك ورب كل شىء الله وإياه أعبد فعذبها فرعون ووضع لها أوتاداً فشد يديها ورجليها وأرسل عليها الحيات، فكانت كذلك فأتى عليها يوماً فقال لها: ما أنت منتهية ٩١.

فقال له: ربى وربك ورب كل شىء الله.

فقال لها: إنى ذابح ابنك إلا أن تعلى.

فقال له: اقض ما أنت قاض. فذبح ابنها، وجاءت روح ابنها تبشرها

فقال لها: أبشرى يا أمة فإن لك عند الله من الثواب كذا وكذا. فصبرت.

ثم أتى عليها فرعون يوماً آخر فقال لها مثل ذلك، فقالت له مثل ذلك فذبح ابنها الثانى. ثم جاء الجند بالثالث فأوشكت أن تضعف وإذا بالرضيع ينطق وقال لها اصبرى يا أمة فإن لك عند الله من الثواب كذا وكذا.

قال: وسمعت امراة فرعون كلام روح ابنها الأكبر ثم الأصغر فأمنت امراة فرعون، وقبض الله روح امراة خازن فرعون وكشف الفطاء عن ثوابها ومنزلتها وكرامتها فى الجنة لامراة فرعون حتى رأت ما ازدادت به إيماناً وتصديقاً و يقيناً.

واطلع فرعون على إيمانها فقال للملأ: ما تعلمون من أسيا بنت

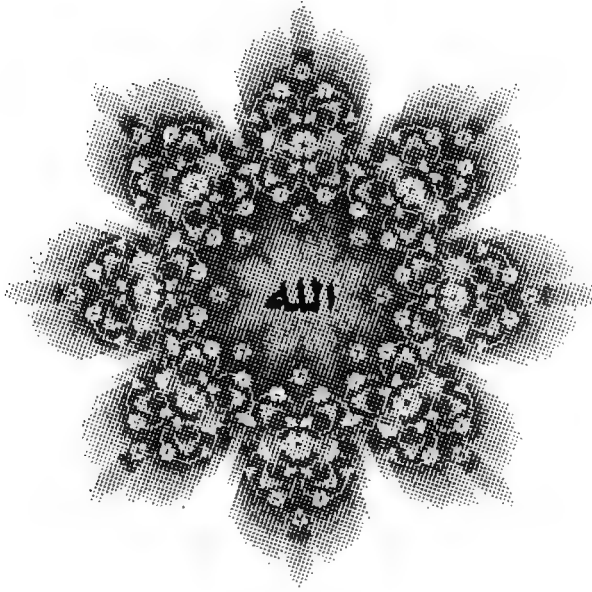
مزاحم ٩٠.

فأثوا عليها.

فقال لهم: إنها تعبد إلهاً غيري.

فقالوا له: اقتلها. فوضع لها أوتاداً وشد يديها ورجليها فدعت آسيا ربها فقالت: ﴿رَبِّ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾^(١). فوافق ذلك حضور فرعون فضحكت حين رأت بيتها في الجنة.

فقال فرعون: ألا تعجبون من جنونها إنا نعذبها وهي تضحك فقبض الله روحها، وأسكنها الجنة. هذا وبالله التوفيق.



(١) التحريم آية رقم: ١١.



يوم الزينة فى مصر القديمة

تقول المصادر التاريخية إن فرعون رأى آسيا بنت مزاحم فى يوم الزينة وكان هذا تدبيراً من تدابير القدرة الإلهية، فى زواج فرعون الطاغية من آسيا المؤمنة لتكون جنداً من جنود الله تعالى فى نجاة موسى ؑ من بطش فرعون ووزيره هامان.

﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ (١).

فما حقيقة يوم الزينة فى مصر القديمة..؟ أكان هو يوم عيد من أعيادهم حيث يعم الفرح والسرور، والبهجة والحبور..؟

أم أن يوم الزينة هو حلول الربيع عندما تخضر الأرض، وتفتح الزهور وتتمو الثمار ويقترب موسم الحصاد؟

أم أن يوم الزينة لا هذا ولا ذاك بل هو اليوم الذى كان فيه المصريون يحتفلون جميعاً بوفاء النيل، عندما يفيض ماؤه وتتعاظم أمواجه وتمتلئ الأرض بالرى والماء بعد الجفاف والحرمان.

وسمى يوم الزينة لأنه فى هذا اليوم من كل عام كانت تزف كل عروس إلى عريسها فى احتفال جماعى، وتزين المنازل بالثريات المضيئة والأشجار بالثمار الناضجة، وتفرد البلابل والطيور فوق فروع الأشجار وباسق النخيل، ويلبس الرجال والنساء الشيوخ والشباب والأطفال والفتيات أجمل الثياب الزاهية الألوان ويفنون ويمرحون حتى يتم إلقاء عروس النيل فى هذا الشريان المتدفق، الذى لا يفيض ماؤه ولا تقل خيراته- ولقد صدق

(١) سورة الأحزاب آية رقم ٢٨.

(هيردوت) عندما قال: «مصر هبة النيل».

وإذا كان ذلك كذلك فما هي الزينة، يرى بعض العلماء أنه اسم جامع لكل ما يترزين به، والتزين هو تحسين المظهر وتجمله حتى تميل إليه العيون وتشرح له الصدور، ولا يشترط فيما هو حسن المظهر أن يكون في حقيقته جوهراً نافعاً، وإذا قيمة حقيقية باقية، بل ربما يكون ضاراً وجالباً لشر وعذاب.

فالزينة من شأنها أن تستهوى النفوس إذ تستحسنها الحواس. وإذا كان الأمر كذلك فما المقصود بالزينة في منهج الإسلام؟

أن تكون هي الزينة الخارجية والتي عناها قول الله تعالى:

﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (١).

أن تكون هذه الزينة البدنية كالقوة وطول القامة وتناسب الأعضاء والتي عناها قول الله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (٢).

أم هي الزينة النفسية والتي عناها قول الله تعالى:

﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ (٣).

إننا نرى أن الزينة في منهج الإسلام تشمل الأنواع الثلاثة ولهذا يطيب لنا أن نلقى بعض الأضواء على كل منها على حدة. فمن الزينة الخارجية قول الله تعالى.

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٤.

(٢) سورة القصص آية رقم ٧٩.

(٣) سورة الحجرات آية رقم ٧.

المُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴿١﴾.

فما الزينة التي أمرنا الله تعالى بأخذها عند كل مسجد...؟

أهى زينة الوضوء الذى يقوم به المسلم خمس مرات فى اليوم والليلة ولا يستطيع أداء الصلاة إلا به..؟

أهى زينة اللباس والرياش الذى يتزيا به المسلم فيظهره فى أحسن صورة عند دخوله فى الصلاة لقوله تعالى:

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُورِي سَوَاءَ تَكُمُ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ (٢).

أهى زينة السواعد المفتولة، والقوام المشقوق، والذى لم يترهل بكثرة الإسراف فى الطعام والشراب التزاماً بأمر الله تعالى:

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ (٣).

أهى زينة السميت الحسن والمنظر الجميل عند السعى إلى بيت من بيوت الله لقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (٤).

أهى زينة العطر الهادئ والطيب العابق الذى ينضح به المسلم فتنعش نفسه ويخضع قلبه ويملاً الكون من حوله بالتكبير والتسبيح..؟

إن الفاحص المدقق فى قول الله تعالى:

﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾، يرى أن كل هذه الأشياء من الزينة مطلوبة، ومقدرة، ومكلف بها المسلم عند ذهابه لأداء الصلاة.

(٢) سورة الأعراف آية رقم ٣١.

(١) سورة الأعراف آية رقم ٣١، ٣٢.

(٤) سورة الفرقان آية رقم ٦٣.

(٣) سورة الأعراف آية رقم ٣١.

فالمسلم عندما يذهب لأداء الصلاة لابد أن يأتي بالوضوء على الصورة الجميلة التي أمرنا رسول الله ﷺ من الإحسان والتتابع، والوضوء في الحقيقة زينة وقيمة لأن الرسول ﷺ عندما سأله بعض الصحابة: كيف تعرف أمتك من بين الأمم يا رسول الله؟

قال ﷺ: هم غر محجلون من أثر الوضوء^(١).

والتحجيل نور ينبعث من الأقدام التي اعتادت السير إلى المساجد وفي النور زينة لقوله تعالى:

﴿إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾^(٢).

وقوله تعالى أيضاً:

﴿وَلَقَدْ زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾^(٣).

ومشهد النجوم في السماء جميل جداً يأخذ بالقلوب، وهو جمال متجدد تتعدد ألوانه بتعدد أوقاته.

ويختلف من صباح إلى مساء.

ومن شروق إلى غروب.

ومن الليلة القمرء إلى الليلة الظلماء.

ومن مشهد الصفا إلى مشهد الضباب والسحاب.

والوضوء شرعه الله تعالى ليتخلص به العبد المسلم قبل دخوله إلى الصلاة من الأوساخ المادية، ومن القاذورات المعنوية.

إنك تفسل يديك في الوضوء فتطهرهما مما تأتيه أو تفعله من مخالفة شرع الله مما أمر به أو نهى عنه.

(١) الحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند ٣: ٤٣١، ٤: ٢٠٧ (حلبى).

(٢) سورة الصافات آية رقم: ٦. (٣) سورة الملك آية رقم: ٥.

من اعتدائهما على الغير.

من تناولهما المال الحرام.

من أن تبطش بهما من لا يستحق البطش.

من أن تكتسب بهما معصية.

من استعملهما فى غير مرضاة الله.

يقول الرسول ﷺ:

«إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كانت بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مستها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء حتى يخرج نقياً من الذنوب»(١).

وفى رواية: ثم كان مشيه إلى المسجد وصلاته نافلة

ويفسل المسلم عينيه فى الوضوء باسم الله لا باسم المدنية الزائفة ولا باسم هيئة من الهيئات الصحية.

ولا باسم مصلحة ذاتية.

فالوضوء على هذا الأساس نظافة وزينة، وطهارة وقرية، ودعاء يصحبه تضرع ورجاء.

والمسلم لابد له أن يتزيا باللباس الحسن، اللباس الذى يوارى سوءات الجسد، واللباس الذى يستر عورات القلب لقوله تعالى:

﴿وَلِبَاسُ الْقَوِّى ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾(٢).

(١) رواه الموطأ ١ : ٣١ فى الطهارة باب جامع الوضوء والنسائي ١ : ٧٤، ٧٥.

(٢) سورة الأعراف آية رقم ٣٦.

ومن شعور التقوى لله والحياء منه ينبعث الشعور باستقباح عرى الجسد والحياء منه، ومن لا يستحي من الله ولا يتيقنه لا يهمله أن يتعري أو يدعو غيره إلى العرى، العرى من الحياء والتقوى، والعرى من اللباس وكشف السواة.

قال الشاعر:

إذا المرء لم يلبس ثياباً من التقى قلب عريانا وإن كان كاسيا
وخير لباس المرء طاعة ربه ولا خير فيمن كان لله عاصيا

إن ستر الجسد ليس مجرد اصطلاح وعرف بيئى إنما هى فطرة خلقها الله فى الإنسان.

وليس كما تزعم الدعوات الهابطة التى ترى كشف الجسد والسوءات رجوع بالإنسان إلى أصوله وجدوده القروء الذين يكشفون سوءاتهم ويتسافدون أمام البشر دون حياء أو خجل. فما الذى يمنع الأحفاد أن يفعلوا كما يفعل الأجداد... ٩٩.

﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ ﴾ (١).

إن سياق الآية الكريمة لا يكتفى بالدعوة إلى اتخاذ الزينة عند كل مسجد وإلى الاستمتاع بالطيب من الطعام والشراب، بل يستكر تحريم الزينة التى أخرجها الله لعباده، وتحريم الطيبات أيضاً.

لأن التحريم والتحليل لا يكون إلا بأمر الله تعالى، والله سبحانه وتعالى أحل الزينة لعباده، الزينة المعتدلة من اللباس، وأباح لهم الطيب الحلال من الطعام فى غير سرف ولا مخيلة.

وأما الذى حرمه الله تعالى ونهى عنه فهو ما أشارت إليه الآية الكريمة.

قال تعالى:

(١) سورة الأعراف آية رقم ٣١.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١).

قال الكلبي: كان العرب يطوفون حول البيت عراة الرجال والنساء، ولهم شعر في ذلك ومساجلات، فلما أمرهم الإسلام بستر العورات. لبسوا الثياب وطافوا بالبيت عندها غيرهم المشركون بذلك.

وهكذا يفعل أعداء الإسلام ذلك في كل مكان يعرفون الناس من ثيابهم ويعرفونهم من التقوى والحياء ثم يدعون أن ذلك رقيقاً وحضارة.

إن المسلم مطالب بأن يلبس أحسن الثياب، هذا حق، وأن يختار ما يجمل صورته حتى يظهر في أجمل هيئة. حتى يحبه الله. لأن الله جميل يحب الجمال كما أخبر بذلك الرسول ﷺ.

عن يحيى بن سعيد رضي الله عنه أنه بلغه أن رسول الله ﷺ قال: ما على أحدكم لو اتخذ ثوبين لجمعه سوى ثوبي مهنته (٢) ..

إن المظهر العام لجماعة المسلمين أمر تحرص عليه تعاليم الإسلام، وتحت عليه لأنه يدعو إلى الهيبة والوقار.

فهؤلاء الذين يذهبون إلى المساجد في أثواب مهنتهم عليهم أن يقلعوا عن هذه العادة امتثالاً لقول الرسول ﷺ وكذلك الذين لا يهتمون بشعورهم ولا بشواربهم ولا بلحاهم. تقف تعاليم الإسلام منهم موقف الصد والنفور والعتب والمساءلة ٩٩..

عن زيد بن أسلم- أن عطاء بن يسار أخبره فقال: كان رسول الله ﷺ في المسجد فدخل رجل ثائر الرأس واللحية فأشار إليه رسول الله ﷺ - بيده- أن اخرج من المسجد .

(١) سورة الأعراف آية رقم ٣٣.

(٢) الحديث أخرجه ابن ماجه في الإقامة ٨٢ بلفظ: لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة.

ولقد أراد الرسول ﷺ بذلك أن يصلح الرجل من شعره ولحيته ففعل الرجل ثم رجع فقال ﷺ:

«أليس هذا خير من يأتي أحدكم نائر الرأس واللحية كأنه شيطان»^(١).. ٩٩.

فالرجل الذي يذهب إلى المسجد ولا يلبس أحسن الثياب.

والرجل الذي يذهب إلى دور العبادة، وهو نائر الشعر واللحية.

والرجل الذي يذهب إلى المسجد ولا يمس طيباً ولا يتضمخ به يصد عن مساجد المسلمين.

والرجل الذي تتبعث من جسده الروائح الكريهة.. نتيجة لعدم اغتساله يوم الجمعة، أو الذي يأكل من شجرة الثوم أو البصل عليه أن يعتزل مساجد المسلمين لقول الرسول ﷺ: «من أكل من هذه الشجرة فلا يقرب مساجدنا يؤذينا بريح الثوم»^(٢).

وعن يحيى بن سعيد رحمته الله أن أبا قتادة الأنصاري قال لرسول الله ﷺ:

«إن لي جمعة شعر أفأرجلها».. ٩٩.

فقال رسول الله ﷺ: نعم وأكرمها^(٣).

فكان أبو قتادة ربما دهنها في اليوم مرتين لما قال له رسول الله ﷺ نعم وأكرمها.

ونقول: إن أبا قتادة ما طلب من الرسول ﷺ أن يرجل جمته إلا وقد علم أن رسول الله ﷺ يفعله.

روى محمد بن سعد: أخبرنا الفضل بن دكين قال: حدثنا مندل عن ثور

(١) الحديث أخرجه صاحب الموطأ في الشعر عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار قال: وذكره.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في الأذان ١٦٠ ومسلم في المساجد ٦٨-٧٢ وأبو داود في الأطعمة ٤٠ والنسائي في المساجد ١٦ وابن ماجه في الإقامة ٥٨.

(٣) الحديث أخرجه صاحب الموطأ في الشعر.

عن خالد بن معدان قال:

كان رسول الله ﷺ يسافر بالمشط والمرآة، والدهن والسواك والكحل.

وعن ابن جريج: مشط عاج يمتشط به.

قال ابن سعد: وأخبرنا قبيصة بن عقبة قال: حدثنا سفيان عن ربيع بن

صبيح عن زيد الرقاش عن أنس بن مالك ؓ قال:

«كان رسول الله ﷺ يكثر دهن رأسه، ويسرح لحيته بالماء.

وأخبرنا يزيد بن هارون حدثنا عباد بن منصور عن عكرمة عن ابن

عباس ؓ قال: كانت لرسول الله ﷺ مكحلة يكتحل بها عند النوم ثلاثاً في كل عين^(١).

فتصفيف شعر الرأس وترجيله والاهتمام به وإكرامه أمر لا يرفضه

الإسلام بل يشجع عليه. لأن الله نظيف يحب النظافة.

والتضمخ بالطيب، والمسك والروائح الذكية أمر يوجبه الإسلام، لأن الله

تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً.

والرسول ﷺ يحث جماعة المسلمين على التضمخ بالطيب في كثير من

أوقاتهم فإذا كان الأمر أمر الصلاة كان ذلك من اللوازم التي يجب على

المسلم أن يأخذ نفسه بها.

قال أحد الصحابة- رضوان الله عليهم أجمعين- فإن لم يجد أحدنا

طيباً ٩.

قال ﷺ: ولو من طيب زوجته^(٢).

(١) راجع الترمذى فى الطب ٩ واللباس ٢٣ وابن ماجه فى الطب ٢٦ وأحمد بن حنبل فى المسند ١: ٢٥٤ (حلبى).

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى كتاب الجمعة والترمذى فى أبواب الجمعة وأحمد بن حنبل فى المسند.

وكان الإسلام يرى أن المرأة المسلمة- التي تحب أن ترضى زوجها- وتحرص على ألا يشم منها إلا أطيب ريح عليها ألا تخلو قارورتها من الطيب، لأن الطيب بالنسبة للمرأة من لوازم الزينة.

يقول الإمام القرطبي:

«الإنسان يحب أن يكون جميلاً- في المجتمع الذي يعيش فيه- وذلك حظ النفس لا يلام فيه ولهذا يسرح شعره، وينظر في المرأة، ويسوى عمامته، ويلبس بطانة الثوب الخشنة إلى الداخل، وظهارته الحسنة إلى الخارج، وليس في شيء من هذا ما يكره أو يذم» (١).

وقد روى مكحول رضي الله عنه عن عائشة - أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: كان نفر من أصحاب رسول الله ينتظرونه على الباب، فخرج يريداهم- وفي الدار ركوة ماء، فجعل ينظر في الماء ويسوى لحيته وشعره.

فقلت: يا رسول الله وأنت تفعل هذا؟..

قال: نعم. إذا خرج الرجل إلى إخوانه فليهنئ من نفسه، فإن الله جميل يحب الجمال» (٢).

وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

«لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثال ذرة من كبر».

فقال رجل: يا رسول الله. إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة قال ﷺ:

«إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس» (٣).

(١) راجع تفسير الإمام القرطبي.

(٢) الحديث أخرجه أبو داود في اللباس ٢٦ والترمذي في كتاب البر ٦٠ وأحمد بن حنبل في المسند ١: ٢٨٥، ٤٢٧ (حلي).

(٣) الحديث أخرجه أبو داود في اللباس ٢٦ والترمذي في كتاب البر ٦٠ وأحمد بن حنبل في المسند ١: ٢٨٥، ٤٢٧ (حلي).

وإذا كان ذلك كذلك فقد دلت الآية على أن المرء عليه أن يلبس الجميل من الثياب، وأن يتجمل بها- وخصوصاً في أماكن العبادة، وأيضاً عند لقاء الناس وزيارة الإخوان.

قال أبو العالية:

كان المسلمون إذا تزاوروا تجملوا.

وقد اشترى تميم الداري حلة «ثوب» بألف درهم، كان يصلى فيها، وكان مالك بن دينار يلبس الثياب العذنية الجياد.

وكان ثوب الإمام أحمد بن حنبل يشتري بنحو دينار.

أين هذا ممن يؤثرون الخشن من الثياب، والمرقعات من الأردية، ويقولون: ﴿وَلَبَّاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ (١).

أترى أن من تجملوا بالثياب، وظهروا بالمظهر الذي يليق بالمسلم- تركوا لباس التقوى؟ أترى أن ثيابهم النظيفة، وزيهم الجميل قد حال بينهم وبين أداء التكاليف الشرعية التي فرضها الله عليهم؟

إن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده.

ويقول أمراً عبده:

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (٢).

والتحدث بنعمة الله إظهارها في غير فخر ولا خيلاء، فيكون ذلك صورة من صور الشكر للمنعم.

قال خالد بن شاذب: شهدت الحسن وأتاه فرقد فأخذه الحسن بكسائه فمده إليه وقال: يا فريقد يا ابن أم فريقد: إن البر ليس في هذا الكساء الخشن إنما البر ما وقر في الصدر وصدقته العمل.

ودخل محمد ابن أخى معروف الكرخى على أبى الحسن بن سيار وعليه

(٢) سورة الضحى آية رقم ١١.

(١) سورة الأعراف آية رقم ٢٦.

جبة خشنه فقال له أبو الحسن:

«يا أبا محمد، صوفت قلبك أو جسمك؟» صوف قلبك والبس الفوهى على الفوهى.

هذا بالنسبة للرجال أما بالنسبة للنساء، فالزينة من ألزم لوازم المرأة وكل أنثى مولعة بأن تكون جميلة، وأن تبدو جميلة، والزينة، وإن كانت تختلف من عصر إلى عصر، ولكن أساسها فى الفطرة واحد، وهو الرغبة فى تحصيل الجمال أو استكمالها وإظهاره للرجال.

والإسلام لا يقاوم هذه الرغبة الفطرية ولكنه ينظمها ويضبطها ويجعلها تتبلور فى الاتجاه بها إلى رجل واحد هو شريك الحياة، ويشترك معه فى الاطلاع على بعضها المحارم المذكورون فى قوله تعالى:

﴿وَلَا يُدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَىٰ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَىٰ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولَىٰ الْإِرَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْطِفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ (١).

نقول: بأن الإسلام لا يقاوم هذه الرغبة الفطرية لدى الأنثى، ولكنه ينظمها ويضبطها: فيحرم عليها أن تظهر من زينتها لغير المحارم. يقول الله تعالى:

﴿وَلَا يُدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ (٢).

والمؤمنات اللواتى تلقين هذا النهى وقلوبهن مشرقة بنور الله لم يتلكان فى الطاعة على الرغم من رغبتهن الفطرية فى الظهور بالزينة والجمال. عن صفية بنت شيبة قالت: بينما نحن عند عائشة قالت: فذكرن نساء قريش وفضلهن فقالت عائشة رضي الله عنها:

(٢) سورة النور آية رقم ٣١.

(١) سورة النور آية رقم ٣١.

«إن لنساء قريش لفضلاً، وإنى والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار أشد تصديقاً لكتاب الله ولا إيماناً بالتزليل منهن لما نزلت في سورة النور: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾».

انقلب رجالهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم فيها، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته، وعلى كل ذى قرابته، فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرحل فاعتجرت به تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله من كتابه. فأصبح وراء رسول الله ﷺ - معجرات - كان على رؤوسهن الغريبان^(١).

لقد رفع الإسلام ذوق أبنائه فلم يعد الطابع الحيوانى للجمال هو المستحب بل الطابع الإنسانى المذهب، وجمال الكشف الجسدى جمال حيوانى يهفو إليه الإنسان بحس الحيوان، فأما جمال الحشمة فهو الجمال النظيف الذى يرفع الذوق الجمالى ويجعله لائقاً بالإنسان، ويحيطه بالنظافة والطهارة فى الحس والجمال.

والإسلام الذى كرم المرأة بالحجاب وصنعها على عينه ليس بدعاً فى الديانات السماوية، فمن يقرأ كتب العهد القديم والأنجيل يجد الحجاب كان مأموراً به بين العبرانيين من عهد إبراهيم عليه السلام وظل معروفاً بينهم فى الأصحاح الرابع والعشرين من سفر التكوين عن «رفقه» أنها رفعت عينيها فرأت إسحاق فنزلت عن الجمل، وقالت للعبد: من هذا الرجل الماشى فى الحقل للقائى؟..

قال العبد: هو سيدى فأخذت البرقع وتغطت.

وفى الأصحاح الثالث من سفر أشعيا: أن الله سيعاقب بنات صهيون على تبرجهن والمباهاة برنين خلاخيلهن بأن ينزع عنهن زينة الخلاخيل والضفائر والحلق والأساور والبراقع والعصائب.

ويقول بولس الرسول فى رسالة «كورنثوس» الأول:

(١) الحديث أخرجه الترمذى فى مناقب الأنصار والبخارى فى التفسير سورة ٢٩: ١٢.

«إن النقاب شرف المرأة».

ويرى الأستاذ السطوحى: أن المحاور الرئيسية فى فلسفة الحجاب هى:

أ- تطهير الوسط الاجتماعى من كل محركات الشهوة.

ب- أن تكون العلاقات الجنسية فى دائرة الزواج ليس غير.

ج- أن تكون دائرة عمل الرجل منفصلة عن دائرة عمل المرأة.

د- القوامه فى الأسرة تكون للرجال لقوله تعالى: «الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى

النِّسَاءِ» (١).

وقال تعالى: «وَلَا يَضُرُّنَّ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ» (٢).

يقول صاحب الظلال: «وانها لمعرفة عميقة بتركيب النفس البشرية وانفعالاتها واستجاباتها فإن الخيال ليكون أحياناً أقوى فى إثارة الشهوات من العيان، وكثيرون تثير شهواتهم رؤية حذاء المرأة أو ثوبها أو حليها أكثر مما تثيرها رؤية جسد المرأة ذاته. كما أن كثيرين يثيرهم طيف المرأة يخطر فى خيالهم أكثر مما يثيرهم شخص المرأة بين أيديهم. كما أن كثيرين يثيرهم وسوسة الحلى أو شمام ذى العطر.. ويهيج أعصابهم».

ومن هنا كان قول الرسول ﷺ: «أيما امرأة استعطرت فخرجت على قوم يجدوا ريحها فهى زانية وكل عين زانية».

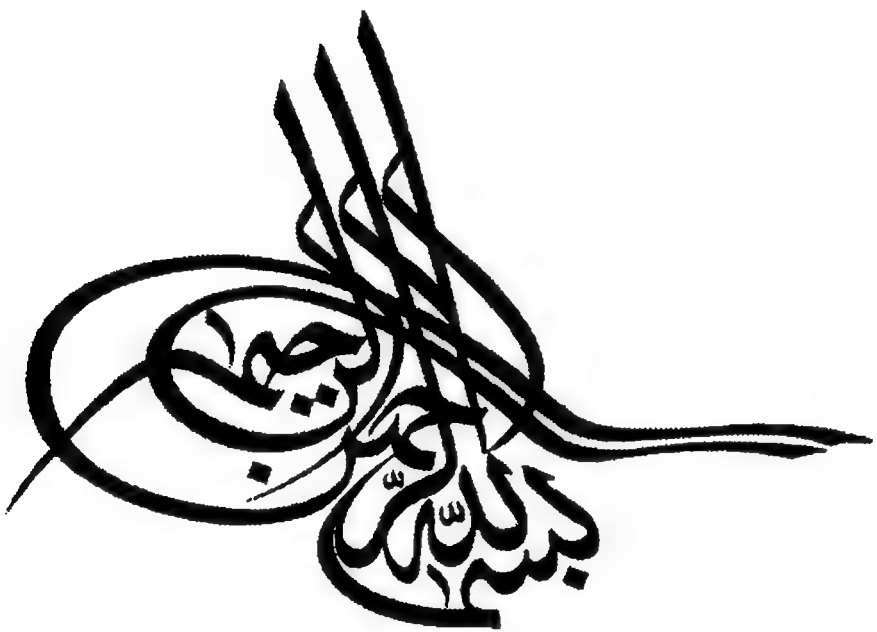
يقول الإمام القرطبى: أمر الله سبحانه وتعالى النساء بالابتعاد عن زينة الزينة للناس إلا ما استثناء من الناظرين فى الآية حذراً من الافتتان ثم استثنى ما يظهر من الزينة.

وقال ابن خويز منداد من المالكية:

إن المرأة إذا كانت جميلة وخيف من وجهها وكفيها الفتنة فعليها ستر ذلك، فإن كانت عجوزاً أو مقبحة جاز أن تكشف وجهها وكفيها.

(١) سورة النساء آية رقم ٣٤. (٢) سورة النور آية رقم ٣١.

أروى بنت حرب بن أمية
زوجة أبي لهب



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى:

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ (١) مَا أَغْنَىٰ
عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا
ذَاتَ لَهَبٍ ۝ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ
۝ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝ (٥) ﴾

(سور المسد كاملة)

أقوال العلماء والمفسرين فى نزول هذه الآية

قال كثير من رجال التفسير والحديث نزلت هذه السورة فى أبى لهب وزوجه.

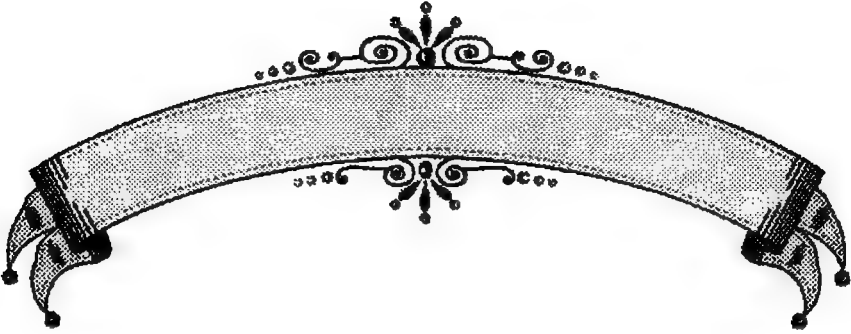
قال ذلك الإمام القرطبى فى التفسير ١٠: ٢٣٤ - ٢٣٥، ٢٣٦.

وقاله الإمام الطبرى فى التفسير ٣٠: ٢٣٦ - ٢٣٧ - ٢٣٨.

وقاله ابن كثير فى التفسير ٤: ٦٠٣، ٦٠٤، ٦٠٥.

وقاله ابن الجوزى فى زاد المسير فى علم التفسير ٩: ٢٥٨، ٢٥٩.

فمن هى زوج أبى لهب..؟



ام جميل: قال ابن العري: العوراء أم قبيح
وكانت عوراء وتمشى بالنميمة والوشاية بين الناس
قال الشاعر:

إن بنى الأدرم حمالوا الحطب
هم الوشاة فى الرضا وفى الغضب
عليهم اللعنة تترى والحرب





حياتها ونشأتها

هى أروى بنت حرب بن أمية.

والدها: حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف من سادات العرب وفرسانها ومن أهل الرأى والمشورة والحكمة فيها.

وزوجها: أبو لهب واسمه عبد العزى، وهو ابن عبد المطلب عم النبى ﷺ وكان أشد المناوئين والمحاربين لدعوة الإسلام.

وولداها: عتبة ومعتب تزوج الأول رقية ابنة الرسول ﷺ وتزوج الثانى أم كلثوم بنت الرسول ﷺ فلما كانت دعوة الرسول ﷺ ونزلت سورة ﴿تَبَّ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ جلست أم جميل توغر صدريهما وتدفعهما دفعاً إلى طلاق ابنتى رسول الله ﷺ ورضخ الابنان للرغبة الشريرة لأمهما.

ويقال إن عتبة مضى إلى رسول الله ﷺ وقد امتلأت نفسه بالحق الذى سكبته أمه فيهما ليقول له: طلقت ابنتك وناوأى دينك ومضى فى سفاهته أمام رسول الله ﷺ.

فدعا رسول الله ﷺ قائلاً:

«اللهم سلط عليه كلباً من كلابك» فافترسه أسد فى رحلة له إلى

الشام...٩٩»

وأخوها صخر بن حرب (أبو سفيان) القرشي الأموي، أعطاه الرسول ﷺ يوم فتح مكة، مائة بغير وأربعين أوقية من الذهب.

فقال أبو سفيان: والله يا رسول الله إنك لكريم فداك أبى وأمى، ولقد حاربتك نعم المحارب، ولقد سالمتك يا رسول الله فنعم المسالم أنت. جزاك الله خيراً.

وابنة أخيها رملة بنت أبى سفيان، زوج النبي ﷺ أسلمت وهاجرت مع زوجها إلى أرض الحبشة، وهناك تنصر زوجها. فماذا تفعل رملة في ديار الغريبة؟ أغلقت الباب على نفسها في عزلة قاتلة.

وفي ذات يوم قرع بابها الموصد، ودخلت عليها جارية النجاشي لتتقل إليها خطبة الرسول ﷺ لها.

وفي ذات يوم فوجئت رملة بأبيها يدخل بيتها في المدينة فجأة، وكانت لم تره منذ هجرتها إلى الحبشة. وكان أبو سفيان مرسلًا من مكة للتفاوض مع محمد ﷺ فخرج على ابنته ليراها.. ووقفت رملة تجاهه غارقة في الحيرة والقلق، ولم يخرج من صدرها صوت.

فأعفاها والدها من أن تأذن له بالجلوس، وتقدم من تلقاء نفسه ليجلس على الفراش، لكنه فوجئ عندما رأى ابنته قد وثبت على الفراش فأخذته من تحته وطوته وألقت به بعيداً.

فسألها أبو سفيان حائراً: يا بنية والله ما أدري أرغبت بى عن هذا الفراش أم رغبت به عنى..؟

قالت رملة: بل هو فراش رسول الله. وأنت رجل مشرك نجس، فلم أحب أن تجلس عليه.

فقال مرتجفاً و..م يعصر قلبه من المرارة: لقد أصابك بعدى يا بنية شر كثير، ثم اندفع خارج البيت غاضباً.

وابن أخيها معاوية بن أبي سفيان- أحد كتاب الوحي- للرسول ﷺ وولاه
عمر بن الخطاب ولاية الشام بعد موت أخيه يزيد بن أبي سفيان ثم ذهب
عمر إلى الشام ليتفقد أحوال الرعية. فلتقاه معاوية في موكب عظيم، فلما
دنا منه قال له:

أنت صاحب الموكب العظيم..؟

قال: نعم يا أمير المؤمنين.

قال: مع ما يبلغني من وقوف ذوى الحاجات ببابك؟

قال: مع ما يبلغك من ذلك.

قال: ولم تفعل هذا؟

قال معاوية يا أمير المؤمنين نحن بأرض جواسيس العدو بها كثيرة،
فيجب أن نظهر من عز السلطان ما نرهبهم به. فإن أمرتني فعلت، وإن
نهيتني انتهيت..؟

قال عمر:

ما أسألك عن شيء إلا وجدت له مخرجاً، فإن كان ما قلت حقاً فهو رأى
أريب، وإن كان باطلاً إنه لخدعة أديب..؟

قال: فمرني يا أمير المؤمنين.

قال عمر: لا أمرك ولا أنهاك.

إن أروى بنت حرب من بيت حسب ونسب وزوج عم النبي ﷺ وهناك
مصاهرة مباشرة بينها وبين محمد قبل بعثته حيث تزوج ولداها ابنتي محمد
بن عبد الله- وهما يتجاوران في السكن.. وإذا كان الأمر كذلك فما سر
العداوة بينهما، ومتى بدأت، وما أسبابها..؟ ولماذا تفاقمت حتى وصلت إلى
القطيعة وشن الحرب الكلامية في كل وقت وحين؟ ويرد القرآن الكريم على
تلك الحرب التي لا تتوقف بسورة من القرآن الكريم.

إن أوثق المصادر التي بين أيدينا تقول: لقد تتابع الوحي على الرسول ﷺ ونزل قول الله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (١).

قال رسول الله ﷺ، عرفت أني إن بادرت بها قومي رأيت منهم ما أكره فصمت.

فجاءني جبريل عليه السلام فقال: يا محمد إنك إن لم تفعل ما أمرت به عذبك ربك.

قال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - فدعاني رسول الله فقال: يا علي: إن الله تعالى قد أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، فاصنع لنا يا علي شاة على صاع من طعام وأعد لنا شوب لبن ثم اجمع لي بني عبد المطلب ففعلت فاجتمعوا إليه وهم يومئذ أربعون رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصون رجلاً فيهم أعمامه: أبو طالب، وحمزة، والعباس، وأبو لهب، فقدمت إليهم تلك الجفنة فأخذ منها رسول الله ﷺ جذبة فشققها بأسنانه ثم رمى بها في نواحيها وقال: كلوا بسم الله.

فأكل القوم حتى نهلوا عنه ما يرى إلا آثار أصابعهم، والله إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها. ثم قال رسول الله ﷺ اسقهم يا علي، فجاء بذلك القعب فشربوا منه حتى نهلوا جميعاً وإيم الله إن كان الرجل منهم يشرب مثله.

ثم قال رسول الله ﷺ يا بني عبد المطلب إني والله ما أعلم شاباً من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتم به، إني قد جئتم بخير الدنيا والآخرة. وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرنى على هذا الأمر على أن يكون آخى كذا وكذا وكذا.

قال علي بن أبي طالب: فأحجم القوم عنها جميعاً فقلت- وإني لأحدثهم سنناً وأمريضهم عيناً وأسظمهم بطناً وأخمشهم ساقاً: أنا يا نبى الله أكون وزيرك عليه.

(١) سورة الشعراء آية رقم ٢١٤.

فأخذ بيدي ثم قال: إن هذا أخى فاسمعوا له وأطيعوا.
ثم خرج القوم يضحكون ويقولون لأبى طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع.

ثم عاد أبو لهب وقال: ماذا أعطى إن آمنت بك يا محمد؟
فقال: كما يعطى المسلمون.
قال: ما لى عليهم فضل؟
قال: وأى شئ تبغى؟
فخرج مغضباً وبئت أمراً.

محمد ﷺ يدعو قومه إلى الإسلام

وذات صباح استيقظت أم جميل وزوجها أبو لهب على صوت يهتف يا صباحاه. يا صباحاة.

قالت أم جميل: يا عبد العزى من صاحب هذا الصوت الذى يدعو الناس فى الصباح حتى يتجمعوا إليه؟

ولكن عبد العزى أخذ يتقلب فى فراشه غير مصغ لسؤال زوجته؟
فما كان من أم جميل إلا أن كررت السؤال مرة أخرى علّ زوجها يجيبها إلى ما طلبت وذلك لكى يرضى تطلعها إلى معرفة هذا المنادى ولكن الرجل كانت آثار النوم لا زالت تشده إلى فراشه فنهرها قائلاً وما شأنى بمن يصيح فى هذه الساعة المبكرة.

ولكن إلحاح المرأة أطار النوم من عينيه فأخذ يرهف أذنيه حتى يمكنه أن يميز صوت الذى يصيح وينادى.

ثم قطب بين حاجبيه متذكراً من صاحب هذا الصوت يا ترى؟

ولم تمض غير لحظة حتى قال لها: إنه صوت محمد ابن أخيه. فذهب مسرعاً وهو يقول لا بد أن محمداً يدعونا لأمر.

وردت أم جميل على ذلك قائلة: ولعل في دعوته هذه خيراً يكون لنا منه النصيب الأوفر.

خرج أبو لهب مسرعاً واتجه إلى الصفا حيث ينبعث الصوت فوجد محمداً واقفاً وهو يقول: يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني عبد مناف يا بني عبد المطب- فاجتمعوا إليه.

فقال: أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟..

قالوا: نعم ما جرينا عليك كذباً قط.

قال: فإنني نذير لكم بين يدي عذاب شديد.

فقال أبو لهب: تباً لك أما جمعتنا إلا لهذا.

إن أبا لهب تصور أن ما جاء به محمد هو الرئاسة والملك، فكيف يسبقه محمد إليها، وهو أحق بالأمر منه.

ولو وافق أبو لهب على أن يكون محمد هو صاحب الملك والصولجان ويضع يده على مقاليد البيت الحرام، وتقدم له القرابين والنذور وكل ما يأتي به العرب وغيرهم إلى هذا البيت فمحال أن يرضى هذا أم جميل. إنها امرأة يأكل الحقد قلبها فكيف توافق على ذلك إن هذا الأمر أحق الناس به- في رأيها- زوجها عبد العزى، فإن تنازل عنه يكون من حق ولديها معتب وعتبة.

زوجة أبي لهب تعلن الحرب على محمد

وما كاد أبو لهب يعود إلى الدار ويخبرها أن محمداً هو الذي كان يصيح ويطلب المبايعة من قومها حتى يضع على رأسه التاج والصولجان حتى جن جنون المرأة وتحولت إلى شيطان رجيم.

تشيع الشائعات الباطلة ضد محمد، وتتهمه بكل نقيصة، وتحاول أن تؤذيه في نفسه، وفي كل ما يحيط به، أو يكون قريباً منه، كما فعلت مع ابنتيه- رضوان الله عليهما . وكانت تتبع الأساليب الشيطانية مع أتباع الرسول ﷺ حتى ينفضوا من حوله، وتفرى زوجها بأن يتقول عليه الأقاويل ليصد الناس عن دعوته .

أبو لهب يصرف الوفود عن لقاء محمد

يقول عبد الرحمن بن كيسان- رضي الله عنه :

«كان إذا وفد على النبي ﷺ وفد انطلق إليهم أبو لهب فيسألونه عن رسول الله ﷺ . ويقولون له أنت عمه وصنو أبيه وأعلم به منا ؟؟. فيحقره ويكذبه.

وإذا جاء وفد آخر يقول لهم أبو لهب مثل ما قال للوفد الأول ولكن أفراد الوفد قالوا لا ننصرف حتى نرى محمداً ونسمع كلامه . فقال أبو لهب: إنا لم نزل نعالجه ولا نسمح له بالمقابلة حتى يشفى تماماً ؟؟.

وأخبر الرسول ﷺ بما تقوله أبو لهب فاكتأب لذلك فأنزل الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يُدَا أَيْ لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ (١) السورة كاملة.

فلما سمعت امرأته ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة، ومعه أبو بكر- رضي الله عنه - وفي يدها حجر، فلما وقفت عليه أخذ الله بصرها عن رسول الله ﷺ فلا ترى إلا أبا بكر. ٩٩.

(١) سورة المسد آية رقم ١.

فقالت: يا أبا بكر، إن صاحبك قد بلغنى أنه يهجونى، والله لو وجدته لضربت بهذا الحجر فاه. والله إنى لشاعرة: ثم قالت:

مذمماً عصينا

وأمره أبينا

ودينه قايينا

ثم انصرفت. فقال أبو بكر يا رسول الله أما تراها رأتك..؟
قال: ما رأتى، لقد أخذ الله بصرها عنى.

لقد أخذ الله بصرها، وعما قريب سيأخذ الله تعالى روحها بالكامل حتى تنال العقاب الأليم جزاء ما اقترفته فى حق رسوله الكريم، ومشيتها بالنميمة بين الناس لتأجج الخصومة بينهم. تمشى بالنميمة التى يقول عنها الرسول ﷺ.

«النميمة تأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب» ولذلك وصفها القرآن الكريم بـ «حمالة الحطب» وقال ﷺ:
«ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً».

وقال سعيد بن جبير: «حمالة الحطب» أى حمالة الخطايا والذنوب من قولهم: فلان يحتطب على ظهره. دليله قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ (١).

وقال عطاء بن السائب: ذكرت للشعبى قول النبى ﷺ: «لا يدخل الجنة سافك دم، ولا مشاء بنميمة ولا تاجر يربى».

فقلت يا أبا عمرو: قرن النمام بالقاتل وأكل الربا..؟

فقال: وهل تسفك الدماء، وتنتهب الأموال وتهيج الأمور العظام إلا من

أجل النميمة؟؟

(١) سورة الأنعام آية رقم ٢١.

وسئل الحسن عن قوله تعالى:

﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ (١)

وقوله: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ (٢).

هل كان ذلك في أم الكتاب، وهل يستطيع أبو لهب وزوجه ألا يصليا في

النار..؟

فقال: والله ما في استطاعتهم الخلاص من النار، وأن ما ذكره الله تعالى في كتابه لهو في أم الكتاب من قبل أن يخلق أبو لهب وزوجه ويؤيده قول موسى ﷺ لآدم:

«أنت الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسكنك جنته وأسجد لك ملائكته أغويت الناس وأخرجتهم من الجنة..؟»

قال آدم:

وأنت يا موسى الذي اصطفاك الله بكلامه، وأعطاك التوراة تلومني على أمر كتبه الله عليّ قبل أن يخلق السموات والأرض..؟

قال النبي ﷺ: فحج آدم موسى» (٣).

(٢) سورة المسد آية رقم ٥.

(١) سورة المسد آية رقم ٣.

(٣) الحديث رواه البخاري ومسلم والترمذي.

أم جميل أسطورة الحقد ومنبعه

لقد كانت أم جميل أسطورة الحقد ومنبعه وكان يتمثل ذلك في أخذ الشوك الذي تجمعها من الصحراء وتضعه في طريق الرسول ﷺ وكلما فعلت ذلك تحس بسعادة غامرة، تلف كل كيائها. وكانت هذه السعادة تدفعها للاستيقاظ مبكرة حتى تجمع الشوك وتضعه أمام باب محمد قبل خروجه للذهاب إلى بيت الله الحرام.

ولكن في هذا اليوم ماذا جرى لها إنها لا تستطيع الحركة، إن جسمها يكاد يكون محملاً بالحجارة فهو ثقيل عليها لا تستطيع أن تنهض من ثقله، ولكن لا بأس لقد أخذت تقاوم وتشد من عزمها ويفريها شيطانها بالنهوض لجمع الشوك وإيذاء محمد.. ولقد أرادت أمراً وأراد الله سبحانه وتعالى أمراً آخر. فانكفأت على وجهها على الشوك الذي جمعته فأدمى وجهها وجسمها ولفظت أنفاسها الأخيرة، وذهبت إلى ربها وخالقها لتنال جزاء ما فعلت من إيذاء لرسوله لا ينتهى، وشر لأتباعه لا يتوقف.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾^(١).

وعاش الرسول ﷺ بعد أن أخذ الله أعداء دينه أخذ عزيز مقتدر. لإبلاغ الأمانة، وإتمام الرسالة حتى دخل الناس جميعاً في دين الله أفواجاً ونزل قول الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(٢).

فأين أم جميل الحاقدة؟ وأين كيدها الضعيف؟ وأين أبو لهب؟ وأين الذين توعدهم الله تعالى بأنهم حصب جهنم؟ لقد ذهب الجميع وبقي دين الله وشرعه ترفرف أعلامه وينوده فوق أركان الأرض الأربعة، حتى يرث الله تعالى الأرض ومن عليها.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾^(٣).

(٢) سورة المائدة آية رقم ٣.

(١) سورة الفجر آية رقم ١٤.

(٣) سورة الطلاق آية رقم ٣.



المرأة وقيامها برسالة الشيطان

المرأة من يوم أن أوجدها الله تعالى على ظهر البسيطة، وهى الأم الحنون لأبنائها، والزوجة الودود لزوجها، والأخت العطوفة لإخوتها.

ويشهد التاريخ أن دورها عبر قنواته كان هو الدور المشارك فى تبعات الحياة حلوها ومرها، وما كان يمكن للحياة أن تمتد وتستقر عبر القرون المتتابعة من عمر الكرة الأرضية بدون النساء، الحاملات للأجنة، الحاضنات للطفولة، الصانعات للبطولة.

ولكن قلة قليلة من هؤلاء النسوة كن يحملن رسالة الشيطان وينفذن أوامره، ويحملن معه معول الهدم لتدمير كل ما هو نافع وجميل ويحدثنا القرآن الكريم عن مجموعة من النسوة أتباع الشيطان ولقد كانت اثنتان منهن زوجتين لنبيين قال تعالى:

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطَ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾^(١).

لقد كان نوح ﷺ رسولا نبيا يدعو لعبادة الواحد الأحد قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾^(٢).

ولكن زوجته كانت تعمل ضد دعوته، وتدفع الآخرين لمحاربته، وتدعو الجبارين من قومها للتكيل بمن اتبع رسالة زوجها وترك عبادة الأصنام وتسخر من زوجها ومعها الملاء من قومها، وهو يصنع سفينة النجاة لمن آمن به

(١) سورة التحريم آية رقم ١٠.

(٢) سورة الأعراف آية رقم ٥٩.

واتبع رسالته . قال تعالى :

﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ (١).

وسخر المؤمنون من الكافرين الذين لم يؤمنوا برسالة نوح ﷺ ومعهم ابنه وزوجته . قال تعالى :

﴿ وَحَالِ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ (٢).

وامرأة لوط ﷺ كفرت برسالة زوجها وتمردت على خالقها وتابعت قومها وهم يأتون الفاحشة، وكانت جاسوساً ضد المؤمنين لهؤلاء الذين يتسمعون لأخبارها وهم يجلسون في ناديتهم لفعل الموبقات قال الله تعالى :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٨) أَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّتُمْ بَعْدَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٣).

ونزل عذاب الله بزواج لوط ﷺ قال تعالى :

﴿ فَتَجَنَّبَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴾ (٤).

وزوجة أبى لهب (أم جميل) التى وصمها القرآن بوصمة الشرك والكفر ووصفها بالمشى بالنميمة للتفريق بين الناس، وادعت على الرسول ﷺ ما لم يكن يقوله أو يفعله، واتهمته هى وزوجها بالسحر والجنون وأذت رسول الله ﷺ بتطليق بنتيه من ابنيها، وأغرّت زوجها بمحاربة دعوة الرسول إلى آخر رمق من حياتهما قال تعالى :

﴿ وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ ﴾ (٥).

(٢) سورة هود آية رقم ٤٣ .

(١) سورة هود آية رقم ٢٨ .

(٤) سورة الشعراء الآيات ١٧٠ - ١٧٢ .

(٣) سورة العنكبوت الآيتان ٢٨ - ٢٩ .

(٥) سورة المسد الآيتان ٤ - ٥ .

وفى زمن عيسى عليه السلام روى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بعث عيسى ابن مريم يحيى بن زكريا عليهما السلام فى اثنى عشر من الحواريين يعلمون الناس الدين ويفقونهم فى شرع ربهم، وكان يحيى محبوباً عند ملك إسرائيل فكان يكرمه ويدنيه من مجلسه، ويستشير به فى أمره، ولا يقطع أمراً دونه، وأن هذا الملك رغب أن يتزوج ابنة زوجته. فسأل يحيى عن ذلك فنهاه عن نكاحها.

وقال: لست أرضاها لك.

فبلغ ما قاله يحيى أم الفتاة، فحققت على يحيى حين نهى الملك أن يتزوج ابنتها، فعمدت إلى ابنتها حين جلس الملك على شرابه، فألبستها ثياباً رقاقاً حمراً، وطيببتها، وألبستها من الحلى الشيء الكثير، وجعلتها عروساً مجلوة، ثم أرسلتها إلى الملك، وأمرت أن تسقيه، وأن تتعرض له فإن أرادها على نفسها أبت عليه، حتى يعطيها ما تطلب، فإذا أعطاها ذلك سألتها أن يؤتى لها برأس يحيى بن زكريا..؟

وحفظت الفتاة الدرس جيداً وأخذت تسقيه وتعرض له، فلما أخذ فيه الشراب أرادها على نفسها.

فقالت: لا أفعل حتى تعطينى ما أسألك..؟

قال: ما تسألينى..؟

كيد المرأة وقتل زكريا عليه السلام

قالت: أسألك أن تبعث إلى يحيى بن زكريا. فأتى برأسه فى هذا الطست.

فقال: ويحك سلىنى غير هذا ٩٠٠

قالت: ما أريد أن أسألك إلا هذا.

قال: فلما أبت عليه بعث إليه فاتى برأسه، والرأس يتكلم، حتى وضع بين يديه وهو يقول: لا تحل لك، لا تحل لك.

فلما أصبح إذا دمه يغلى، فأمر بتراب فألقى عليه، فرقى الدم فوق التراب يغلى، فألقى عليه التراب أيضاً، فارتفع الدم فوقه، فلم يزل يلقى عليه التراب حتى بلغ سور المدينة وهو فى ذلك يغلى. حتى جاء بختنصر وقتل مقتلة عظيمة عندها حتى سكن الدم فكف يده عن القتل لأن الله عز وجل إذا قتل نبي من الأنبياء لم يرض حتى يقتل من قتله، ومن رضى بقتله. قال الله تعالى فى بنى إسرائيل (١):

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تُقْفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (٢).

وإذا كانت هذه المرأة الكافرة أغرت عدو الله الملك بقتل نبي من أنبيائه فعاقبه الله تعالى بسلب ملكه وخراب دولته. فلقد كانت امرأة أخرى فى عصر سابق على هذا العصر، عصر موسى عليه السلام وكانت تزاول الخنا والفجور وكان يجاور موسى قريب له كفر بنعمة الله وتناول على خلقه، وأذى موسى وهو الذى ذكره القرآن قال تعالى:

(١) تاريخ الطبرى ١: ٥٨٩ - ٥٩٠.

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١١٢.

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُتُوبِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١).

قارون وحقده على موسى ﷺ

هذا الرجل الذي أعطاه الله كل شيء كان قلبه يمتلئ حقداً على موسى ﷺ فيلجأ إلى الخديعة والمكر ليشوه بهما حياة موسى حتى ينفض أتباعه عنه فلجأ إلى هذه المرأة وقال لها:

هل لك أن أموالك وأعطيك وأخلطك بنسائي على أن تأتيني والملا من بنى إسرائيل عندي فتقولى: «يا قارون ألا تنهى عنى موسى...»؟

قالت: بلى!!

فلما جلس قارون وجاءه الملا من بنى إسرائيل أرسل إليها فجاءت وقامت بين يديه، فقلب الله قلبها، وأحدث لها توبة.

فقالت فى نفسها: لا أجد اليوم توبة أفضل من ألا أؤذى رسول الله وأعذب عدو الله فقالت:

«إن قارون قال لى: هل لك أن أموالك وأعطيك وأخلطك بنسائي على أن تأتيني والملا من بنى إسرائيل عندي فتقولى: يا قارون ألا تنهى عنى موسى، فلم أجد توبة أفضل من ألا أؤذى رسول الله، وأعذب عدو الله.

فلما تكلمت بهذا الكلام أسقط فى يدي قارون ونكس رأسه وسكت عن الملا وعرف أنه قد وقع فى هلكة، فشاع كلامها فى الناس، حتى بلغ موسى، فاشتد غضب موسى فتوضأ من الماء وصلى ويكى. وقال: «يارب عدوك لى مؤذ أراد فضيحتى وشيئى، يارب سلطنى عليه فأوحى الله إليه أن مَرُّ الأرض بما شئت تطعك...»؟

(١) سورة القصص الآيتان ٧٦ - ٧٧.

انتقام موسى من قارون

فجاء موسى إلى قارون، فلما دخل عليه عرف الشر في وجه موسى له.

فقال له: يا موسى ارحمني.. ٩٩٠

قال موسى: يا أرض خذيه..

قال: فاضطربت داره وساخت بقارون وأصحابه إلى الكعبين وجعل

قارون يقول: يا موسى ارحمني.

قال موسى:

يا أرض خذيه (١)

فخسف به وبداره وأصحابه قال الله تعالى:

﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيُكَانُّ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيُكَانَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢) تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٢)

ونتساءل كم في عصرنا الراهن أمثال زوجة نوح وزوجة لوط لا يستمعون

لكتاب الله ولا يكن لهم فيه عظة وعبرة.. ٩٩٠

وكم من مجتمعاتنا المعاصرة أمثال زوجة أبي لهب التي تؤذي جيرانها

وتمشي بالنميمة بينهم، وتقطع صلوات الرحم، وتعيث في الأرض فساداً إنهن

كثُرَّ يستعصين على الحصر والعد.

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبري ١: ٤٤٩-٤٥٠ بتصريف.

(٢) القصص آية رقم ٨١-٨٢.

وكم فى مجتمعاتنا التى تدعى الرقى والتمدن أمثال هذه المرأة التى كانت أول أمرها تأتى الخنا والفجور ثم أراد الله توبتها:

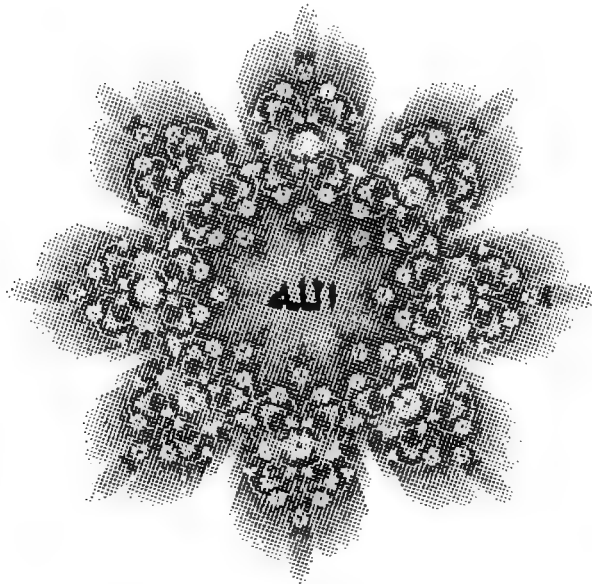
﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ (١).

فقالت كلمة حق ونطق لسانها بالصدق وبرأت ساحة النبى- فذكرها التاريخ فى كتبه وأسكنها الله فسيح جناته..؟

فمتى تتوب بعض نسائنا عن معصية الله، ويتركن الخنا والفجور ثم يعدن إلى ساحة الإيمان ويستجبن لنداء الله تعالى: ﴿ففرروا إلى الله﴾.

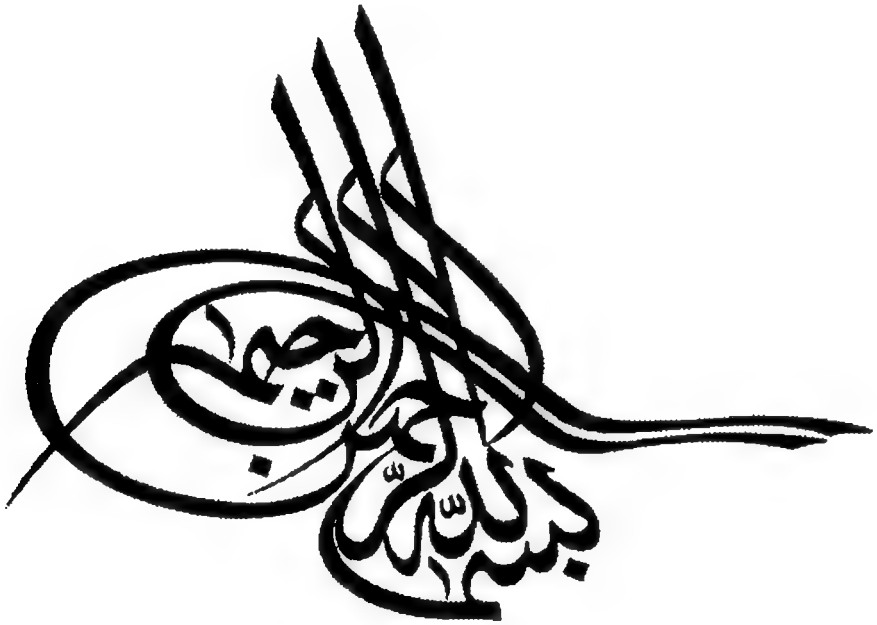
فمتى نفر إليه..؟ ومتى نلجأ إليه. ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا متى يا رب إنا لمنتظرون.

عندها يفرح المؤمنون والمؤمنات بنصر الله وعودة المجتمع المسلم الملتزم بتعاليم ربه إلى دنيا الناس.



(١) سورة التوبة آية رقم ١١٨.

زليخا زوجة عزيز مصر



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى:

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ
وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ
مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا
يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ
بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ
لَنَصْرَفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ
عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ . (يوسف: ٢٣ - ٢٤)

أقوال العلماء والمفسرين فى نزول هذه الآية

قال كثير من رجال التفسير والحديث نزلت هذه الآيات فى «زليخا»
امراة عزيز مصر.

قال ذلك الإمام القرطبى.

وقاله الإمام ابن كثير فى التفسير.

وقاله ابن جرير الطبرى فى التفسير.

وقاله ابن الجوزى فى زاد المسير فى علم التفسير.

فمن هى «زليخا» امراة عزيز مصر..؟



حياتها ونشأتها

زليخا زوجة العزيز- عزيز مصر- تلك الفتاة الجميلة، ذات القوام المشوق، وصاحبة الصدر الناهد، والعيون النجل، والخصر الضامر زينة الزوجات فى الطبقة «الأرستقراطية» فى دولة فرعون المعظم.

لماذا يصمت التاريخ صمتاً مريباً عن ذكر أيام طفولتها، وفوران شبابها وسعادة دنياها، وهى تخطو إلى عرش الأنوثة؟..

ولماذا يترك التاريخ هؤلاء الذين يريدون تجلية هذه السيرة وتوضيحها فى حيرة من أمرهم يتساءلون ولا مجيب، ويبحثون وينقبون وتعود أيديهم فى النهاية، وهى ملأى بالسراب والوهم.

ونقول هل عاشت هذه الفتاة فى عاصمة الملك «منف» وفتحت عيونها على جمال الطبيعة فيها، وهل سمعت أذناها وشوشة مياه النيل وهى تتساب نحو الشمال فى سهولة ويسر؟..

وهل فتحت نوافذ صدرها للنسمات الرخية التى تهب فى فصل الخريف وتداعب أشجار الصفصاف العالية، وتلامس أوراق الورود المتفتحة، وتعيد ترديد شقشقة العصافير، وتغريد البلابل؟

وإذا لم يكن ذلك كذلك فأين عاشت؟..

وآين تعرف عليها العزيز الوزير؟.. ثم اختارها لتكون زوجة له وشريكة لحياته.

هل كان والدها أحد رجال الدولة، وكان التقارب بينهما قائماً ؟
وإذا كان ذلك كذلك هل كانت الفتاة تخالس العزيز النظر وتبادل
الابتسامة.

وهل كان العزيز يتابعها بنظراته حتى تغيب عنه..؟
أم أن كل ذلك لم يكن، وخصوصاً في تلك البيئة المحافظة.
وإذا لم يكن ذلك كذلك هل تمت الخطبة وأجريت مراسيم الزفاف في
الاتفاق بين الأمهات ورجال الأسرتين.

عزيز مصر يقدم لزوجته الفتى يوسف

إن التاريخ لا يذكرها في تلك الحياة الأولى مطلقاً ويكاد يكون أول لقاء
بينها وبين سجلات التاريخ الواعية التي لا تنسى، عندما دخل عليها زوجها
في يوم ليس كمثله يوم وهو يمسك بيده فتى جميل الصورة، هادئ الطبع،
واضح القسمات، فيه رجولة مبكرة وإيمان فطري، ويسلمه لها قائلاً:
﴿ أَكْرِمِي مَثْرَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ (١).

من هذا الفتى الذي نفذ حبه إلى قلب الزوجة التي تتطلع إلى أن يكون
لها ولد يملأ حياتها بهجة وبهاء.

إنه الفتى يوسف بن يعقوب من بيت النبوة والرسالة، حقد عليه إخوته،
لأنه كان أكثرهم حباً في قلب أبيه، فألقوه في جب فيه ماء وعثرت عليه
قافلة، فجاءوا به إلى مصر فابتاعه منهم عزيزها، وقدمه إلى زوجته، عسى
أن ينفعهم في شئون حياتهم، أو يكون لهم ابناً بالتبني، فيعوضهم عن
حرمانهم من إنجاب البنين والبنات، هذا إذا تحققت فيه مخايل النجابة،
وطيبة القلب والوسامة.

لقد أراد إخوة يوسف أمراً، وأراد الله له أمراً آخر، والله غالب على

(١) سورة يوسف آية رقم ٢١.

أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

لا يعلمون أن سنة الله ماضية، وأن أمره هو الذى يكون.

لقد نجاه الله من الجب ثم قال: ﴿وَيَعْلَمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ (١)

فإذا بلغ رشده، وكمل عقله أعطاه الله حكماً وعلماً.

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

وهذا يوسف بالاً واستراح فكراً وعاش فى قصر العزيز محبوباً ومكرماً.

وتوالت السنون ومرت الأيام وأصبح يوسف الرجل الغنى والشاب القوى.

وكانت امرأة العزيز تخالسه النظر وتتأمل رجولته وشبابه.

وتقدم له أطايب الطعام وتخصه بأعذب الألفاظ وألين الكلمات.

لقد ملك هذا الشاب كل ذرة من ذرات جسمها، وقلب كيائها رأساً على

عقب فلماذا لا يكون لها ٩٠٠

فكان إذا أرخى الليل سدوله، وذهب كل من فى القصر فى نوم عميق

تركت فراشها بجوار زوجها الذى راح فى سبات عميق وتتسلل إلى غرفة

يوسف الموصدة عليه، وتقف أمام بابها حائرة مترددة، وتراود نفسها أتدخل

إليه أم تعود من حيث أنت؟ وتظل على هذا الحال مقدمة ومحجمة حتى

تفمرها تباشير الفجر الوليد.

فإذا جاء النهار والتقت عينها بعيني يوسف أحست برغبة جامحة فى

أن تضمه بين ذراعيها والهة مشتاقة، ولا يفلت من يديها حتى تفوض حرمان

السنين التى عاشتها.

(١) سورة يوسف آية ٦.

هل يوسف أحب زليخاء...؟

وكان السؤال الذى يلح عليها من داخلها، ولا تجد له جواباً.

هل يوسف يحبها كما تحبه؟

وهل يحس بأحاسيسها التى ترسم فى عينيها، وتكشف عما فى داخلها؟

وهل ينشغل فكره بها ولو للحظات كما هى مشغولة به فى كل أوقاتها..؟

وفى ليلة مقمرة صافية، ونسمات حلوة تدغدغ أعطافها، وتداعب خصلات شعرها، برح بها الجوى، وأقلقها الشوق والحنين إلى رؤية يوسف، واشتعلت نار الرغبة فى كل جزئية من جزئيات جسمها المتفجر أنوثة ورغبة، فمضت مسرعة إلى خزانة ملابسها، وجالت ببصرها بين فساتينها حتى وقفت عيناها على فستان أهملته من أيام الزفاف الأولى، لونه يشابه حبات الكريز الصافية الهادئة، وأعدده حائكه متعمداً ليكشف عن مفاتن جسمها، ويجعلها فتنة عارية لا تقاوم ويركع أمامها أى رجل.. كل رجل.

ونظرت فى مرآتها ورسمت شفيتها باللون الأحمر الملتهب.

وصففت شعرها الأسود الناعم، وتركته حرراً طليقاً ليداعب نهديها

وينساب على ظهرها.

وسكبت على هذه الفتنة الطاغية عطراً نفاذاً لا يقاوم.

عطراً يلفى عقول الرجال ويدير رؤوسهم، ويقضى على عنصر المقاومة

والعفة عندهم.

ويحول كل منهم إلى ذكر لا يرى أمامه إلا أنثى فاتنة ملتعبة يعب من

الطاقة المتفجرة فى جسدها حتى الثمالة.

وعندما اكتملت زينتها توجهت إلى حجرة يوسف فوجدتها مغلقة، وقد

أطفأ السراج. فطرقت عليه الباب، فهب من نومه وأشعل السراج ثم تقدم

الباب ففتحه. فإذا بالفتنة الطاغية أمامه وبين يديه فدفعته فى رفق وغلقت

الباب وقالت له: «هيت لك».

ومالت عليه، ولا مست صدره فابتعد عنها ولكنها تابعتة وكلما حاصرتة
فى ركن فر إلى آخر، ولماذا يفر..؟

أهناك امرأة غيرها تسكن فى قلبه وتحول بينها وبينه؟

أكل هذا الجمال لا يحرك ساكناً عنده؟

إنه نوع جديد من الرجال إرادته صلبة وقلبه من حجر وتقدمت إليه
ووضعت يدها على شعره وقالت: ما أحسن هذا الشعر وأجمله يا يوسف.

قال: هو أول شيء يتأثر من جسدى بعد موتى.

قالت: يا يوسف ما أجمل عينيك..؟

قال: هما أول شيء يسيل فى الأرض من جسدى.

قالت: ما أحسن وجهك.

قال: التراب يأكله ولا يبقى منه شيء.

قالت: لقد ذبل شبابى وضمير جسدى من جمال وجهك.

قال: الشيطان يعينك على ذلك.

قالت: يا يوسف لابد من قضاء ما جئت من أجله.

قال: وأين الفرار من غضب الله إن عصيته.

عندها استلقت على فراشه لتكشف له عن مفاتنها الأخرى وما كادت
تفعل ذلك حتى فتح الباب وفر هارباً إلى خارج الحجرة وأسرعت المرأة خلفه
لتعيده إلى المخدع وترغمه على ما أرادت وقد لحقت به وتعلقت بقميصه من
الخلف وجذبتة بقوة لتمنعه من الخروج فشق قميصه وكم كانت دهشتها
عندما وجدت نفسها ويوسف وجها لوجه امام زوجها الذى عاد لتوه من
الديوان ومعه ابن عم لها.

قال تعالى:

﴿وَرَأَوْدَتُهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١)﴾.

إن المرأة الناصحة تجد الجواب حاضراً على السؤال الذي يعنيه المنظر المريب إنها تتهم الفتى:

﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾.

ومع ذلك فهي تعشق الفتى، ولا يتحمل قلبها أن يناله مكروه، وإن امتنع عنها هذه المرة، فلا بد أن يستجيب لها في المرات التالية فتقترح على زوجها العقاب الهين.

﴿إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

عندها يجهر يوسف بالحقيقة أمام الاتهام الباطل.

﴿هِيَ رَأَوْدَتِي عَنْ نَفْسِي﴾ (٢).

ويحسم القضية ابن عم لها ويضع حلاً لها.

«إن كان قميصه قد تمزق من الأمام فذلك إذن من أثر دفاعها عن نفسها وهو يريد الاعتداء عليها فهي صادقة وهو كاذب.

وإن كان قميصه قد تمزق من الخلف فهو إذن من أثر تفلته منها وتعقبها له فهي كاذبة في دعواها وهو صادق».

(٢) سورة يوسف آية ٢٦.

(١) سورة يوسف الآيات من ٢٣ - ٢٥.

عزيز مصر يعلم أن زوجته تراود يوسف

وتمت المعاينة، وتحقق للزوج المخدوع مراودة زوجته لفتاها يوسف. فلم يثر الزوج على عرضه الذى أوشك أن ينتهب، ولم تحرك هذه الحادثة نخوته للمحافظة على شرفه.

ولا عجب فى ذلك فتلك هى حياة الطبقة التى تسمى «الأرستقراطية» طبقة القصور، تساهل فى مواجهة الفضائح الجنسية، وميلا إلى كتمانها عن المجتمع وهذا هو المهم فى الواقعة كلها.

عندها قال الزوج لزوجته كلمة ترضيها ولا تؤذيه «إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم».

وإذا وصفت المرأة بالكيد والمكر اعتبرت أن هذا فخر لها ثم قال كلمة أخرى إلى يوسف البرىء:

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾.

أى أترك هذا الأمر ولا تذكره لأحد من قريب أو بعيد، محافظة على سمعة القصر أن يחדش أحد حياء زوجته (الطاهرة) المصون وأنت أيتها المرأة الهائجة التى تراود فتاها وتريده قسراً.

﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾^(١).

(١) سورة يوسف آية رقم: ٢٩.

الحياة فى القصور الاستقرائية

ولم يحل الزوج بين المرأة وفتاها، ولم يحاول أن يبعده من القصر ويجعل له مكاناً آخر بعيداً عن سيدة القصر، أن تعاود الكرة مع فتاها من جديد وقد يضعف وقد يلين وقد يشتهى، فيقع المحذور ولكن الزوج المخدوع تركه مع هذه الفتاة المتأججة والحب المشتعل تحت سقف واحد.

وقديماً قالت امرأة عربية «الحره لا تزنى».

ولم يمض على كلمتها فترة وجيزة من الزمن حتى وقعت فيما نهت عنه، ولما عوتبت فى ذلك وأن الحره لا تزنى.

قالت: قد فعلتها: لطول السهاد وقرب الوساد.

أى أن زوجها كان مغيباً عنها فطال سهادها. وكان عبدها يعيش معها وقريباً منها فوقع المحذور.

وفى بعض القصور المترفة فى عصرنا الراهن الزوج حر فى تصرفاته يخادن من يشاء، ويعشق من يريد، ولا يصح للزوجة أن تعترض أو تقاوم رغبة الرجل فهذه هى حياته الخاصة وله مطلق الحرية فيها.

والزوجة كذلك من حقها أن تعشق وتريد، وفى حاشية القصر والمتريدين عليه، وفى رجال الخدمة والحراسة والأمن فى داخل القصر ما يغنى بحاجة سيدة القصر «المصون» ويجدد لها السعادة، فهى عاشقة ومعشوقة، وهذا ما يرضى غرورها ويخفف من قسوة انصراف الزوج عنها إما من أجل عمله الذى لا نهاية له، أو مع امرأة أخرى، وهذا ما يسمى «باتفاق الجنتلمان» بين المخدوعين. وكل هذا مباح ومقبول شريطة ألا يشاع ويذاع خارج جدران القصر.

ولكن للقصور دائماً آذان وفيها من الخدم والحشم ما يلتقط من الداخل كل حادثة، وكل شاردة، وكل واردة فى القصر ليسريها إلى الخارج إذن ما

يجرى فى القصور لا يمكن أن يظل مستوراً وبخاصة فى الوسط «الأرستقراطى» الذى ليس لنسائه من هم إلا الحديث عما يجرى فى محيطهن، وتداول هذه الفضائح ويوكها بالألسن فى المجالس والسهرات والزيارات.

وما حدث مع امرأة العزيز وفتاها ذاع وشاع فى أرجاء المدينة كلها وتداولته الألسن بالزيادة والنقصان، ووصل إلى سمع امرأة العزيز ما يدور وما يقال فى الخارج، وما يتكلم به عنها. إذن لابد من مجابهة ذلك وأعدت لذلك أمراً.

قال الله تعالى:

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سَكِينًا وَقَالَتْ أُخْرِجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١)﴾.

لقد رماها نساء طبقتها بالضلال المبين لا من أجل الفعل فى ذاته ولكن من أجل كشفه وإشاعته. وهذا مكر منهن فلا بد من مجابهته بمكر مثله.

عندها أقامت مأدوبة فى قصرها وأعدت لهن المتكآت وآتت كل واحدة منهن سكيناً تستعملها فى تقطيع أنواع الأطعمة ثم دعت يوسف للخروج عليهن. «فلما رأينه أكبرهن».

بهتن لطلعته ودهشن.

﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ جرحن أيديهن بالسكاكين، وهن مذهلات مندهشات، وهن يتصور لهن أنهن يقطعن الطعام.

«وقلن حاش لله» وهى كلمة تنزيه تقال فى هذا الموضع تعبيراً عن الدهشة بصنع الله الذى أحسن كل شئ خلقه.

(١) سورة يوسف الأيتان ٣٠ - ٣١.

«ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم».

ورأت امرأة العزيز أنها انتصرت على نساء طبقتها عندما التمسن العذر لها وأنهن لقين من طلعة يوسف ما أذهب عقولهن وجعلهن مذهولات مفتونات بمجرد رؤيا خاطفة ليوسف، فكيف بها وهو يعيش معها. وتراه ليلاً ونهاراً ويستعصى عليها ويستهن بجمالها ولا تفريه مفاتها.

عندها قالت المرأة المنتصرة والتي لا تستحي أمام النساء من بنات جنسها وطبقتها، والتي تفخر بأن هذا الفتى في متناول يدها وإن كان قد استعصى عليها في الأولى فلن يستطيع ذلك في المرات التالية.

﴿وَلَكِنَّ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمْرُهُ لِيَسْجَنَ وَلِيَكُونَ مِنَ الصَّاعِرِينَ﴾.

عندها طلبت كل واحدة من نساء الطبقة «الأرستقراطية» أن تخلو بيوسف لنصيحته في أن يستجيب لامرأة العزيز، والحقيقة تخالف ذلك لقد أرادت كل واحدة من نساء الطبقة «الأرستقراطية» الانفراد بيوسف لنفسها. فإذا تمت لها الخلوة قالت له:

«اقضى حاجتى فأنا خير لك من سيدتك وتراوده على ذلك وتفريه بمفاتها»، عندها اتجه يوسف إلى ربه قائلاً.

«لقد كانت واحدة فصرن جماعة».

﴿رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾^(١).

وهي دعوة الإنسان العارف ببشريته الذي لا يفتر بقوته أو بعصمته ويريد مزيداً من عناية الله وحياطته تعاونه على ما يعترضه من فتنة وكيد وإغراء.

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٢).

(٢) سورة يوسف آية رقم ٢٤.

(١) سورة يوسف آية رقم ٢٣.

وماذا يفعل الكيد الضعيف من النسوة أمام كيد الله .
وماذا يمكن أن ينال النسوة من يوسف وهو فى رعاية الله وعنايته؟
إن الله سبحانه وتعالى حافظ له، وهو خير الحافظين؟
عندها قلت أسلحتهن وبطل كيدهن وأيقن أن يوسف لن يفعل الفاحشة
ومحال أن يخالف شرع ربه . عندها صدرت الأوامر .
﴿لَيْسَ جُنَّتْ حَتَّىٰ حِينَ﴾ (١).

وهكذا جو بعض القصور وأساليب الحكم المطلق، ودستور بعض
الأوساط «الأرستقراطية» فبعد أن رأوا الآيات الناطقة ببراءة يوسف، وبعد
أن بلغ التبجح بامرأة العزيز أن تقيم للنسوة مأدبة وحفل استقبال تعرض
عليهن فيه فتاها الذى شغفها حباً ثم تعلن لهن أنها به مفتونة حقاً ويفتن
هن به ويفرنه بمفاتتهن.

والمرأة تعلن فى مجتمع النساء، دون حياء، إنه إما أن يفعل ما يؤمر به،
وإما أن يلقي السجن والصفار.

بعد هذا كله: بدا لهم أن يسجنوه إلى حين.

ولعل المرأة كانت قد يئست من محاولاتها بعد التهديد، ولعل الأمر كذلك
قد زاد انتشاراً فى طبقات الشعب الأخرى، وهنا لابد أن تحتفظ سمعة
البيوتات، وإذا عجز رجال البيوتات عن صيانة بيوتهن ونسائهن، فإنهم ليسوا
بعاجزين عن سجن فتى برىء كل جريمته أنه لم يستجب، وأن امرأة من الوسط
الراقى قد فتنت به، وشهرت بحبها، ولاكت الألسن حديثها فى الأوساط
الشعبية. وتمر الأيام وتكر الليالى وتظهر من داخل السجن المثل ليوسف عليه السلام
فهو العالم بتأويل الأحاديث وصاحب الحكمة والرأى السديد، ورجل الأزمت
والذى سينقذ مصر بمشيئة الله مما يحل بها فى السنين العجاف.

(١) سورة يوسف آية: ٢٥

خروج يوسف من السجن

شاءت إرادة الله تعالى أن يخرج يوسف عليه السلام من السجن. وما كاد يفرج عنه حتى طلبه الملك لنفسه، لكي يكون مستشاراً له، أو مديراً لديوانه- ولكن يوسف عليه السلام رفض هذه الأشياء بإباء وشمم وقال للملك:

﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (١).

إنه يريد أن ينظم شئون الدولة: في الإنتاج والاقتصاد، وشئون الزراعة- حتى لا تجبر الدولة في طلب ما تحتاجه من الدول الأخرى إذن لابد من التدبير والتفكير. وتوفير كل ما يحتاجه الشعب من غذاء وكساء ومسكن... وأجابه الملك لطلبه، وسلمه مقاليد الأمور، ودانت له الممالك وفوضت شئون مصر له:

عندها رفع يوسف أكف الضراعة إلى ربه قائلاً:

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (٢).

وكان يوسف عليه السلام يركب في كل أسبوع مرة في موكب من عظماء قومه للترويح عن النفس وتفقد المشاريع الحيوية ومعرفة أحوال الرعية... وذات يوم وهو قائم بهذه الرحلة سمع صوتاً عالياً حزيناً يقول سبحان من جعل الملوك عبيداً بمعصيتهم. وجعل العبيد ملوكاً بطاعتهم. فقال يوسف ما هذه...؟

فأتوا بها إليه فقال لها من أنت يا امرأة...؟ فقالت: أنا التي كنت أقدمك على وجهاء قومك وقومى.

(٢) سورة يوسف آية ١٠١.

(١) سورة يوسف آية: ٥٥.

أنا التي كنت أرجل لك جمعتك بيدي.
أنا التي رببتك في بيتي، وأكرمت مثواك.
لكن فرط ما فرط من جهلى وعُتوى قد ذقت وبال أمرى.
ذهب مالى فلا مال لى.
وتضعضع ركنى فلا ركن أسند عليه.
وطال ذلى. فلا قوة لى.
وعمى بصرى فلا أرى شروق الشمس ولا غروبها. ولا أستمتع برؤية من
كان لقلبي الشجى والسلوان.
لقد كنت مغبوبة أهل الكنانة جميعاً فصرت مرجومتهم.
أتكفف الناس بدموع عيني وتمزيق قلبي.. وهذا جزاء المفسدين.
عندها بكى يوسف بكاءً شديداً. ثم قال:
هل لازلت تجددين مما كان فى نفسك من حبك لى شيئاً؟
قالت: يا يوسف والله لنظرة إلى وجهك أحب إلى من الدنيا وما فيها.
ولهذا أرجو أن تتاولنى صدر سوطك، فناولها فوضعتته على صدرها
فوجد للسوط فى يده اضطراباً وارتعاشاً من خفقان قلبها فبكى ثم مضى
إلى منزله. فأرسل إليها رسولاً: إن كنت أيماً تزوجناك وإن كنت ذات بعل
أغنيك.
فقالت للرسول: أعوذ بالله أن يستهزئ بى الملك، لم يردنى أيام شبابى
وغناى ومالى وعزى أفيريدنى اليوم وأنا عجوز عمياء وفقيرة؟
فأعلمه الرسول بمقالتها.
فلما ركب فى الأسبوع الثانى تعرضت له.
فقال لها: ألم يبلغك الرسول؟

زواج زليخا من يوسف عليه السلام

فقالت: قد أخبرتك أن نظرة واحدة إلى وجهك أحب إلى من الدنيا وما فيها. عندها أمر يوسف بها فأصلح من شأنها وهيئت ثم زفت إليه. فقام يوسف عليه السلام يصلى ويدعو الله. وقامت زليخا وراءه تصلى. عندها سأل يوسف الله تعالى أن يعيد لها شبابها. أن يعيد إليها جمالها. أن يرد لها بصرها.

فرد الله عليها شبابها، وجمالها وبصرها حتى عادت أحسن مما كانت يوم راودته إكراماً لرسوله يوسف عليه السلام. لما عف عن محارم الله. فأصابها فإذا هي عذراء.

فسألها فقالت: يا نبي الله إن زوجي كان عنيماً^(١) لا يأتي النساء وكنت أنت من الحسن والجمال بما لا يوصف.

قال: فعاشا في خفض عيش في كل يوم يجدد الله لهما خيراً، وولدت له ولدين: إفرائيم بن يوسف، ومنشا بن يوسف.

وفيما حفظته ذاكرة التاريخ أن الله تعالى ألقى في قلب يوسف عليه السلام من محبتها أضعاف ما كان في قلبها.

فقال لها: ما شأنك لا تحبينني كما كنت في سابق عهدنا ؟.

فقالت له: لما ذقت محبة الله تعالى شغلني ذلك عن كل شيء.

وإذا كان لكل سافرة حجاب، ولكل ليل صباح، ولكل أجل كتاب فلقد وافاها أجلها. قبل يوسف عليه السلام.

ثم ماذا وضعها زوجها وولداها في قبرها، وطلبوا من الله تعالى المغفرة والرحمة وأن يضعها في الفردوس الأعلى من جناته إنه سميع الدعاء.

(١) العنين: هو الذي لا يستطيع إتيان النساء. وله أحكام في كتب الفقه راجع كتاب المغنى لابن قدامة.



عفة الرجال والنساء وأثرها فى إصلاح المجتمع

يقول أحد الأساتذة الشيخ محمد المجذوب: كنا عدداً من المدرسين والمدرسات نملأ القاعة المخصصة لتدقيق امتحان الأدب العربى، عندما دخل علينا الوزير ومعه بعض حاشيته، يتفقد أعمالنا. وحيانا ثم أخذ يصافحنا واحداً فواحداً. ولما انتهى إلى المنضدتين الأخيرتين، جعل يصافح من هناك من المدرسات حتى صار إلى آخرهن.

وكانت إحداهن قد وقفت كغيرها فبسط يده نحوها. ولكن هذه رفعت راحتها إلى جانب رأسها ترد تحيته.. ولبثت كذلك.

حتى فطن الوزير لموقفه، ففادر الغرفة دون أن ينبس بكلمة شكر أو توجيه. وكان ذلك على مشهد من أعين المصححين جميعاً إذ كانوا يرقبون المشهد، ففى نفوسهم حب الاستطلاع لما سيكون عليه موقف الوزير من ردود الفعل.

وعاد المدرسون إلى العمل فى غمرة الصمت، وعلى لسان كل منهم كلام يتهيب أن يقوله.. حتى تجرأ زميل فأخذ يتمتم فى همس لا يسمعه سواى: هذه فتاة تستطيع أن تقول لم يمسنى بشر.

قلت لعل المشهد لم يرقك.

قال: ولكنه يستحق احترامى.

قلت له: غير أنى على ثقة أن الفتاة لم تفكر باحترام أحد أو امتعاضه وإنما فعلت ذلك يقيناً منها بأنه الشئ الوحيد الذى تفعله امرأة تحترم تعاليم دينها فى مثل هذا الموقف.

إن هذه المرأة لم تنس تعاليم دينها فى أى موقف من المواقف.. حتى ولو

كان هذا الموقف.. موقف الوزير أو غيره من أصحاب الجاه والسلطان.. إنها فعلت ما يمليه عليها دينها.. وما يتطلبه الرجل المؤمن من المرأة من محافظتها على جسمها أن يمس أو شرفها أن يחדش.

إنها تأدبت بأدب الرسول ﷺ الذى يقول: من مس كف امرأة ليس فيها بسبيل، وضع على كفه جمرة يوم القيامة.

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان إذا بايع النساء يبايعهن كلاماً ولا يأخذ أيديهن في يده.. إن هذه المرأة فى عصرنا الراهن تمثل الجانب الآخر فى النزاع بين فكرتين.

إحدهما تحول المرأة إلى دمية لا هم لها إلا العبث بوجهها وجسمها تشده من هنا وتطلقه من هناك وتطليه من هنا بلون وتصبغه هناك بلون، ثم تجرى متراقصة فى حذاء لا ندرى كيف تدربت على السير به، حتى إذا انتهت إلى عملها راحت تمضى وقتها فى «سخافات» لا تنتهى تسمعه فى كلامها وتراه فى مشيتها وفى حركاتها جميعاً. كأن لا هم لها إلا أن تلفت إليها أعين الرجال بأى ثمن.

أما الثانية: فلا تكلف المرأة إلا أن تظل إنساناً سوياً تدرك فى وعى عميق ضخامة المهمة التى تخيرها الله لها. فتعرف أن قيمتها ليست فى لحمها وعظمها ولكن فى روحها وأخلاقها. ولهذا تراها لا تختار لجسدها من الثياب إلا ما يساعدها على إعطاء هذه المعانى فى جو الأنوثة المهيبة الذى يفرض احترامه على كل شيء.

إن عفاف المرأة هو الجوهر الذى تقوم به تربيتها، والسلاح الذى تدافع به عن شرفها وكرامتها. وهو عندها بمثابة القوة عند الرجل وعفاف المرأة فى الأسرة هو الركن الأول الذى تتوطد عليه دعائم التربية والسبيل الأقوم الذى تصل به الفضيلة إلى قلوب البنات والأبناء.

والعفاف بالنسبة للفتاة هو سندها فى الضعف ومرشدها فى الغواية

ومصباحها فى الظلام وزينتها مدى الأيام، وأساس سعادتها وسعادة أسرته
فى المستقبل.

والعفاف مطلب إنسانى... وزينة للرجل والمرأة على السواء وأمر من الله
سبحانه وتعالى للمسلمين بالتعلى به قال تعالى:

﴿وَلْيَسْتَغْفِرِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ
مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِّنْ مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا
تُكْرِهُوا فَتِيَانَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ
مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١).

لقد كان أهالى أثينا القدماء يمنعون الرجل الذى يجتمع بغير زوجته
ويعاشرها أو يخالط المتبرجات أن يكون من أرباب مشورة المدينة لأنه لا
يؤمن على المصلحة العامة. أو بتعبير رجال الحديث: «ساقط العدالة
مجروح».

إن مراقبة الله سبحانه وتعالى والخوف من عقابه، وتقواه فى السر
والعلانية هى إحدى دعائم العفة للرجال والنساء.

قيل لبعض الأعراب وقد طال حبه لفتاة.. ما كنت صانعاً لو ظفرت بها
ولا يراكما إلا الله تعالى.

قال: أخاف الله ولا أجعله أهون الناظرين، ولكن أصنع منها ما أصنع
بحضرة أهلها: حديث طويل. ولحظ كليل.

وقالت سلامة المغنية لعبد الرحمن بن أبى عمار الذى سماه أهل مكة:
قَسًا لكثرة عبادته. وكان معجباً بفنائها:

يا عبد الرحمن: أنا والله أحبك.

فقال: وأنا والله أحبك.

(١) سورة النور الآية رقم: ٣٣.

قالت: وأحب أن أقترب منك.

قال: وأنا والله أحب ذلك.

قالت: فما يمنعك؟.. فوالله إن الموضع خال.

قال: إني سمعت الله عز وجل يقول: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾^(١).

وأنا أكره أن تكون خلة ما بيني وبينك تؤول إلى عداوة. ثم قام وانصرف وعاد إلى ما كان عليه من النسك.

وما قاله عبد الرحمن القص قالت له ليلي الأخيلية عندما طلب منها حبيبها حاجته أو رأت دلائلها في عينيه فقالت:

وذى حاجة قلنا لا تبع بها فليس إليها- ما حبيت- سبيل

لنا صاحب^(٢) ينبغى أن نخونه وأنت لأخرى صاحب و خليل

إن العفة طريق إلى السعادة.. ومدخل إلى الجنة وسبيل لتفريج الكروب.. في الدنيا.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم، حتى إذا جن عليهم الليل أووا إلى غار في جبل فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار فقال بعضهم لبعض:

انظروا أعمالاً عملتموها لله صالحة فادعوا بها لعله يفرجها.

فقال رجل منهم ما عمله من صالح الأعمال وقال الثاني كذلك.

ثم قال الثالث:

اللهم كانت لى بنت عم كانت أحب الناس إلى فراودتها عن نفسها فامتعت منى، حتى أملت بها سنة من السنين فجاءتنى فأعطيتها عشرين

(١) سورة الزخرف آية رقم: ٦٧.

(٢) صاحب: هو زوجها الذى كانت متزوجه به على شرع الله.

ومائة دينار على أن تخلى بينى وبين نفسها . ففعلت حتى إذا قدرت عليها
قالت:

لا يحل لك أن تفض الخاتم إلا بحقه .

فتخرجت من الوقوع عليها فانصرفت عنها وهي أحب الناس إلى وتركت
الذهب الذى أعطيتها .

اللهم إن كنت فعلت هذا ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه .

فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون .

فمتى تعف نساؤنا وفتياتنا ؟ .

ومتى يعف شبابنا ورجالنا ؟

متى يحدث ذلك، حتى تحل مشاكلنا الاقتصادية والاجتماعية وننتصر
على أعدائنا فى مشاكلنا السياسية ومعاركنا الحربية .

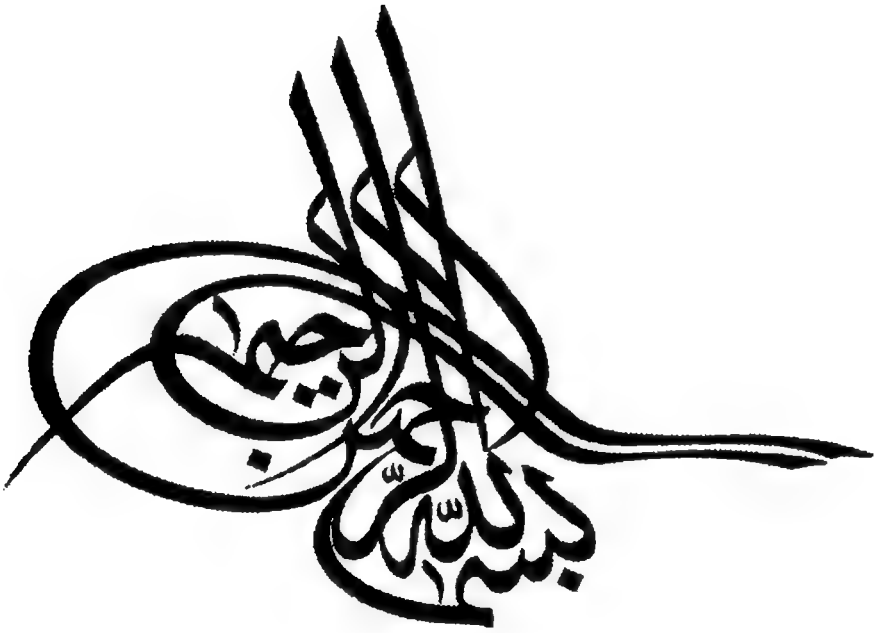
إن العفة طريق إلى الفوز، وشعار إلى النصر، وغيث منهمر بالخير
والرخاء، ومنقذ من الكرب والهم، ومن الحزن والدين، وصدق ربى فى قوله:

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ (١).

(١) سورة الطلاق الآيتان: ٢، ٣.

خولة بنت حكيم

رضي الله عنها



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى:

﴿وَأَمْرًا مُّؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

(الأحزاب: ٥٠)

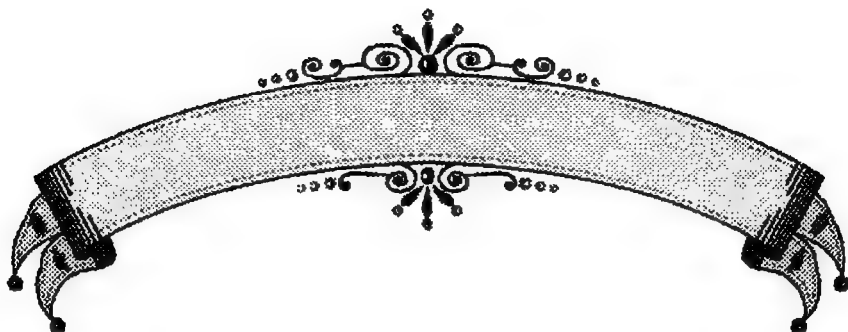
أقوال العلماء والمفسرين فى نزول هذه الآية

قال كثير من المفسرين ومنهم الإمام القرطبى نزلت هذه الآية فى النساء اللاتى وهبن أنفسهن للرسول ﷺ ومنهن خولة بنت حكيم ج ٧ ص ٢٠٨.

وقال الحافظ ابن حجر الموهوبات كُثُرٌ منهن ميمونة بنت الحارث وغيرها ٨: ٤٠٤.

وذكر صاحب الاستيعاب أبو عمر بن عبد البر أن الموهوبة خولة بنت حكيم ج ٤ ص ١٨٣٢.

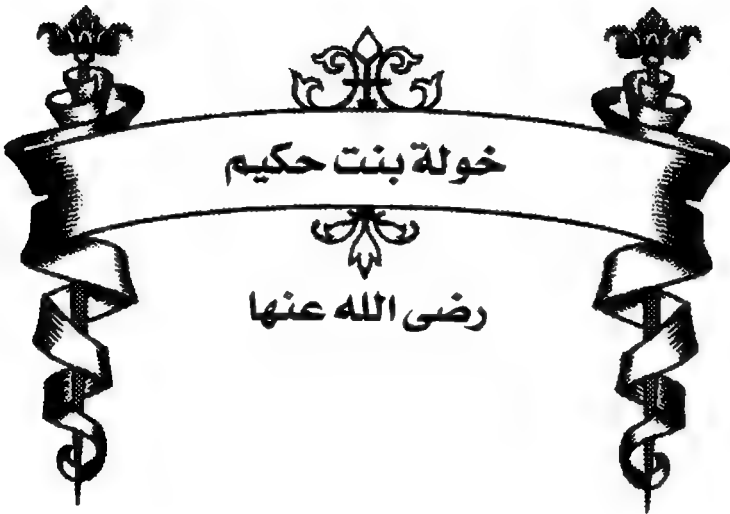
فمن هى خولة بنت حكيم ٩٠٠



يقول الرسول ﷺ :

«دخلت الجنة فسمعت خشفة بين يدي فإذا أنا بالغميصاء بنت ملحان»

• رضي الله عنها •





حياتها ونشأتها

امراة مؤمنة، عابدة قانتة.

سمعت بدعوة الإسلام فسارعت للدخول فيه، وبين يدي الرسول ﷺ نطقت بالشهادتين.

زوجها عثمان بن مظعون، من خيرة الرجال ورعاً وزهداً، أسلم بعد ثلاثة عشر رجلاً، وهاجر الهجرتين، وشهد أولى المشاهد مع رسول الله ﷺ فكان نعم الفارس المقاتل.

وكان ممن حرّم الخمر في الجاهلية.

وقال: لا أشرب شراباً يذهب عقلي ويضحك بي من هو أدنى مني ويحملني على أن أنكح كريمتي...».

فلما حرمت الخمر قيل: يا عثمان، قد حرمت الخمر؟

فقال: تبّاً لها لقد كان بصري بها ثاقباً.

ولما جاءه أجله حضر رسول الله ﷺ إلى داره، وقبل ما بين عينيه ثم

قال:

«نعم السلف هو لنا عثمان بن مظعون».

عاشت خولة حياتها قريبة من الرسول ﷺ ومن زوجه خديجة، تسرى عنها ما يعتريها من هموم، وعينها على متطلبات دارها، وتجلس معها تتسمع

أحاديث الرسول وهدية.

ثم ماتت خديجة رضي الله عنها وحزن الرسول لفراقها حزناً طويلاً.

وكانت خولة ترى بعينها اللماحة ما يعانيه النبي الكريم بعد انتقال خديجة إلى الرفيق الأعلى.

وفي يوم من الأيام اقتربت خولة من الرسول ﷺ وتحدثت معه في أمور حياته وحزنه على فراق خديجة.

ثم قالت يا رسول الله، كأنى أراك قد دخلتك خلة لفقد خديجة؟

قال: أجل كانت أم العيال، ونور البيت، والزوجة العطوف الوفية ولقد ضحت بالكثير في سبيل الإسلام والمسلمين.

عندها قالت خولة: أفلا أخطب عليك..؟

قال: بلا، فإنكن معشر النساء أوفق بذلك.

وما كادت خولة تسمع ذلك من رسول الله ﷺ حتى شغلت بهذا الأمر.

وأخذت تردد بينها وبين نفسها: إن النساء الراغبات في الزواج كثير، وكل فتاة تتمنى أن تكون زوجة لرسول الله ﷺ ولكن من الزوجة التي يرضاها رسول الله لتكون عوضاً عن خديجة؟

وما كادت تصل إلى ذلك حتى لمعت في ذهنها عروستان. إحداهما مؤجلة لم تصل إلى أعتاب الأنوثة بعد، وهى عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها والذي وصفه الوحي بصاحب رسول الله بقوله:

﴿لَا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ (١).

وأخرى معجلة وهى سودة بنت زمعة رضي الله عنها لترعى شئون البيت، وتخفف عن الرسول ما يعانيه، وتقوم أيضاً برعاية ابنتيه فاطمة وأم كلثوم.

(١) سورة التوبة آية رقم ٤٠.

وتم زواج الرسول ﷺ من سودة. ولكن الرسول ﷺ لم ينعم بالحياة الزوجية، بسبب قسوة المشركين في إيذاء المسلمين، وملاحقتهم بالتيكيل والتعذيب، عندها أمر الرسول ﷺ بالهجرة إلى يثرب.

وكانت خولة وزوجها عثمان بن مظعون من أوائل الملبين لأمر الرسول بالهجرة إلى يثرب.

وفي مدينة الرسول عاشت خولة تخدم زوجها وترعى بيتها، وانشغل زوجها بالزهد والعبادة، فأهمل تجارته، وكف عن الضرب في فجاج الأرض بحثاً عن الرزق، وابتعد عن زوجته، ولم يشعر بخلجاتها وأشجانها. وما تتطلبه المرأة من حقوق قبل زوجها.

الأمر الذي جعل خولة تصاب بنوع من الاكتئاب فلا تلبس إلا رث الثياب؟؟

ولا تطعم إلا ما يسد الرمق.؟؟

وأصبح نومها خطرات، ويقظتها حزن وآهات.

وعندما كان يوجه اللوم إلى خولة لعدم اهتمامها بزينتها. كانت تنن ولا تفصح، وتتوجع ولا تتكلم. حتى جاء يوم دخلت خولة على أمهات المؤمنين في بيت النبوة. فرأينها رثة الثياب، متسخة الأطراف، ذابلة العيون، مصفرة الوجه لا يهدأ لها بال، ولا يقر لها قرار.

فقلن لها ما بك يا خولة وكيف وصلت إلى هذه الحالة؟

أهو الفقر تعانين؟..

وقلة المال لا تجدين؟..

إن زوجك يعد من أغنياء المدينة، بل يكاد يكون من أكثرهم ثراءً؟؟ قالت خولته ما لنا منه شيء، أما ليله فقائم، وأما نهاره فصائم وما كادت تكمل حديثها حتى دخل رسول الله ﷺ وشاهد هيئتها فقال لزوجاته ما بال خولة؟

فذكرن حال زوجها له .

فأرسل الرسول ﷺ إليه، فلما جاء . قال الرسول ﷺ:

«يا عثمان بن مظعون أما لك بى أسوة؟»

فقال: بأبى أنت وأمى وما ذاك يا رسول الله..؟

قال: علمت أنك تصوم النهار وتقوم الليل.

قال: إنى لأفعل ذلك يا رسول الله.

خولة تنعم بالحياة الزوجية

قال ﷺ: لا تفعل يا ابن مظعون: إن لعينيك عليك حقاً، وإن لجسمك عليك حقاً، وإن لأهلك عليك حقاً فصل ونم، وصم وافطر.

قال عثمان: سمعاً وطاعة يا رسول الله.

قال الراوى: ولم تمض إلا أيام قليلة حتى جاءت خولة، وهى عطرة. كأنها جوقه الطيب، ومجلوة كأنها العروس يوم زفافها فقلن لها: إيه يا خولة ماذا حدث؟

قالت والفرحة تطل من عينيها وتتراقص على شفثيها:

«لقد أصابنا ما أصاب الناس».

وعرفت النظافة والتزين طريقهما إلى خولة بنت حكيم. وغنت لها الحياة، وامتلأت أيامها ولياليها بالبهجة والحبور.

خولة تنعى زوجها

وتوالت الأيام وكرت الليالى خاطفة مسرعة. وفى يوم ليس كمثله يوم
نعى الناعى الصحابى الورع القانت عثمان بن مظعون.

وذرفت خولة الدموع الغزار وتوشحت بالسواد ولزمت بيتها لا تخرج إلا
للصلاة، أو لقضاء الحاجة، ثم تعود لتجتزأ أحزانها، وتطلب من الله تعالى
الصبر والسلوان.

وفى يوم من الأيام ذهبت إلى بيت النبى لتقدم واجب الشكر إلى أمهات
المؤمنين فيما قدمنه لها من مساعدة ومواساة فى وفاة زوجها، والتقت
عيناها بالرسول ﷺ وشاهدت نور النبوة وقوة الإيمان تتبعث من كل ذرات
وجهه الكريم- وتمنت أن تكون من أمهات المؤمنين الذين نزل الوحي
بمخاطبتهم فى أكثر من موضع فى كتابه الكريم بقوله:

﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ﴾^(١).

إنهن صفوة مختارة فى الدنيا، وفى الآخرة هن فى مقعد صدق عند
ملك مقدر بصحبة رسول الله ﷺ.

(١) سورة الأحزاب الآية ٣٢.

أمنية خولة الزواج من الرسول ﷺ

إنها أمنية جميلة جميلة تداعب خولة بنت حكيم حتى أصبحت شغلها الشاغل وغايتها الوحيدة التي تتمنى تحقيقها.

وتساءلت بينها وبين نفسها ولكن كيف؟.. والرسول ﷺ لا يفكر في ذلك؟ نعم هو يعطف عليها، ويسأل عن أحوالها، وحافظ لذكرى زوجها ولكنه لم يتقدم لخطبتها.

وإذا كان الرسول ﷺ لم يفعل، ولم يتقدم أهنالك حرج أو مانع شرعى يحول بينها وبين أن تتقدم هي؟..

لا. إنها لا تطلب شيئاً تعاب عليه.

إنها لا تريد متع الدنيا وزخارفها.

إنها لا تسعى أن تكون زوجة تخادن زوجها وترزق منه بالبنين والبنات.

لا: ليس شيء من هذا في مخيلتها.

إنها تريد فقط الآخرة وتعمل لها وترجو الله تعالى أن تكون مع زوجات الرسول في الفردوس الأعلى؟؟

خولة تهب نفسها للرسول ﷺ

وعندما وصلت خولة إلى هذه النتيجة ارتدت ثيابها، وأرخت خمارها وذهبت إلى مجلس الرسول ﷺ.

واستأذنت في الدخول عليه. ولما وقفت بين يديه استجمعت شجاعته ولاكت بعض الكلمات في فمها ثم قالت:

«يا رسول الله لقد وهبتك نفسى».

ولكن الرسول ﷺ سكت ولم يفصح ولم يقل شيئاً.

وانصرفت خولة إلى بيتها منتظرة ومترقبة ما تأتى به الأقدار، وتسامع بيت النبوة بما طلبته خولة من الرسول الكريم.

تقول السيدة عائشة - رضى الله عنها:

«كنت أغار على اللواتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ».

وأقول: أما تستحى امرأة تهب نفسها لرجل؟ حتى أنزل الله تعالى:

﴿وَأَمْرَأَةٌ مُؤْمِنَةٌ إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَكْحِهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١).

قالت عائشة. فقلت والله ما أرى ربك إلا يسارع فى هواك».

ورغم أن الرسول ﷺ لم يقبل هبة خولة بن حكيم، ولكنها لم تفارقه، ولم تبتعد عنه، وبقيت فى خدمته فى حله وترحاله. وذهبت مع الجيش المحارب لفتح مكة - حتى تحقق وعد الله الذى وعده لرسوله بقوله:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢) وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ (٢).

(٢) سورة الفتح الآيات: ١ - ٣.

(١) سورة الأحزاب الآية ٥٠.

وكانت مع الرسول ﷺ في غزوة حنين.

وعندما توجه الجيش المحارب بقيادة رسول الله ﷺ إلى الطائف لحصارها. واستمر الحصار سبعة عشر يوماً، تقدمت خولة لرسول الله ﷺ وقالت له:

«يا رسول الله إن فتح الله عليك الطائف امنحني حلياً وجواهر بادية ابنة غيلان بن سلمة. أو حلي الفارعة بنت عقيل، وكانتا من أحلى نساء ثقيف.

فقال لها رسول الله ﷺ: وإن كان لم يؤذن لي في فتح ثقيف يا خولة..؟

قالت: حتى يأذن لك يا رسول الله - ثم خرجت.

وفي الطريق التقت بعمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فذكرت له ما قاله الرسول ﷺ بالنسبة لثقيف.

فدخل عمر على رسول الله ﷺ وقال يا رسول الله ما حديث حدثتني خولة زعمت أنك قلتها..؟

قال: قد قلتها يا عمر.

قال: أو ما أذن لك فيهم يا رسول الله؟

قال: لا.

قال: أفلا أؤذن بالرحيل..؟

قال: بلى.

فأذن عمر بالرحيل.

إن خولة صابرة مؤمنة، وعطوفة طيبة، ويملاً الإيمان كل نبضة من نبضات قلبها، وهي شغوفة بأن يستقر الإسلام في قلب كل إنسان ذكراً كان أو أنثى شيخاً أو طفلاً على سطح الكرة الأرضية.

ثم ماذا؟ عادت خولة مع الجيش المحارب إلى مدينة الرسول ﷺ واستقر بها المقام في انتظار النفير لغزوة أخرى يحددها رسول الله ﷺ وتقتضيها «استراتيجية» الدعوة إلى دين الله.

وفي يوم من الأيام ابتاع رسول الله ﷺ من رجل من الأعراب جزوراً بوسق من تمر العجوة - فرجع به رسول الله ﷺ والتمس له التمر فلم يجده؟ فخرج إليه رسول الله ﷺ وقال: يا عبد الله إنا قد ابتعنا منك جزوراً أو جزائر بوسق من التمر فالتمسناه فلم نجده. فقال الأعرابي: واغدراه.

قالت: فزجره الناس وقالوا قاتلك الله أيغدر رسول الله ﷺ؟ قالت: فقال ﷺ:

«دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً».

ثم دعا له رسول الله ﷺ فقال: يا عبد الله إنا ابتعنا منك جزوراً ونحن نظن أن عندنا ما سمينا لك فالتمسناه فلم نجده فقال الأعرابي: واغدراه. فزجره الناس وقالوا: قاتلك الله أيغدر رسول الله ﷺ. فقال ﷺ:

«دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً».

فردد ذلك رسول الله ﷺ مرتين أو ثلاثاً، فلما رآه لا يفقه عنه قال لرجل من أصحابه: اذهب إلى خولة بنت حكيم فقل لها: رسول الله ﷺ يقول لك: إن كان عندك وسق من تمر العجوة فأسلفيناه حتى نؤديه إليك إن شاء الله».

فذهب إليها الرجل ثم رجع فقال:

قالت: نعم هو عندى يا رسول الله فابعث من يقبضه.

فقال ﷺ للرجل، اذهب به فأوفه الذى له .

فذهب به فأوفاه الذى له .

ثم عاد الأعرابى إلى رسول الله ﷺ وهو جالس فى أصحابه فقال:
حزاك الله خيراً فقد أوفيت وأطيت .

فقال رسول الله ﷺ :

« أولئك خيار عباد الله عند الله يوم القيامة الموفون المطيبون » .

ثم ماذا سجل التاريخ فى صفحته عن حياة خولة ؟

أى المشاهد شهدتها ؟ أى الأعمال قامت بها ؟ هل تزوجت بعد ذلك ومن
كان هذا الزوج ؟

وإذا لم يكن ذلك كذلك متى جاءها أجلها ، وهل ماتت فى إحدى المعارك
أم على فراشها .. ؟

إن التاريخ يصمت صمتاً شاملاً عن حياة خولة بعد ذلك .

رحمها الله رحمة واسعة وأسكنها فسيح جناته فى الفردوس الأعلى
قريباً من أمهات المؤمنين كما كانت ترجو وتطلب ..

أسباب نزول الآيات

عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله ﷺ جاءته امرأة فقالت يا رسول الله إني قد وهبت نفسي لك، فقامت قياماً طويلاً فقام رجل فقال يا رسول الله زوجنيها إن لم يكن لك بها حاجة...؟

فقال رسول الله ﷺ هل عندك من شيء تصدقها إياه..؟
فقال: ما عندي إلا إزارى هذا فقال رسول الله ﷺ إن أعطيتها إزارك جلست لا إزار لك، فالتمس شيئاً.
فقال: لا أجد شيئاً.

فقال ﷺ: التمس ولو خاتماً من حديد.
فالتمس فلم يجد شيئاً.

فقال له النبي ﷺ هل معك من القرآن شيء..؟
قال: نعم سورة كذا وسورة كذا لسور يسميها.
فقال له النبي: زوجتكما بما معك من القرآن.

وقال الإمام أحمد بسنده عن ثابت يقول: كنت مع أنس جالساً وعنده ابنة له. فقال أنس جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت يا نبي الله هل لك في حاجة؟

فقالت ابنته: ما كان أقل حياءها.
فقال: هي خير منك رغبت في النبي فعرضت عليه نفسها. انفرد
بإخراجها البخاري.

وقال أحمد بسنده عن أنس بن مالك أن امرأة أتت النبي ﷺ فقالت

يا رسول الله ابنة لى كذا وكذا فذكرت من حسننها وجمالها فأثرتك بها .
فقال ﷺ : قد قبلتها .

فلم تزل تمدحها حتى ذكرت أنها لم تصدع ولم تشك شيئاً قط .
قال ﷺ : لا حاجة لى فى ابنتك .

وقال ابن أبى حاتم بسنده عن عروة عن أبيه عن عائشة ؓ قالت : التى وهبت نفسها للنبي ﷺ خولة بنت حكيم .

وقال ابن وهب : عن هشام عن عروة عن أبيه : إن خولة بنت حكيم بن الأوقص كانت من اللاتى وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ .

وقال ابن أبى حاتم بسنده عن محمد بن كعب ، وعمر بن الحكم ، وعبد الله بن عبيدة قالوا : تزوج رسول الله ﷺ ثلاث عشرة امرأة ستاً من قريش : خديجة ، وعائشة ، وحفصة ، وأم حبيبة ، وسودة وأم سلمة .

وثلاثاً من بنى عامر بن صعصعة ، وامرأتين من بنى هلال بن عامر ميمونة بنت الحارث وهى التى وهبت نفسها للنبي ، وزينب أم المساكين وامرأة من بنى بكر بن كلاب ، وامرأة من بنى الجون وهى التى استعادت منه ، وزينب بنت جحش الأسدية ، والسبيتين : صفية بنت حى بن أخطب وجويرية بنت الحارث .

هذا وبالله التوفيق



عقوبة إتيان الفاحشة والجهر بها..

يحرص الإسلام على إيجاد المجتمع المسلم النظيف، الذى لا تعرى فيه الأجساد، ولا تكشف العورات، ولا تهاج فيه الشهوات، ويبتلى بالاختلاط الجنسى الذى يتم بين الرجل والمرأة، بعيداً عن شرع الله وفى غفلة من قوانين وأعراف المجتمع ولهذا قال الله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (٣٠) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ (١).

يأمر الله سبحانه وتعالى بذلك، وهو العليم الخبير لأن فوضى العلاقات الجنسية كانت هى المعول الذى حطم الحضارات القديمة حطم الحضارة الأفريقية، وحطم الحضارة الرومانية، وحطم الحضارة الفارسية ثم إن الفوضى الجنسية ذاتها هى التى أخذت فى تحطيم الحضارة الغربية وقد ظهرت آثار التحطيم، فيما أذاعته تقارير الصحة العالمية من إصابة العديد من الأفراد بمرض «الإيدز» وفقدان الخصوبة واللذين قضيا على المناعة عند العديد من الرجال والنساء فى مدن أوروبا وأمريكا.

يقول طبيب فرنسى يدعى الدكتور «ليريه» إنه يصاب فى كل عام فى فرنسا أكثر من ألف نسمة بالزهري، وما يتبعه من الأمراض كل عام، وهذا المرض هو أفتك الأمراض بالأمة الفرنسية بعد حمى «الدق» وهذه جريرة مرض واحد من الأمراض السرية عدا أمراض أخرى كثيرة.

والدولة الأمريكية يتناقص تعدادها بشكل خطير، ذلك أن سهولة تلبية الميل الجنسى، وفوضى العلاقات الجنسية والتخلص من الأجنة والمواليد لا تدع مجالاً لتكوين الأسرة ولا لاستقرارها، ولا لاحتمال تبعية الأطفال الذين

(١) سورة النور آية رقم ٣٠.

يولدون من الالتقاء الجنسي العابر.

ومع كثرة إباحة الجنس وسهولة الحصول عليه- فإن التقارير الأمنية تقول «لقد كثرت في العامين الآخرين جرائم الاعتداء على النساء، وعلى الفتيات الصغيرات في إنجلترا وخصوصاً في طرق الريف، وفي أعظم الحالات، كان المعتدى عليه أو المجرم غلاماً مراهقاً. ولقد رصدت أجهزة الأمن هذه الحادثة- حيث كان شيخ في طريقه إلى القرية عندما أبصر على جانب الطريق- وتحت شجرة- غلاماً يضاجع فتاة، واقترب الشيخ منهما، ووكز الغلام بعصاه وزجره ووبخه، وقال له: إن ما يفعله لا يجوز ارتكابه في الطريق العام».

وما كاد الشيخ يفعل ذلك حتى نهض الفتى، وركل الشيخ بكل قوته في بطنه ووقع الشيخ. وهنا ركله الغلام في رأسه بحذائه واستمر يركله بشدة وقسوة حتى تهشم الرأس تماماً. وكان الغلام في سن الخامسة عشرة، والفتاة في سن الثالثة عشرة من عمرها. حدث هذا في القرن العشرين الذي يسمى عصر التمدن والحضارة والرقى. أما في الزمن القديم. وفي مصر الفرعونية، راودت امرأة متزوجة فتاهاً وفكرت في خيانة زوجها. فانشغلت المدينة كلها بهذه الحادثة، ووصلت إلى أعلى سلطة في الدولة للحكم فيها.

وذكرتها أوراق البردي، وتحدث القرآن الكريم عنها حديثاً يتوافق مع الفطرة التي فطر الله الناس عليها. وهو عدم إشاعة الفاحشة في المجتمعات خوفاً من عقاب الله تعالى، وجعل الزواج بين الذكر والأنثى هو أساس العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة. هذا ما حدث في الزمن الفاجر ووعته ذاكرة التاريخ وذكره القرآن الكريم داعياً الناس إلى الطهر والعفاف.

فماذا عن العصر الذي نعيش فيه..؟

عصر التقدم والحضارة كما يسمى..؟

نقول ذلك: لأنه منذ سنوات قليلة نشرت إحدى الصحف البريطانية

قصة مدرسة شابة فى الخامسة والعشرين.

هذه المدرسة كانت تدرس لمجموعة من الشباب المراهقين الجنس.. وكانت تقوم بتدريسهم الجنس عملياً فى الفصل.

كيف يتم ذلك؟

وماذا كانت تفعل حتى ترسخ المعلومات فى عقولهم؟..

هل كانت تلجأ إلى إدارة الفانوس السحري؟..

هل كانت تلجأ إلى بعض الأشرطة الخاصة «بالفيديو» والتي يطلق عليها أشرطة الجنس لا لم تفعل لك، واعتبرت هذه الوسائل قاصرة عن تعاليم الشباب المراهق: الجنس ولكنها كانت تبدأ محاضرتها بأن تخلع ثيابها قطعة قطعة أمام طلبتها ووصل خبر ذلك إلى إدارة المدرسة.

فما كان من الإدارة أن أبلغت وزارة التربية والتعليم. عندها قررت الوزارة إيقاف هذه المدرسة. وطلب منها أن تكف عن عرض دروسها المثيرة على الطلبة والطالبات المراهقين.

وفى اليوم التالى نشرت جريدة «الدلى ميرور» صورة هذه المدرسة الجميلة عارية فى صفحتها الأولى، وقامت حملة ضخمة ضد إدارة المدرسة ووزارة التربية والتعليم «الرجعية» التى تمنع هذه الشابة العبقريّة من مواصلة دروسها المهمة لتعليم الشباب المراهق الجنس. وقامت المظاهرات تأييداً للمدرسة الشابة وحريتها فى التعبير ودعوتها إلى مواصلة جهودها العظيمة فى تربية النشء تربية جنسية سليمة خالية من العقد.

ولم تجد إدارة المدرسة والوزارة بدأً من إعادة المدرسة الشابة إلى ممارسة وظيفتها الحيوية مع الشباب المراهق؟..

هل يصدق أحد أن هذا قد يحدث إنه أمر أشبه بالأسطورة والخيال.. ولا شك أن دعاة التقدم فى وطننا الحبيب لا يعارضون أن تقف مدرسة شابة

عارية تماماً فى الفصل- فى المدارس المختلطة- أمام طلبتها لتدرسهم على الطبيعة الجهاز التناسلى للمرأة ثم تدعو أحد الشباب لتشرح لبقية زملائه الجهاز التناسلى للرجل ثم تقوم بعد ذلك بمزاولة الجنس عملياً مع أحد الشباب وإذا اعترضت إدارة المدرسة أو وزارة التربية على هذه الدروس «المفيدة» فإن الصحافة «التقدمية» والرأى العام سيقومان بحملة ضخمة ضد الآراء الرجعية العتيقة التى تقف أمام تيار التقدم والعلم؟؟

وستخفت عندئذ الأصوات الرجعية وتتطوى على نفسها متململة من هذه الإباحية التى لم تخطر لها من قبل على بال.

يقول «مسيو فردينان دريفوس» عضو البرلمان الفرنسى: إن حرفة البغاء لم تعد الآن عملاً شخصياً بل لقد أصبحت تجارة واسعة وحرفة منظمة بفضل ما تجلب وكالاتها من أرباح.

ويقول «مسيو بول بيور»: إن احتراف البغاء قد أصبح فى زماننا نظاماً محكم التركيب يجرى بما شئت من التنظيم على أيدي الموظفين والعاملين المأجورين، ويخدمه ويعمل فيه أرباب القلم وناشرو الكتب والصحافة والإعلام والأطباء وغيرهم.

ويقول الشيخ أبو الأعلى المودودى رحمه الله فى كتابه «الحجاب»: وجاءت الحرب فابتدعت بدعة البغاء المتطوع علاوة على البغاء التجارى المعروف، وبلغ هذا النوع المبتكر للفحشاء من عظم الشأن أن أكرمت النساء اللاتى كن خدمن الأبطال المدافعين عن أرض فرنسا وولدن من جراء تلك الخدمة أولاداً لا يعرف آباؤهم فلقبن. أمهات زمان الحرب، وأصبح تشخيص هذا الفعل فضيلة خلقية عند أولى الدعارة والفجور، وقامت الجرائد اليومية بوضع أكاليل الفار والاعتزاز على رؤوسهن.

ويقول الشهيد عبد القادر عودة فى كتابه «التشريع الجنائى»: ولا يعاقب القانون المصرى على الوقوع إلا فى حالة الاغتصاب فإن كان بالتراضى فلا

عقاب عليه ما لم يكن الرضا معيباً، ويعتبر القانون المصرى الرضا معيباً إذا لم يبلغ المفعول به ثمانية عشر عاماً كاملة، ولو وقعت الجريمة بناء على طلبه هو فإن بلغها اعتبر رضاه صحيحاً- بل إن القانون المصرى يسمح للزوج أن يزنى بشرط أن يكون ذلك خارج منزل الزوجية، أما إذا زنى الزوج فى منزل الزوجية فيحق للزوجة أن تزنى ولا عقوبة فى ذلك.

وفى الغرب رغم وفرة النساء وسهولة العثور عليهن.. ورغم شيوع الزنا لدرجة مخيفة فى المجتمعات الغربية فإننا نجد كثيراً من الظواهر التى لا يمكن تفسيرها بسهولة مثل:

١- انتشار حالات الاغتصاب الجنسى.

٢- انتشار الشذوذ الجنسى.

٣- انتشار نكاح المحرمات.

٤- انتشار الاعتداء الجنسى على العاملات والموظفات.

لقد كان يقال قديماً إن الكبت الجنسى، وعدم تفريغ هذه الطاقة الضخمة يؤدى إلى هذا الشذوذ فى المجتمع الانفصالى- أى عدم اختلاط الرجال بالنساء. ولكن الغربى لا يعانى من الكبت الجنسى واكتفاء الرجال بالرجال والنساء بالنساء.

يقول الرسول ﷺ: «إن من أعلام الساعة وأشراتها أن يكتفى الرجال بالرجال والنساء بالنساء»^(١).

ويقول الرسول ﷺ أيضاً: «إذا استغنى النساء بالنساء والرجال بالرجال فبشرهم بريح حمراء تخرج من قبل المشرق فتمسخ بعضهم، ويخسف ببعض ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون»^(٢).

(١) الحديث رواه الطبرانى فى الكبير عن ابن مسعود رضى الله عنه.

(٢) الحديث رواه الديلمى عن أنس وروى الحاكم قوله ﷺ: لا تنقض الدنيا حتى يقع الخسف والمسح والقذف قالوا متى يا رسول الله؟ قال: «وذكره».

وقد بلغ من انتشار الشذوذ الجنسي في الحضارة الغربية اليوم أن قننت القوانين بإباحته واعتباره أمراً طبيعياً لا غبار عليه إذا ما كان بين بالغين بدون اكراه.. وتكونت آلاف الجمعيات التي ترعى شؤون الشاذين جنسياً. وهناك معابد وكنائس في الولايات المتحدة تزوج الرجال على الرجال والنساء على النساء في احتفالات خاصة.

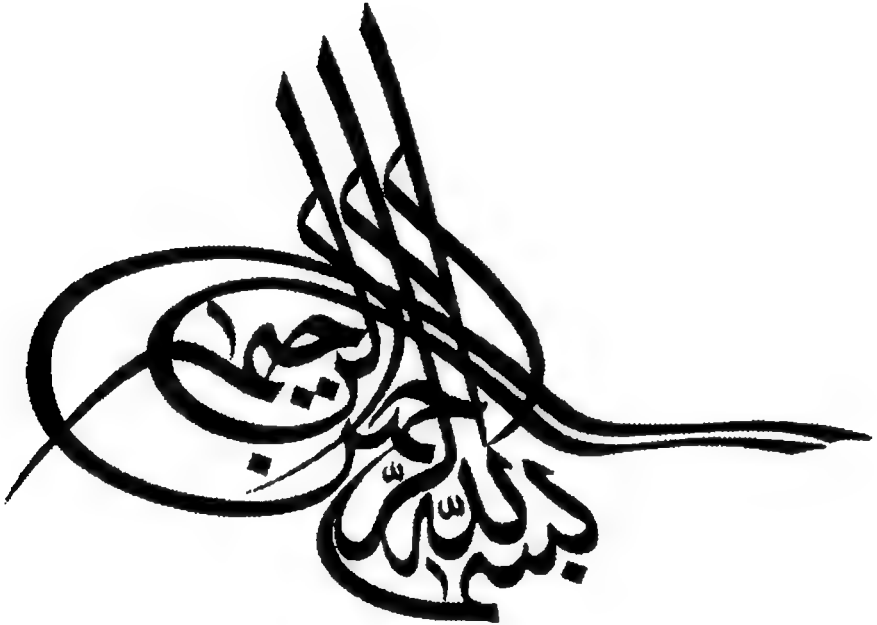
وقد خصصت بعض الجامعات في الولايات المتحدة منحاً دراسية للشاذين جنسياً ومن تلك الجامعات جامعة «سير جورج وليميز» التي تخصص كثيراً من منحها الدراسية للمصابين بالشذوذ الجنسي، ولا يمكن الحصول على تلك المنحة إلا إذا كان المتقدم مصاباً بالشذوذ.

وفي مدينة «لوس أنجلوس» يتجمع ثلاثمائة ألف شاذ جنسى ومن أغرب الأنباء أن مجلة «اللوطين» في بريطانيا نشرت هجوماً على الدين لأنه يحرم الشذوذ الجنسي، وأن الدين لذلك هو سبب لكل المشاكل في الدنيا فما كان إلا أن رد عليه أحد كبار القساوسة قائلاً: إن الكنيسة في حالة مخاض الآن، وأنه عما قريب ستعترف الكنيسة بالشذوذ الجنسي، وأن الشاذ جنسياً إنسان عادي، وله الحق إذا أراد أن يصبح قسيساً أو أى شئ آخر..(١)

(١) عمل المرأة في الميزان الدكتور محمد على الباز.

نسيبة بنت كعب أم عمارة

رضي الله عنها



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ
وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ
وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ
وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ
وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ
اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً
وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

(الأحزاب: ٣٥)

أقوال العلماء والمفسرين فى نزول هذه الآية

قال كثير من العلماء إنها نزلت عندما سألت أم سلمة وأم عمار ما بال
الرجال يُذكرون ولا تذكر النساء...؟
قاله مقاتل بن سليمان.

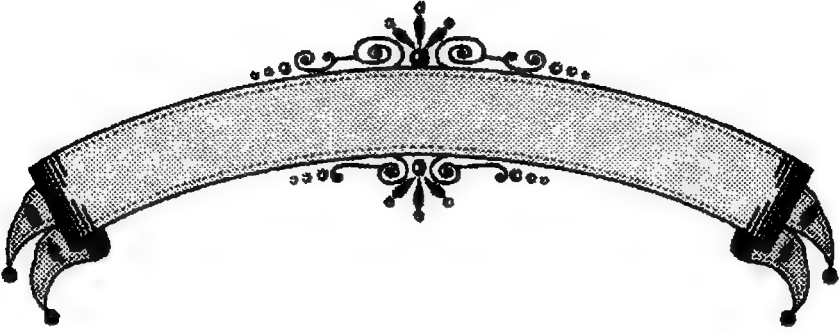
وذكره ابن الجوزى فى التفسير ج ٦ ص ٢٨٤.

وذكره القرطبى فى التفسير ج ٧ ص ١٨٥.

وذكره السيوطى فى الدور المنشور ج ٥ ص ٢٠٠

وحسنه الترمذى والطبرانى وابن مردويه

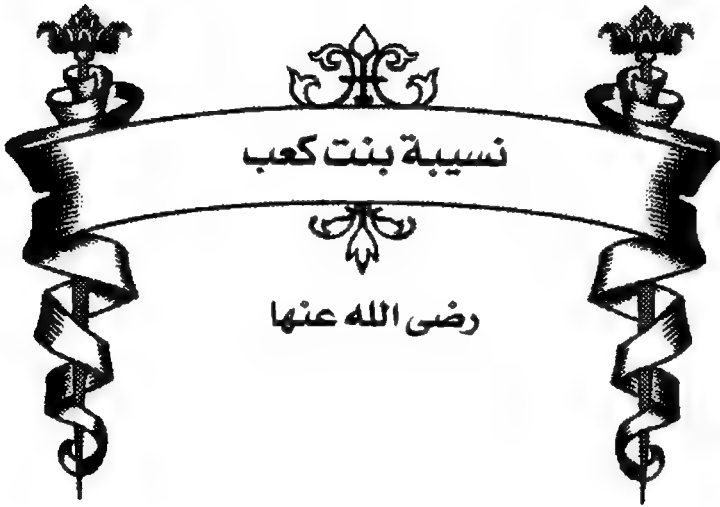
فمن هى أم عمار...؟ رضي الله عنها



قال الرسول - ﷺ - :

لما كان يوم أحد حضرته نسيبة بنت كعب:

« ما التفت يمينا ولا شمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دوني.»





حياتها ونشأتها

عملاقة من عمالقة المجاهدات.

وأم مثالية ربت فأحسنّت التربية وخرّجت العديد من فرسان مدرسة النبوة وامرأة عميقة الإيمان كأنها تنتظر إلى ربها بعينيها. فهي القائنة العابدة المتهجدة بالأسحار.

وهي من أولئك الأنصار الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَنَ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١)

نعم الأنصار الذين استقبلوا المهاجرين بهذا الحب الكريم وطوقوهم بهذا البذل السخي الذي يدل على الكرم والأريحية. وبهذه المشاركة الرضية وبهذا التسابق إلى الإيواء واحتمال الأعباء حتى ليرى أنه لم ينزل مهاجر في دار الأنصار إلا بقرعة.

لأن عدد الراغبين في الإيواء المتزاحمين عليه أكثر من عدد المهاجرين، لقد كان الأنصار يؤثرون على أنفسهم والإيثار على النفس مع الحاجة قمة عليا من قمم الحب والمشاركة، لقد قام الأنصار بالبذل الكبير.

بذل المال بكل أنواعه.

(١) سورة الحشر آية رقم ٩.

بذل في العاطفة الجياشة المؤمنة.

وبذل في الجهد الذي لا يقف عند حد.

وبذل للحياة نفسها في سبيل نصرة المؤمنين الذي تركوا الديار والمال

والولد.

إسلام نسيبة بنت كعب..

كان الرسول ﷺ يعرض نفسه على الوفود التي تأتي إلى مكة ويدعوهم

إلى الإسلام فالتقى ﷺ في أحد المواسم بوفد من يثرب فقال لهم ﷺ:

من أنتم؟

قالوا: نفر من الخزرج.

قال ﷺ: أمن موالى يهود؟

قالوا: نعم.

قال: أفلا تجلسون أكلكم؟

قالوا: بلى. فجلسوا معه. فدعاهم إلى الله عز وجل. وعرض عليهم

الإسلام، وتلا عليهم القرآن.

قال: وكان مما صنع الله بهم في الإسلام أن يهود كانوا معهم في

بلادهم. وكانوا أهل كتاب وعلم.

وكان أهل يثرب أهل شرك وأصحاب أوثان. وكانوا قد غزوه ببلادهم،

فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم: «إن نبياً مبعوث الآن قد أظل زمانه

نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم.

فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر، ودعاهم إلى الله. قال بعضهم

لبعض ياقوم: تعلموا والله أنه للنبي الذي توعدكم به اليهود فلا تسبقنكم

إليه.

عندها: أجابوا الرسول ﷺ فيما دعاهم إليه بأن صدقوا وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام ثم قالوا: إذا تركنا قومنا وبيننا من العداوة ما بينهم فغسى الله أن يجمعهم بك.

ثم انصرفوا إلى قومهم راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا.

بيعة العقبة الأولى بين أهل يثرب والرسول ﷺ

حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً. فبايعوا رسول الله ﷺ وذلك قبل أن تفرض الحرب.

عن عبادة بن الصامت قال كنت فيمن حضر العقبة الأولى وكنا اثني عشر رجلاً فبايعنا رسول الله ﷺ. وذلك قبل أن تفرض الحرب على الآتي:

أولاً: لا نشرك بالله شيئاً فهو الواحد الأحد الفرد الصمد.

ثانياً: لا نسرق ولا نسطو على أموال الغير صغيراً أو كبيراً.

ثالثاً: ولا نزنى أى نرتكب الفحشاء ولا نسطو على أعراض الغير.

رابعاً: ولا نقتل أولادنا - كما يحدث في الجاهلية وقد نزل قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ (١).

وقوله أيضاً: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ﴾ (٢).

خامساً: ولا نأتى ببهتان نفتريته بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف فإن وفيتم فلكم الجنة.

وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأمركم إلى الله عز وجل إن شاء عذب، وإن شاء غفر لكم.

فلما أراد القوم الانصراف، بعث رسول الله ﷺ معهم الصحابي الفقيه مصعب بن عمير رضي الله عنه.

(٢) سورة الإسراء آية رقم: ٢١.

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٥١.

وأمره ﷺ: أن يدعوهم إلى الإسلام ويعلمهم أركانه وقواعده وأن يقرئهم القرآن ويرتله لهم ترتيلاً. ويفقههم في الدين. وتعاليمه.
ثم ماذا: رحل معهم مصعب وكان له دور كبير في نشر الإسلام في ربوع يثرب.

نسبة بنت كعب في بيعة العقبة الثانية

قال ابن إسحاق: ثم إن مصعب بن عمير رضي الله عنه رجع إلى مكة وخرج من خرج من الأنصار من المسلمين إلى موسم الحج حتى قدموا مكة حين أراد الله سبحانه وتعالى ما أراد من كرمه. أن يحقق النصر لرسوله - ﷺ وأن يعز الإسلام وأهله وأن يذل الشرك وقومه.

يقول البراء فذهبنا نبحث عن الرسول ﷺ فلقينا رجلاً من أهل مكة، فساناه عن رسول الله ﷺ.

فقال: هل تعرفانه؟

فقلنا: لا.

قال: فهل تعرفون العباس بن عبدالمطلب عمه؟

قال: قلنا نعم نعرفه لأنه كان يقدم علينا تاجراً.

قال: فدخلنا المسجد فإذا العباس جالس. ورسول الله ﷺ جالس معه. فسلمنا عليه ثم جلسنا إليه فقال الرسول ﷺ «هل تعرف هذين الرجلين؟»
يا أبا الفضل.

قال نعم: هذا البراء بن معرور سيد قومه. وهذا كعب بن مالك.

قال: فوالله ما أنسى قول الرسول ﷺ: الشاعر...؟

قال: نعم.

قال كعب: ثم خرجنا إلى الحج وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ لها وكنا نكتم عن قومنا من المشركين أمرنا.

قال: فقمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا - حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لمعاد الرسول ﷺ نتسلل تسلل القطا مستخفين حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة. ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً ومعه امرأتان من نسائنا نسبية بنت كعب أم عمارة. وأسماء بنت عمرو بن عدى. إحدى نساء بنى سلمة.

قال: فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاء ومعه عمه العباس بن عبد المطلب وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له. فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه:

قال: يامعشر الخزرج: إن محمداً آمناً حيث علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه. فهو في عز من قومه ومنعة في بلده. وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم. واللاحق بكم.

فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه. فأنتم وما تحملتم من ذلك. وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده.

قال: فقلنا له: لقد سمعنا ما قلت.

فتكلم يارسول الله ﷺ: فتلا القرآن، ودعا إلى الله ورغب في الإسلام ثم قال: «أبايكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبنائكم.

قال: فأخذ البراء بن معرور بيد الرسول ﷺ ثم قال: نعم والذي بعثك بالحق نبياً لنمنعك مما تمنع نساءنا وأولادنا فبايعنا يا رسول الله. فنحن والله أبناء الحروب. وأصحاب السلاح ورثاها كابراً عن كابر.

ثم وقف الهيثم بن التيهان رضي الله عنه فقال: يارسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبلاً وإننا قاطعوها - يعني اليهود.

فهل عسييت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك
وتدعنا ؟..

قال: فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: بل الدم الدم والهدم الهدم (١).

أنا منكم وأنتم مني أحارب من حاربتهم وأسألم من سألمتهم.

وتمت البيعة بين الرسول ﷺ وبين القوم ومعهم نسيبة بنت كعب وعادت
نسيبة إلى يثرب مرة أخرى لتتضم إلى فريق الدعاة إلى الإسلام ونشر دين
الله في أركان الأرض الأربعة.

نسيبة بنت كعب في غزوة أحد

نسيبة الفارسة التي لا يشق لها غبار.

نسيبة المحاربة بالسيف والرمح والترس. نسيبة التي تدخل المعركة وتريد
أن تتال الشهادة بعد أن تجندل الفرسان شهدت أم عمارة أحداً مع زوجها
وابنيها.

خرجت معهم بقربة في أول النهار تريد أن تسقى الجرحى. ولكن
أجبرها المشركون على القتال وأبليت بلاء حسناً حتى أصيبت بأثنى عشر
جرحاً بين طعنة برمح أو ضربة بسيف. ؟؟.

قالت أم سعيد بنت الربيع. دخلت على نسيبة بنت كعب فقلت حدثيني
خبرك يوم أحد. قالت: «خرجت أول النهار إلى أحد وأنا أنظر ما يصنع
الناس ومعى سقاء فيه ماء فانتهيت إلى رسول الله ﷺ في أصحابه والدولة
والريح للمسلمين فلما انهزم المسلمون، انحزت إلى رسول الله ﷺ فجعلت أباشر
القتال وأدافع عن رسول الله. بالسيف وأرمى بالقوس حتى خلصت إلى
الجراح.

قالت: فرأيت على عاتقها جرحاً له غور أجوف. فقلت: يا أم عمارة من

(١) أي دمي دمك وهدمي هدمك.

أصابك هذا ٩٠٠

قالت: ابن قميئة. وقد ولى الناس عن رسول الله فجاء يصيح: دلوني على محمد لا نجوت إن نجا فاعترض له مصعب بن عمير وناس معه وكنت فيهم فضرينى هذه الضربة. ولقد ضربته على ذلك ضربات. ولكن عدو الله كان عليه درعان.

ولقد قاتلت نسبية أشد القتال، وإنها لحاجة ثوبها على وسطها حتى جرحت ثلاث عشرة جرحاً ولذلك قال الرسول ﷺ لها: «ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة، وبشرها رسول الله ﷺ بصحبته هي وأسرته في الجنة: ﴿فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ (١) .

بيعة الرضوان...

خرج رسول الله ﷺ في ذى القعدة معتمراً لا يريد حرباً. ومعه المهاجرون والأنصار ومن لحق بهم من العرب وساق معه الهدى، وأحرم بالعمرة ليأمن الناس من حربه. وليعلم الناس: كل الناس أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت ومعظماً له فلما اقترب رسول الله ﷺ من ثنية المزارق قرب مكة بركت ناقته.

فقالت الناس خلأت الناقة.

قال ﷺ: ما خلأت وما هو لها بخلق. ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة. لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألونى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها. ثم أرسلت قريش عروة بن مسعود إلى الرسول ﷺ فلما جاء قال: يا محمد أجمعت أوشاب الناس ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها بهم. إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمر يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبداً.

(١) سورة القمر آية رقم ٥٥.

فكلمه رسول الله ﷺ بنحو مما كلم رسل قريش قبله وأخبره أنه لم يأت يريد حرباً.

فقام عروة بن مسعود من عند الرسول ﷺ وقد رأى ما يصنع به أصحابه.
لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه.

ولا يبصق بصاقاً إلا ابتدروه.

ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه.

فرجع إلى قريش وقال لهم: يامعشر قريش، إني قد جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه. والنجاشي في ملكه.

وإني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه. ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً فروا رأيكم؟

ثم أرسل الرسول ﷺ عثمان فخرج إلى مكة وانطلق حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به.

فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إن شئت أن تطوف بالبيت فطف.

فقال عثمان ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ واحتبسته قريش عندها فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان بن عفان قد قتل.

نسب بنة بنت كعب وبيعة الرضوان

قال رسول الله ﷺ عندما بلغه مقتل عثمان: «لأنبرح حتى تناجز القوم».

ودعا ﷺ إلى البيعة. فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة وقال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝ (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝ (١٩) وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ (١).

لقد علم الله ما في قلوب المؤمنين الذين يبايعون تحت الشجرة علم ما في قلوبهم من صدق وإخلاص لدينهم علم ما في قلوبهم أنهم صادقون في بيعتهم لرسولهم على ما في قلوبهم من كظم الانفعالات تجاه طغيان وتسلط قريش. على ما في قلوبهم من استجابتهم لأمر الرسول ﷺ. وأثابهم فتحاً قريباً: هو هذا الصلح بطروفة التي جعلت منه فتحاً.

ولقد كانت نسب بنة بنت كعب إحدى المبايعات للرسول ﷺ ومعها مجموعة من المؤمنات المجاهدات والداعيات لدين الله والعاملات في حمل المياه للجنود لإطفاء ظمئهم. وتضميد جروحهم. ودفعهم إلى الحمية والقتال في سبيل الله كما أمرهم الله بقوله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ (٢).

ثم ماذا.. كان الصلح. وكان السلام.

ونزل قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسِيْرُهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٣).

(٢) سورة التوبة آية رقم: ٢٩.

(١) سورة الفتح الآيات من: ١٨ - ٢٠.

(٣) سورة الفتح آية رقم: ١٠.

لقد جاء الرسول ﷺ ليصل هؤلاء المؤمنين بربهم ويعقد بينهم وبينه بيعة ماضية لا تنقطع. فالرسول ﷺ حين يضع يده في أيديهم مبايعاً يبايع عن الله. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْمُرُونَكَ أَنْ يَأْمُرُوا اللَّهَ﴾ (١).

وكل مسلم يضع يده في يد الرسول يشعر أن يد الله فوق أيديهم فالله حاضر البيعة والله صاحبها. صاحبها بقوته وإرادته. صاحبها بعظمته وكبريائه. صاحبها بقوله للشئ كن فيكون.

فهنيئاً لك يا نسيبة بنت كعب ومعك كل المؤمنين الذين بايعوا هذه البيعة التي هي لله وفي سبيل دينه وكونه وعظمته: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٢).

نسيبة بنت كعب في غزوة خيبر

خرج النبي ﷺ إلى خيبر. وحاصر حصنهم. حتى إذا أيقنوا بالهلاك. سألوا الرسول ﷺ أن يجلبهم من حصنهم ويحقن دماءهم فاستجاب الرسول ﷺ لطلبهم وقاسمهم نصف أموالهم. لذا كانت خيبر فيئاً بين المسلمين.

وكانت فذك خالصة لرسول الله ﷺ لأن المسلمين لم يجلبوا عليها بخيل ولا ركاب أى لم يكن بين أهل فذك والمسلمين قتال. ولما استسلمت خيبر وتوقف القتال. أهدت زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم اليهودى. شاة مشوية مسمومة. وقد سألت أى عضو من الشاة أحب إلى رسول الله ﷺ؟

فقبل لها: الذراع.

عنده أكثرت فيه السم.

ثم جاءت بها. فلما وضعتها بين يدي الرسول ﷺ تناول الذراع فلاك

منها مضغة فلم يسفها.

(١) سورة التوبة آية رقم: ١٠.

(٢) سورة يس آية رقم: ٨٢.

وكان معه بشر بن البراء بن معرور. قد أخذ منها كما أخذ الرسول ﷺ وأكلها. وأما الرسول فلفظها وقال: «إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم...»؟

ثم طلب هذه المرأة التي قدمت الشاة المسمومة فاعترفت..؟؟

فقال لها ﷺ: ما حملك على ذلك..؟

قالت: لقد فعلت في قومي ما لا يخفى عليك.

فقلت: إن كان ملكاً استرحنا منه. ومن بطشه بنا وقتله رجالنا وأبنائنا. وإن كان نبياً: فسيخبره ولا يضره.

قال: فتجاوز عنها رسول الله ﷺ. ومات بشر رضي الله عنه من أكله الذي أكل.

ولقد شهد خيبر مع رسول الله ﷺ نساء من نساء المسلمين.. عن امرأة من بنى غفار قالت: «أتيت رسول الله ﷺ في نسوة من بنى غفار فقلنا: «يا رسول الله قد أردنا أن نخرج معك إلى وجهك هذا - وهو يسير إلى خيبر فتداوى الجرحى. ونعين المسلمين بما استطعنا.

فقال على بركة الله.

قالت فخرجنا معه - وكانت تحركنا وتشير علينا نسيبة بنت كعب رضي الله عنها.

نعم نسيبة: بطلة الجهاد والقتال.

نسيبة التي كانت تدخل المعارك التي تقام بين المسلمين وأعدائهم ولا تطلب إلا النصر أو الاستشهاد في سبيل الله.

ولما فتحت خيبر تقول أم عمارة نسيبة بنت كعب «قد أعطى رسول الله ﷺ النساء اللاتي كن معه بعض الفنائم، وأخذت أم عمارة نصيبها من مغانم خيبر خرزاً، وبعض الملابس ودينارين.

يقول عبد الله بن كعب أخو أم عمارة رأيت في رقبتها خرزاً أحمر فسألته عن الخرز.

فقالت: أصاب المسلمون خزرًا في حصن الصعب بن معاذ. أحد حصون خيبر وهو مدفون في باطن الأرض فأتى به إلى رسول الله ﷺ فأمر بمن معه من النساء عن عددكن فكانوا عشرين امرأة.

فقسم الرسول ﷺ الخرز بيننا. وأعطى كل واحدة من الفئ قطيفة وبرداً يمانياً ودينارين.

وانداحت دعوة الإسلام في فجاج الأرض لتعلن وحدانية الله تعالى وأنه لا شريك له ولا ولد وتهاوت الأوثان والأصنام وارتفع صوت المؤذن عالياً مجلجلاً في أنحاء المعمورة حتى قال شاعر المسلمين يصف المد الإسلامي الكبير.

كانوا رعاة جمال قبل نهضتهم
وبعدما ملئوا الأفاق تمديننا
لو كبرت بأفاق الصين مثننة
سمعت في الغرب تهليل المصلينا

رحم الله هؤلاء الأبطال الذين أشاعوا الإسلام في رحاب السند والهند ووصلوا إلى أوروبا وتوغلوا فيها حتى وصلوا إلى فينا واتجهوا إلى روسيا.. ودانت لهم بخارى وسمرقند والقوقاز وطشقند وسيبيريا. ويقف قائدهم على شاطئ البحر المحيط. قائلًا: «والله لو أعلم أن خلف هذا البحر قومًا لا يؤمنون بالله ولا يصدقون بمحمد لخضت لهم بهذا الفرس».

نسبية بنت كعب فى غزوة حنين...

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١﴾﴾ .

إن معركة حنين يذكرها السياق فى الآيات ليعرض نتائج الانشغال عن الله والاعتماد على قوة غير قوته.

إن الكثرة العددية ليست بشيء إنما القلة العارفة المتصلة بالله هى الثابتة المتجردة التى تحقق النصر بأمر الله تعالى. وإن الكثرة لتكون أحياناً سبباً على الهزيمة. لأن بعض الداخلين فيها التاهئين فى غمارها تتزلزل أقدامهم وترتجف فى ساعة الشدة.

عندها يشيعون الاضطراب والهزيمة فى الصفوف فوق ماتخذ أصحابها فتجعلهم يتهاونون فى توثيق صلتهم بالله انشغالاً بهذه الكثرة الظاهرة عن اليقظة والانتباه لسر تحقيق النصر والعوامل المؤدية إلى ذلك.

تقول أم عمارة نسبية بنت كعب رضي الله عنها «لما كان يومئذ والناس منهزمون فى كل وجه، وأنا وأربع نسوة فى يدي سيف صارم، وأم سليم معها خنجر قد حزمته على وسطها وأم سليط، وأم الحارث.

ثم أنظر فأرى رجلاً من هوزان على جمل أورق معه لواء يضع جملة وسط المسلمين فاعترضت له وضربت عرقوب الجمل عندها سقط الرجل من على جملة فتقدمت إليه ولم أزل أضربه بسيفى حتى أثبته وتركت الجمل يخرخر وهو ينقلب ظهراً لبطن.

ورسول الله ﷺ قائم مصلت السيف بيده وهو ينادى: يا أصحاب سورة.

البقرة يا أصحاب بيعة الرضوان: هلموا إلىَّ عندها كر المسلمون وجعلوا يرددون «يا خيل الله أركبى» وكان رسول الله ﷺ قد سمى خيله: خيل الله. وجعل شعار المهاجرين بنى عبد الرحمن وجعل شعار الأنصار بنى عبيد الله. فكرت الأنصار: ووقفت هوازن مقدار حلب ناقة ثم كانت الهزيمة لهم.

تقول نسيبة بنت كعب: فو الله ما رأيت هزيمة مثلها حيث ذهبوا في كل وجه ورجع ابنائى حبيب وعبد الله ابنا زيد بأسارى من هوزان مكتفين فقامت من الفيط فضربت عنق واحد منهما بسيفى فسقط قتيلًا ثم توالى أسرى هوازن بأيدى المسلمين وصدق وعد الله للمسلمين بقوله: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ (١).

نسيبة بنت كعب أم الشهيد

قتل حبيب ابنها شهيداً فاحتسبته صابرة عند الله تعالى:

صبرت على فراقه ولكنها فرحت لاستقراره فى الفردوس الأعلى. وكيف لا تفرح وتفتبط والله سبحانه وتعالى يخبر أنهم أحياء لا أموات فى رحابه وذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ (٢).

فهم فى حياة دائمة مستمرة وليست هانية.

ولديهم الرزق الطيب من جنة عدن والتي حوت كل ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين.

من لبن لم يتغير طعمه ومن غسل مصفى لا شوب فيه.

ومن خمر لذة للشاربين ومن ماء غير آسن.

(٢) سورة آل عمران آية رقم: ١٦٩، ١٧٠.

(١) سورة التوبة الآية: ٢٦.

وهذه الجنة لا لغو فيها ولا تأثيم.

ولاستشهاد ابنها قصة رائعة تخبر عن موقف لا يقل فى روعته عن مواقف أمه المجاهدة المقاتلة.

لقد صبر وصمد وقاتل وقتل وأفسح الطريق أمام الدعوة الخاتمة ودين الله الذى أرسل الله به رسوله.

وقصة الاستشهاد للبطل المفوار والصاحبى الجليل حبيب بن زيد كما ذكرها الرواة.

هى أن مسيلمة الكذاب وفد مع بنى حنيفة على رسول الله ﷺ وأسلموا، ولما رجعوا إلى منازلهم بنجد ارتد مسيلمة وزعم أنه نبي مرسل إلى بنى حنيفة، وتبعه بعض قومه بدوافع مفرضة أهمها العصبية. واستشرى خطر مسيلمة الكذاب وعاث فى الأرض فساداً وهنا برز الشهيد السعيد الصامد ابن أم عمارة حبيب بن زيد أحد نجباء مدرسة النبوة.

الذى رضع حتى الثمالة من نبع الإيمان وفطم على منهل التقوى. وشب من تاريخ شبابه على الجهاد وركوب الخيل وجندلة المشركين بالله. فاختره رسول الله ليقوم بأداء رسالته إلى مسيلمة الكذاب يزجره فيها عن ضلاله وكذبه وغيه.

وقام الفارس حبيب بأداء واجبه وسلم الرسالة إلى مسيلمة الكذاب ولكن مسيلمة لم يرع حرمة الرسل. بل قبض عليه وأوثقه بالحبال. وأخذ فى استجوابه.

أتشهد يا حبيب أن محمداً رسول الله...؟

قال حبيب: نعم أشهد ذلك أمام ربي وعند كل الناس.

ثم يقول له مسيلمة الكذاب: أتشهد أنى رسول الله..؟

قال حبيب: أنا أصم فلا أسمع ولا أعى ما تقول..؟

فعل مسيلمة ذلك مراراً - وحبيب ثابت على رأيه . فما كان من مسيلمة إلا أن قطعه عضواً عضواً . حتى مات شهيداً في سبيل الله .
وصعدت روحه إلى بارئها راضية في مقعد صدق عند مليك مقتدر وقد رثاه مالك بن عمر الثقفي قائلاً .

مضى صاحبي قبلي وخلفت بعده
فكيف بأعضائي البقية أصنع
وقال له الكذاب تشهد أنني
رسول فأوماً أنني لست أسمع
فقال أتشهد أنها لمحمد
فنادى بدعوى الحق لا يتنعم
فضرب أم الرأس فيه بسيفه
غوى لحاء الله بالفتك مولى

وانتشر خبر استشهاد حبيب ﷺ - ولما بلغ أم عماره - عاهدت الله تعالى على قتل مسيلمة . ثم رضيت بقضاء الله وقدره وصبرت صبراً جميلاً .

نسبية بنت كعب أم عمارة بطلة معركة اليمامة

أمر الصديق ؓ بتحريك جيش المسلمين إلى اليمامة بقيادة خالد بن الوليد ؓ - لقتال مسيلمة الكذاب المرتد - المدعى للنبوّة.

وجاءت الصحابية المجاهدة أم عمارة - وطلبت من أبي بكر الصديق - ؓ أن يأذن لها بالخروج إلى اليمامة.

وانطلقت أم عمارة ؓ لتقدم للأمة الإسلامية مواقف لها مضيئة مضافة إلى مواقفها السابقة في نصرة الإسلام والمسلمين.

وفى أرض اليمامة جاهدت أروع جهاد. وجرحت الكثير من الجراحات رغبة في أن تلقى مسيلمة الكذاب - الذي فرق أمر المسلمين وأراد أن يشتت وحدتهم ولكنها قبل أن تصل إلى مقر مسيلمة - كانت سيوف المسلمين وسهامهم قد فعلت فعلها مع مسيلمة حتى أردته قتيلاً.

وشاهدت جثته وهي ملطخة بالتراب والدماء - ولاحت منها التفاته - فشاهدت ابنها عبدالله يحمل سيوف الأبطال المفاوير من جند الإسلام والذين قتلوا مسيلمة - لينظفها من دمائه النجسة.

عندها : سجدت أم عمارة شكراً لله - وآمنت إيماناً قوياً بأن الآجال بيد خالق الموت والحياة فتمتعت بينها وبين نفسها بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ (١).

وقوله أيضاً: ﴿قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ (٢).

ورآها خالد تقف متصلبة وهي تتمتع بشفتها بحديث لا يبين فقال لها: ماذا تقولين يا أم عمارة؟ قالت أردد قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٣).

(٢) سورة الجمعة آية رقم: ٨.

(١) سورة آل عمران الآية: ١٤٥.

(٣) سورة الأعراف آية رقم: ٢٤.

مع الصديق والفاروق رضي الله عنهما

كانت أم عمارة- رضوان الله عليها- تحظى بالمكانة اللائقة في ظلّ الخلفاء الراشدين، فقد كان سيدنا أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - يسأل عنها دائماً ويتفقد أحوالها، روى محمد بن يحيى بن حبان هذا فقال:

جُرحت أم عمارة بأحد اثني عشر جرحاً، وقطعت يدها يوم اليمامة، وجرحت يوم اليمامة سوى يدها أحد عشر جرحاً، فقدمت المدينة وبها الجراحة، فلقد رُئي أبو بكر- رضي الله عنه - وهو خليفة يأتيها يسأل عنها رضي الله عنه (١).

وفي عهد سيدنا عمر بن الخطاب- رضوان الله عليه- ظلت الصحابية المجاهدة تحظى بالمكانة نفسها، فعن موسى بن حمزة بن سعيد عن أبيه قال:

أتى عمر بن الخطاب- رضي الله عنه - بمروط، فكان فيها مرطٌ جيد واسع، فقال بعضهم:

إن هذا المرط لثمنه كذا وكذا فلو أرسلت به إلى زوجة عبد الله ابن عمر صفية بنت أبي عبيد، فقال عمر- رضي الله عنه -: أبعثُ به إلى مَنْ هو أحقُّ به منها، أمّ عمارة نسيبة بنت كعب، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول يوم أحد: «ما التفتُ يميناً ولا شمالاً إلا وأنا أراها تقاتلُ دوني» (٢).

وبقيت أم عمارة رضي الله عنها تحظى بالاحترام والتقدير من جميع الصحابة إلى آخر لحظة من حياتها في المدينة المنورة رضي الله عنها وأرضائها.

في الصفحات السابقة، عشنا سعادة مع جهاد أم عمارة في أحد وفي اليمامة، وشهدنا معها بيعة الرضوان، والمواقف الأخرى المشرفة، والآن نعيش لحظات في ظلال الذكر مع الصحابية المؤمنة أمّ عمارة.

(١) انظر سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٨١).

(٢) انظر أنساب الأشراف (١/ ٢٢٦).

فقد ذكر أن أمَّ عمارة - ؓ - قالت للنبي الكريم ﷺ: يا رسول الله، ما أرى كل شيء إلا للرجال، وما أرى النساء يذكرن بشيء^(١). فنزلت هذه الآية الكريمة:

أم عمارة والقرآن الكريم

فنزل قول الله تعالى:

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٢).

أم عمارة والحديث النبوي:

بالإضافة إلى حبها للقرآن الكريم كانت أم عمارة راوية للحديث النبوي الشريف، فقد ذكر الذهبي - رحمه الله - أن أم عمارة قد روى لها أحاديث^(٣).

روى عن أم عمارة ابن ابنها عبّاد بن تميم بن زيد، وابن أخيها الحارث ابن عبد الله بن كعب، وعكرمة مولى ابن عباس، وأم سعد بنت سعد بن الربيع، كما روى لها الإمام الترمذي والنسائي وابن ماجه في سننهم.

ومن مرويات الصحابة النقية المؤمنة أم عمارة أن النبي ﷺ دخل عليها فقدمت إليه طعاماً فقال: «كلى» فقالت: إني صائمة، فقال: «إن الصائم إذا

(١) انظر كتاب: أسباب النزول عن الصحابة، والمفسرين للشيخ عبد الفتاح القاضى (ص ١٨٠)، والاستبصار (ص ٨٢)، والاستيعاب (٤ / ٤٥٦).

(٢) سورة الأحزاب آية رقم: ٣٥.

(٣) سير أعلام النبلاء (٢ / ٢٧٨)، وانظر في هذا أيضاً تهذيب التهذيب (١٢ / ٤٧٤)، والإصابة (٤ / ٤٠٤). ذكر محمد بن علان الصديقي الشافعى في كتابه النفيس المبارك «دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين» أن أم عمارة روى لها أصحاب السنن ثلاثة أحاديث وذكر حديث الصيام. انظر دليل الفالحين (٧ / ٧٤).

أكل عنده صلت عليه الملائكة» (١).

وأخرج ابن منده عن أم عمارة بنت كعب قالت: أنا أنظرُ إلى رسول الله ﷺ وهو ينحر بدنة قياماً بالحربة (٢).

بشارتها بالجنة:

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٣).

تحتلُّ أم عمارة نسيبة بنت كعب - رضى الله عنها - مكانة عالية بين النساء الصحابيات، فقد قدّمت للإسلام كل ما تستطيع لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

وفضلها في مجال العبادة والصلاح يفوح بالطيب، وقصص جهادها وثباتها إمتاعاً للأسماع، وظلت تجودُ بالعطاء المثمر في جميع المجالات إلى أن لقيت ربها راضية مرضية - رضى الله عنها - وأرضاها (٤).

أما عن بشارتها العظمى، فقد نالت ذلك في يوم أحد مع أهل بيتها، حيث قال لهم النبي الكريم ﷺ وهم حوله عند اشتداد المعركة: «رحمكم الله أهل البيت» فقالت له أم عمارة - رضى الله عنها - : ادعُ الله أن نرافقك في الجنة، فقال ﷺ: «اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة» فقالت: ما أبالي ما أصابني من الدنيا» (٥).

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، وانظر طبقات ابن سعد (٨ / ٤١٦)، والاستيعاب (٤١٦)، وأسد الغابة ترجمة رقم (٧٣١١).

(٢) المغازي (٢ / ٦١٣)، وأسد الغابة ترجمة رقم (٧٥٤٢).

(٣) سورة الحديد آية رقم: ١٢.

(٤) ذكر الزركلى في الأعلام (٨ / ٣٣٤) أنها توفيت سنة ١٢ هجرية.

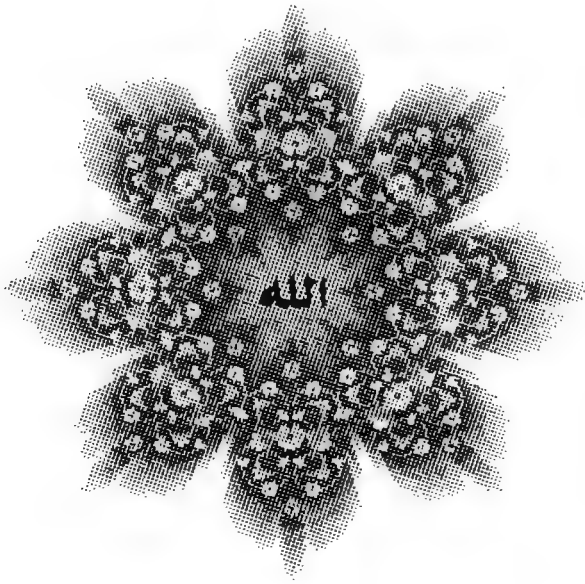
(٥) انظر المغازي (١ / ٢٧٣)، وطبقات ابن سعد (٨ / ٤١٥)، وسير أعلام النبلاء (٢ / ٢٨١)، والسيره الحلبية (٢ / ٥٠٩).

وقد حظيت نسبىة من قبل أحد بشارتها بالجنة- عند العقبة- فهي عقبية، كما حظيت بعد أحد ببشارة عظمى وشهادة إلهية موقعة من رب العالمين بالرضوان وذلك فى بيعة الرضوان، وفى حنين كانت من المئة الصابرة الذين تكفل بأرزاقهم وأرزاق عيالهم فى الجنة.

والآن، فهذه رحلة شائقة قضيناها فى رحاب الصحابية أم عمارة الأنصارية الكريمة المعطاء، هذه الصحابية كانت من الأنصار الذين قال فيهم كعب بن زهير يذكر فضلهم وأعمالهم الطيبة مع النبى الكريم ﷺ:

ورثوا المكارم كابرأ عن كابر

إن الخيار هم بنو الأخيار
وبعد، رحم الله أم عمارة نسبىة بنت كعب، ونضر الله قبرها، ورضى عنها وأرضاها، ومع وداع سيرتها العطرة المباركة نقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِندَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾ (١).



(١) سورة القمر الأيتان: ٥٤، ٥٥.



وظيفة المرأة المسلمة

من تكون المرأة المسلمة؟ وأي الأعمال نختار لها؟.. أهى المرأة التى تهجر بيتها وتترك أطفالها لتساهم فى الحياة العامة؟..

أم أنها المرأة التى تدرس لتحصل على أرقى الشهادات، وأكبر الدرجات العلمية متجاهلة وظيفتها الأساسية ورسالتها فى الحياة...؟

أم أنها المرأة التى تجلس فى بيتها لا تفكر فى عمل وتساهم فى حياة وتترك أعباء بيتها وأولادها على زوجها؟..

إن المرأة فى نظر الإسلام ليست هذه ولا تلك، ولكن المرأة هى التى تعرف حقيقة وضعها، وتقوم بأعباء وظيفتها، وتساهم فى حل مشكلة الحياة مع زوجها. تقول أم المؤمنين السيدة عائشة - رضي الله عنها -

«المغزل بيد المرأة أحسن من الرمح بيد المجاهد فى سبيل الله».

ورأت أثر المغزل فى يد امرأة فقالت:

«أبشرى بما لك عند الله عز وجل. لو رأيتم بعض ما أعد الله لكم معاشر النساء لم أقررتم ليلاً ولا نهاراً».

ما من امرأة غزلت لزوجها ولنفسها ولصبيانها إلا أعطاه الله عز وجل بكل طاقة نوراً حتى ملأت مغزلها، فإذا ملأت مغزلها أعطاه الله عز وجل بيتاً فى الجنة أوسع من المشرق إلى المغرب، ولها بكل ثوب حسنة، وما على ظهر الأرض تسبيح يعد عند الله من صوت صرير يخرج من مغزل النساء حتى ينتهى إلى العرش له دوى كدوى النحل، ويعدل عند الله عز وجل منزلة كبيرة.

ثم قالت: بلغوا عنى النساء ما أقول: ما من امرأة غزلت حتى كسيت

نفسها إلا إستغفر لها سبع سموات وما فيهن من الملائكة. إلى أن قالت: أبشروا معاشر النساء ما لکن عند الله عز وجل بطاعتكن لبعولتكن وخدمتكن لأولادكن. أنتم المساكين فى الدنيا، والسابقون إلى الجنة مع أرواح الأنبياء يغفر الله لکن كل ذنب عملتهن ما خلا الكبائر».

إن أم المؤمنین تهيب بالنساء أن يعملن فى داخل بيوتهن والعمل الذى يناسب وظيفتهن.

أما هذا التبذل الرخيص الذى نشاهده اليوم فهى تنهى عنه.

إن المرأة تستطيع عن طريق المفضل أو الوسائل الحديثة «كالتريكو» وخلافه أن تساهم فى التخفيف عن ميزانية المنزل، وبذلك تحل الكثير من المشاكل وهو عمل يقابله أجر كبير.

إن الملائكة تبارك هذا العمل.

والمؤمنون فى كل عصر ومصر يشجعون عليه، لأنه عند الله عبادة، وعند الزوج مشاركة، وعند الأبناء برووفاء.

وتسأل أم المومنین عن أفضل النساء فتقول:

«هى التى لا تعرف عيب المقال، ولا تهتدى لمكر الرجال، فارغة القلب إلا من الزينة لبعلها، والإبقاء فى الصيانة على أهلها».

إن المرأة العاقلة التى تأدبت بأدب الإسلام لا تعرف فحش القول ولا سلاطة اللسان.

فهى عفيفة فى قولها.

صادقة فى حديثها.

أمانة على عرضها.

وهى من قبل هذا ومن بعده تهتم بزینتها من أجل زوجها، تسر بمظهرها كما تسر بمخبرها. هذه المرأة بهذا العمل تعف نفسها، وتصون زوجها وتكمل

الحياة بأخلاقها، وحسن معاملتها لزوجها.

ثانياً: أ- الدستور الإسلامى الذى يقام عليه دعائم الأسرة المسلمة..

كيف نحافظ على دعائم الأسرة المسلمة فلا تتصدع؟..

وعلى سعادتها فلا تتبدد؟..

وعلى أمنها فلا يتبخر...؟..

الحقيقة أن السعادة لن توجد بالكامل إلا إذا تلقت الفتاة فى بيت أبيها حسن معمله زوجها، وشاهدت بعينها أسس الاحترام المتبادل بين أبيها وأمها- هذا أولاً.

وثانياً: ب- أن يتلقى الزوج المبادئ الأولى لحسن معاملة الزوج لزوجته على يد والده عندما يشاهده يحسن معاملة زوجته- يعودها إن مرضت أو ضجرت.

ويخفف عنها إن تعبت، أو تأملت.

ويشاركها فى أعمال بيتها ورعاية أبنائهما إن ثقلت عليها الأعباء أو كثرت عليها المطالب.

وهذه المشكلة هى أخطر المشاكل على الإطلاق وقد استفحل أمرها، وأصبحت كالقنبلة الموقوتة- وعلى الدولة الإسراع فى وضع الحلول لها. ولا نراها إلا كذلك.

ونتساءل كيف يفكر الشباب فى الزواج وهو لا يجد قوت يومه أو ما يسد عوزه وحاجته؟..

ونرجو ألا تتوانى الدولة فى حل هذه المشكلة أكثر من ذلك حتى لا يكون هلاك محقق ودمار محتوم لهذا الشباب الذين هم ركيزة الدولة وحصنها الحصين فى السلم والحرب. فى الإنتاج والتصنيع.

منهج الإسلام في معالجة مشكلة العنوسة

تكلّمنا في هذا المقال عن العقبات التي تحول بين الشباب والإقدام على الزواج وتكوين أسرة.

ونتساءل هل يجوز للأب أو ولي أمر الفتاة أن يتقدم لشاب تتوافر لديه متطلبات- الزواج ويخطبه زوجاً لابنته؟

ونضيف: فإذا كان هذا جائزاً شرعاً ولا محاذير عليه فهل حدث في الأزمنة السابقة من قام بعرض ابنته على راغبى الزواج من الرجال؟ نعم إن صاحب كتاب «تاريخ الرسل والملوك» يقدم لنا أول حادثة عرض للزواج من نوعها وكانت في عهد النبي صالح ﷺ وكانت الحادثة الثانية التي ذكرها القرآن عندما قال شعيب لموسى بن عمران عليهما السلام ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَكْثَحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرْنِي ثَمَانِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ (١).

وهكذا في بساطة وصراحة عرض شعيب إحدى ابنتيه على موسى عرضها في غير تحرج ولا التواء فهو يعرض زواجا يعرض بناء أسرة وإقامة مجتمع وليس في هذا ما يخجل منه ولا ما يدعو إلى التحرج والتردد أو الإشارة عن بعد، أو التصنع والتكلف مما نشاهده في هذه البيئة التي نعيش فيها والتي لا تعبر عن الفطرة السليمة وتخضع للتقاليد المصطنعة والتي تمنع الوالد أو ولي الأمر من التقدم لمن يرتضى خلقه ودينه كفاءته لابنته أو أخته أو قريبته، وتحتم أن يكون الزوج أو وليه أو وكيله هو الذي يتقدم، ولا يليق أن يجئ العرض من الجانب الذي فيه المرأة.

ثالثاً: أن يلتزم كل من الزوجين بتعاليم الإسلام تجاه الآخر وأن يقتدى الرجل بأعمال الرسول - ﷺ - في بيته. وأن تتبع الزوجة منهج أمهات المؤمنين في معاملة الرسول - ﷺ -

ومن الأشياء التي لا تبلى ولا يمكن أن تتسى على مر الأيام تلك الوصية الغالية التي قدمتها امرأة عوف الشيباني إلى ابنتها عندما زفت إلى ملك كندة.

(١) سورة القصص الآية رقم: ٢٧.

وصية الأم إلى ابنتها...

قالت الأم: أى بنية إنك فارقت بيتك الذى منه خرجت، وعشك الذى فيه درجت إلى وكر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فكونى له أمة يكن لك عبداً، واحفظى له عشر خصال يكن لك ذخراً.

أما الأولى والثانية : فالصحبة بالقناعة، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة.

وأما الثالثة والرابعة : فالتعهد لموقع عينيه، والتفقد لموضع أنفه فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشم منك إلا أطيب ريح، والكحل أحسن الحسن والماء والصابون أطيب الطيب.

وأما الخامسة والسادسة : فالتفقد لوقت طعامه، والهدوء عند منامه، فإن حرارة الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مفضبة.

وأما السابعة والثامنة : فالعناية ببيته وماله، والرعاية لنفسه وحشمه وعياله.. وملاك الأمر فى المال حسن التدبير.

أما التاسعة والعاشرة : فلا تفشى له سرّاً، ولا تعصى له أمراً، فإنك إن أفشيت سره لم تأمنى غدره، وإن عصيت أمره أوغرت صدره. ثم التوقى مع ذلك الفرح إن كان حزيناً، والاكتئاب عنده إن كان فرحاً، فإن الخصلة الأولى من التقصير، والثانية من التكدير، وكونى أشد ما تكونين له إعظماً يكن أشد ما يكون لك إكراماً.

وأشد ما تكونين له موافقة، يكن أطول ما يكون لك مرافقة، واعلمى أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثرى رضاه على رضاك، وهواه على هواك فيما أحببت وكرهت والله يخير لك.

إن هذه الوصية فى الحقيقة تعتبر بحق دستوراً للأسرة لو سارت عليها كل فتاة، إنها لم تترك صغيرة ولا كبيرة فى الحياة الزوجية إلا وأشارت إليها.

لقد أمرتها بطاعة زوجها والاستماع له. وقد حث الرسول - ﷺ - على هذه الطاعة بقوله:

ثلاثة لا تمسهم النار.

المرأة المطيعة لزوجها.

والولد البار بوالديه.

والعبد القاضى حق الله وحق مولاه.

وقال عليه الصلاة والسلام لأم المؤمنين أم سلمة: إذا أدت المرأة فريضة ربها وأطاعت زوجها، وحركت المفزل بين يديها، كانت كأنها تسبح لله تعالى.

ثم ماذا؟.. أمرتها أن تتزين لزوجها، وأن تتجمل له، وبينت لها أساليب الجمال ووسائله قائلا:

«الكحل أحسن الحسن، والماء والصابون أطيب الطيب».

والرسول - ﷺ - يقول:

«جهاد المرأة حسن التبعل أى طاعة الزوج والتزين له»^(١).

وقيل يا رسول الله: أى النساء أفضل؟..

فقال: التى تطيع زوجها إذا أمر، وتسره إذا نظر^(٢).

وأمرتها بالقناعة، والقناعة فى الأسرة دعامة من دعائم السعادة، ومرهم يطيب الجروح التى تتعرض لها أيام أزماتها المالية والاقتصادية.

ويقال: إن رجلاً صالحاً هم بالسفر، فكره جيرانه سفره، فقالوا لزوجته لم ترضين بسفره، ولم يدع لك نفقة...؟

(١) تقدم تخريجه.

(٢) عند النسائى ٦: ٨٦ ومسند الإمام أحمد بن حنبل ٣: ٢٥١ أى النساء خير... قال: التى تسره إذا نظر وتطيعه إذا أمر، ولا تخالفه فى نفسها ولا مالها بما يكره.

فقالت: زوجي- منذ عرفته- عرفته أكلاً وما عرفته رزاقاً، ولى رب رزاق يذهب الأكال ويبقى الرزاق.

وأمرتها بالمحافظة على ماله والحرص عليه- والرسول- ﷺ يقول: «لا يحل لها أن تطعم من بيته إلا بإذنه إلا الرطب من الطعام الذي يخاف فسادَه، فإن أطعمت- عن رضاه- كان لها مثل أجره وإن أطعمت- بغير إذنه- كان له الأجر وعليها الوزر»^(١).

وقالت امرأة يا رسول الله: إنا كلُّ على آبائنا وأزواجنا فما يحل لنا من أموالهم؟ قال: الرطب تأكله وتهدينه.

نماذج من الحياة في البيت المسلم

قال شريح القاضي: يحدث الشعبي عن زوجته زينب ابنة جرير إحدى نساء بني حنظلة:

فلو رأيته يا شعبي وقد أقبل نساؤها يهدينها حتى أدخلت علي؟ فقلت من السنة إذا دخلت المرأة على زوجها أن يقوم فيصلي ركعتين فيسأل الله من خيرها، ويعوذ به من شرها قائلاً:

«اللهم إني أسألك من خيرها وخير ما جبلتها عليه وأعوذ بك من شرها وشر ما جبلتها عليه.

فصليت وسلمت، فإذا هي من خلفي تصلي بصلاتي، فلما خلا البيت ودنوت منها، ومددت يدي إلى ناصيتها قالت:

«على رسلك يا أبا أمية كما أنت»، ثم قالت:

«الحمد لله أحمدُه وأستعينه، وأصلي على محمد وآله، إني امرأة غريبة ولا علم لي بأخلاقك فبين لي ما تحب فأتيه، وما تكره فأبتعد عنه.

وقالت: إنه كان لك في قومك منكم وفي قومي مثل ذلك، ولكن إذا قضى

(١) رواه البيهقي بنحوه من حديث ابن عمر: ٤: ١٩٤ في الزكاة.

اللَّهُ امرأً كان، وقد ملكت فاصنع ما أمرك الله به، إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان. وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولك.

قال شريح: فأحوجتني والله يا شعبي إلى الخطبة في ذلك الموضع، فقلت: الحمد لله أحمدته وأستعينه، وأصلى وأسلم على النبي وآله. وبعد فقد قلت كلاماً إن تثبتى عليه يكن ذلك حظك، وإن تدعيه يكن حجه عليك. أحب كذا وأكره كذا ونحن سواء فلا تخافى.

وما رأيت من حسنة فأنشريها أو سيئة فاستريها.

قالت: كيف محبتك لزيارة الأهل؟ قلت: ما أحب أن يملنى أصهارى؟

قالت: فمن تحب من جيرائك أن يدخل بيتك آذن له. ومن تكرهه فلا تقترب منه؟

شريح: بنو فلان قوم صالحون. وبنو فلان قوم سوء.

قال شريح: فبت ليلتى أنعم بها ومكثت معى حولاً لا أرى إلا ما أحب فلما كان الحول جئت من مجلس القضاء، فإذا بمعجوز تأمر وتنهى فى البيت قلت: من هذه؟

قالوا: فلانة حماتك. فسرى عنى ما كنت أجد.

فلما جلست أقبلت المعجوز وقالت: السلام عليك يا أبا أمية.

قلت: وعليك السلام من أنت؟

قالت: أنا فلانة حماتك.

قلت: قريك الله.

قالت: كيف رأيت زوجتك؟

قلت: خير زوجة.

فقالت: يا أبا أمية: إن المرأة لا تكون أسوأ حالاً منها فى حالتين إذا ولدت غلاماً أو حظيت بقلب زوجها. فإن رابك ريب فعليك بالسوط. فوالله

ما حاز الرجال فى بيوتهم شرّاً من المرأة المدللة.

قلت: أما والله لقد أدبت فأحسنت الأدب، ورُضت فأحسنت الرياضة.

قالت: تحب أن يزورك أصهارك؟

قلت: متى شاءوا.

قال شريح: فكانت تأتيني فى رأس كل حول توصيني تلك الوصية فمكثت معها عشرين سنة لم أعتب عليها فى شيء إلا مرة واحدة كنت لها ظالماً^(١).

من أجل هذا كانت الأسرة المسلمة لمعة مضيئة فى ظلام الدجى واستطاعت هذه الأسرة أن تقدم الرجال الأبطال الذين حملوا مشعل الهداية فى يد، وسيف الحق فى اليد الأخرى وانداحوا فى أربعة أركان الأرض ينشرون الأمن بعد الخوف والنور بعد الظلام والهدى بعد الضلال فاستقبلتهم الدنيا أحسن استقبال وأقامتهم على ظهرها قادة ومعلمين.

إن المرأة المطيعة لزوجها هى أغلى الكنوز التى يجب أن يحرص عليها الرجل وأن يحيطها بكل الرعاية والحنان.

إن طاعة المرأة لزوجها هى قوام دعائم السعادة فى الأسرة. ومن هنا كانت وصايا الرسول ﷺ والحث عليه بقوله:

«ثلاثة لا تمسهم النار: المرأة المطيعة لزوجها، والولد البار بوالديه، والعبد القاضى حق الله وحق مولاه»^(٢).

وقال عليه الصلاة والسلام لأم المؤمنين «أم سلمة» إذا أدت المرأة فريضة ربها وأطاعت زوجها، وحركت المغزل كانت كأنها تسبّح لله»^(٣).

(١) المرأة فى التصور الإسلامى - عبد المتعال محمد الجابرى. (٢) المصدر السابق.

(٣) لم نقف عليه، ويفلّ على الظن أنه لا يصح من أجل الفقرة الأخيرة، ويفنى عنه حديث أبى هريرة المرفوع: «إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحصنت فرجها، وأطاعت بعلها، دخلت من أى أبواب الجنة شئت» أخرجه ابن حبان (١٢٩٦). وهو حديث صحيح بشاهديه عن عبد الرحمن بن عوف، وأنس بن مالك انظر «المجمع» ٤/ ٣٠٥، ٣٠٦.

وقيل له أي النساء أفضل؟..

فقال ﷺ: التي تطيع زوجها إذا أمر وتسره إذا نظر^(١).

والملاح النبيلة للمرأة المسلمة نراها في الخنساء التي جاهدت في حرب فارس، وحضرت موقعة القادسية، واشتركت فيها بأبنائها الأربعة وقبل أن ينزلوا ساحة الوغى جمعتهم وقالت لهم:

«يا بني إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، والله الذي لا إله غيره إنكم بنو رجل واحد، كما إنكم بنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم، ولا فضحت خالكم، ولا هجنت حسبكم، ولا غيرت نسبكم. وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية يقول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٢).

فإذا أصبحتم غداً إن شاء الله سالين فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين وبالله على أعدائه مستنصرين، وإذا رأيتم الحرب شمרת عن ساقها، واضطربت فتيتموا وطيسها، وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها، تظفروا بالغنم والكرامة في دار الخلد والمقامة.

ولما كان الصباح احتدم وطيس الحرب. فتقدم أبناؤها الأربعة واشتدوا على عدوهم غير مباينين بالموت. حتى قضاوا نحبهم جميعاً. ولما بلغ خبر استشهادهم إلى الخنساء. لم تجزع بل قالت: الحمد لله الذي شرفني بهم.

لقد غريت الشمس بأبنائها الأربعة فلم تجزع لأنها تعلم أن شمسهم توشك على الشروق في آفاق الفردوس الأعلى. وأنهم سوف يقدمونها على بوارق أنهار الجنة وهي تختال بينهم وتفاخر باستشهادهم.. إن رائدات

(١) حديث صحيح أخرجه أبو داود (١٦٦٤) عن ابن عباس، والنسائي ٦/ ٦٨ عن أبي هريرة، وابن ماجه (١٨٥٧) عن أبي أمامة.

(٢) سورة آل عمران، الآية رقم ٢٠٠.

النهضة النسائية في بلادنا أقصر باعاً وأنزل رتبة من أن يقفن هذا الموقف.
فإحداهن تكره أن تكون أماً لأربعة، ولو فرضت عليها الأقدار، أمومة
أربعة ما أحسنت حضانتهم وتربيتهم وتوصيهم حتى يبلغوا هذه الذروة.
إنها تريد أن تكون «رجلة» ^(١) تتولى عملاً في المجتمع من هذه الأعمال
التي تليق بالجنس الخشن ولو أدركت ما ترجو ما نفعت نفسها ولا أمتها.
إننا في هذا الكتاب نقدم نماذج من الأمهات المسلمات. والزوجات
المطيعات. والمؤمنات القانتات...

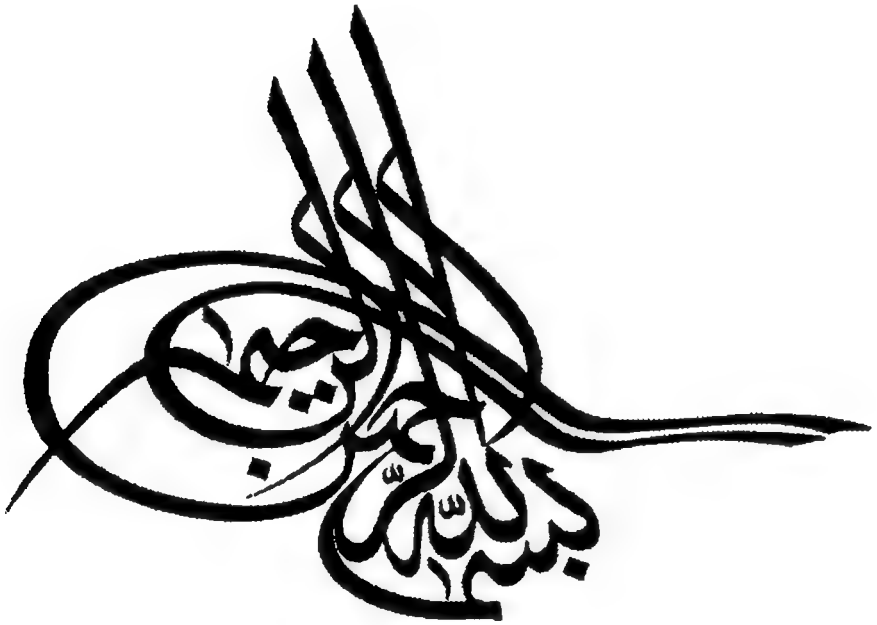
نقدم الزوجة التي تفانت في حب زوجها فرصدت حياتها له.
ونقدم الفتاة التي عرفت طريق الحق. فتركت الأب والأم والأخ والأخت
وهاجرت إلى الله. وفرت بدينها.

نقدم المرأة التي صُبَّ عليها العذاب صبّاً لتفارق دينها.. وتكفر بربها..
فاحتملت العذاب صابرة حتى أنقذها الله مما هي فيه. إنهن النساء اللاتي
أنزل الله فيهن قرآناً. وهدفنا في النهاية أن نقدم القدوة والمثل للفتاة
المسلمة. حتى نعيد للأسرة كيانها وتماسكها. ووظيفتها الأساسية في صنع
الرجال. فهل نحن فاعلون؟

نرجو من الله العلى القدير أن يوفقنا إلى ذلك.

(١) ركائز الإيمان - الشيخ محمد الفزالي.

سهلة بنت ملحان





حياتها ونشأتها

قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - لا تغالوا في صداق النساء، فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا أو تقوى عند الله كان أولاكم وأحقكم بها محمد ﷺ - ما أصدق امرأة من نسائه ولا أصدق امرأة من بناته أكثر من اثنتي عشرة أوقية وإن الرجل ليثقل صدقة امرأته حتى يكون لها عداوة في نفسه. ويقول: قد كلفت إليك علق القرية أو عرق القرية. «رواه ابن ماجه في سننه»

فوق الصحراء الممتدة الصافية عرفت بها الحياة طفلة وشابة، وعلى ثراها الطيب الطاهر الذي خرج هؤلاء الرجال المغاوير الذين حملوا دين الله وانداحوا به في أربعة أركان الأرض كانت حياتها وآمالها.

من هذه الفتاة التي سجل التاريخ اسمها على جبهته بأحرف من نور..؟

إنها سهلة بنت ملحان..

فتاة الصحراء، وربيبية البادية، والتي عرفت بين لداتها وأترابها بأنها صبوحة الوجه، صافية القلب، نقية السريرة، سليمة الخلقة، جميلة العينين.

ولقد كانت دائماً موضع اهتمام الشباب ومحط آمالهم لتكون زوجة صالحة وأماً حانية، وزهرة فواحة بالمطر في منزلها السعيد.

ولكن مالك بن النضر فارس القبيلة، وزين شبابها ظفر بها في الجاهلية فولدت له أنس بن مالك - رضي الله عنه - نعم.

أنس بن مالك - الذى قال:

«خدمت النبى - ﷺ - عشر سنين فما قال لى أف قط ولا لشيء صنعته لم صنعته، ولا لشيء تركته لم تركته، بل كان يقول: «ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن...».

فلما جاء الإسلام سمعت سهلة بدعوته فاتجهت إلى رسول الله ﷺ واستمعت إلى حديثه وإلى الوحي المتتابع الذى جاء به جبريل ﷺ قال تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (١).

فأسلمت على يدى الرسول - ﷺ.

ثم اتجهت إلى بيتها بقلب جديد وجلست تترقب وصول زوجها من مرعاه خارج المدينة.

وما كادت الشمس تميل إلى الغروب حتى شاهدت زوجها يهرول بالقدوم إلى بيته تسبقه إبله ومواشيه.

فعادت إلى داخل بيتها ولبست أجمل ثيابها وتطيبت له، وقدمت له طعامه وشرابه، وجلست بجواره تداعبه وتلاطفه، وتحديثه عن النور الجديد. من دعوة الإسلام التى جاء بها محمد الأمين - صلوات الله عليه.

وسألها زوجها إلى أى شيء يدعو هذا الدين الجديد؟

قالت: يدعو إلى عبادة الواحد الأحد الفرد الصمد.

قال: هل وعيت شيئاً من كلامه؟

قالت: إنه ينزل عليه وحى من ربه يسمى قرآنًا ومما سمعته أذنأى ووعاه قلبى قول الله تعالى:

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَنَا ذَا حَرَمٍ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا

(١) سورة النجم الآيات من ١ - ٤.

أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا
النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا
بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا
وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢).

ووصفت له لقاءها برسول الله - ﷺ - في ذلك اليوم ودعته أن يذهب
إليه ليسلم على يديه.

ولكن مالكا كان في شغل شاغل عنها وعن هذا الدين فلم يفتح قلبه
للدعوة الجديدة، ولم يستجب لرجائها ودموعها.

إذن لن تكون له زوجاً، ولن يجمعهما بيت واحد فانفصلت عنه ولم يطلق
زوجها صبراً على فراقها فخرج إلى الشام ومات هناك.

ومن هذا التاريخ وهبت سهلة بنت ملحان نفسها للدعوة الجديدة وللنور
المشرق، فأخذت تدعو إلى دين الله بلسانها وجنانها وسلاحها.

وسمع أبو طلحة الأنصاري بانفصالها عن مالك بن النضر فرغب في
زواجها فتوجه إليها وكلمها في ذلك.

فقالت سهلة: يا أبا طلحة ما مثلك يرد، ولكنك امرؤ كافر وأنا امرأة
مسلمة لا تصلح لي زوجاً حتى تعلن إسلامك وتؤمن بالإله: الواحد الأحد
الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد. وأرسل رسوله - محمد بن عبد الله -
بشيراً ونذيراً إلى الناس كافة..

وكان الرجل لم يفهم ما تريده منه.

فقالت مستزيدة: يا أبا طلحة ألسنت تعلم أن إلهك الذي تعبد خشبة
نبتت من الأرض نجرها حبشى ابن فلان..؟

قال: بلى.

(١) سورة الأنعام الآيتان ١٥١ - ١٥٢.

قالت: يا أبا طلحة أفلا تستحي أن تعبد خشبة من نبات الأرض نجرها هذا الحبشى. وهى لا تتطق فتسمع منها الحكمة، ولا تعى فتسمع منك شكواك إن شكوت، أو تخفف عنك بلواك إن ابتليت، أو تكافئك على عبادتك إن عبت.

ثم تابعت حديثها قائلة أن أسلمت لم أرِدْ منك من المهر غيره.

قال لها أبو طلحة: إننى أعطيك من المهر ما تبغينه من الذهب والفضة.

قالت: فإنى لا أريد ذهباً ولا فضة. ولكنى أريد منك الإسلام.

قال أبو طلحة: حتى أنظر فى أمرى.

وكرت الأيام ومرت الليالى وأبو طلحة يقلب أمره ويستفتى قلبه. ثم عاد مرة أخرى بطرق باب سهلة قائلاً: من لى بالإسلام يا سهلة..؟

فدلته إلى رسول الله - ﷺ.

فانطلق أبو طلحة يريد النبى - ﷺ - فلما رآه رسول الله - وهو جالس بين أصحابه قال لهم:

«لقد جاءكم أبو طلحة غرة الإسلام بين عينيه».

فأخبر الرسول - ﷺ - بما قالت سهلة- فأسلم على يديه ونطق بالشهادتين.

ثم عاد إلى عروسه وتزوجها على ما اشترطت من مهر.

قال ثابت - رضى الله عنه -:

«فما بلغنا أن مهراً كان أعظم منه أنها رضيت بالإسلام مهراً».

وعاشت سهلة بنت ملحان مع أبى طلحة كأسعد ما يكون زوجين ترفرف المودة والمحبة على بيتهما الجميل.

وولدت سهلة لأبى طلحة غلاماً فكملت سعادتها وأخذت أهazيج السعادة

وأغاريد المنى تجمل لهما الأحلام وتقرب لهما الآمال.

وفى يوم ليس كمثله يوم مرض هذا الغلام وأخذت سهلة تمرضه وتطببه ولكن بلغ الكتاب أجله ففارقت روحه جسده.

وتجملت سهلة بالصبر واعتصمت بالإيمان واحتسبت ابنها فى سبيل الله. ثم قالت لأهلها: لا تخبروا أبا طلحة بموت ابنه حتى أحدثه أنا.

فلما جاء زوجها قريت له عشاء وشرابه فأكل وشرب ثم تصنعت له أحسن ما كانت تصنع له من قبل ذلك، ولبست له أجمل ثيابها، فلما شبع وروى وقع بها، حتى إذا تأكدت من شبعه وريه وقضاء حاجته منها.

قالت سهلة: يا أبا طلحة أرايت لو أن أهل بيت أعاروا عاريتهم أهل بيت آخرين فطلبوا عاريتهم، ألهم أن يحبسوا عاريتهم؟... قال: لا.

قالت: فاحتسب ابنك.

فغضب أبو طلحة غضباً شديداً ثم قال: تركتيني حتى تطلخت بما تطلخت به، ثم تحدثتني بموت ابنى...؟

وانطلق الرجل إلى رسول الله - ﷺ - فقال: يا نبي الله ألم تر إلى سهلة بنت ملحان. صنعت كذا وكذا.

فقال رسول الله - ﷺ - بارك الله لكما فى غابر ليلتكما. يقول راوى الحديث:

فلقد شاهدت لها عشرة رجال كلهم حمل السيف وقاتل فى سبيل الله. وكان الرسول - ﷺ - يزورها فى بيتها كثيراً ويصلى عندها تطوعاً ويعلمها الدعاء والاستغفار.

ولم يكن الرسول - ﷺ - يدخل بيتاً من بيوت المدينة غير بيتها وبيوت

أزواجه- رضوان الله عليهم.

فقيل له في ذلك. فقال:

«إني أرحمها قتل أخوها معي».

وعندما قدمت للرسول - ﷺ - ابنها أنس ريت ﷺ على كتفه ومسح على رأسه وقال: «اللهم ارزقه مالا وولداً وبارك له».

قال أنس- رضى الله عنه: فإني لمن أكثر الأنصار مالا وولداً...

وليس هذا كل ما يحفظه التاريخ عن سهلة بنت ملحان أو أم سليم كما كانت تدعى. ولكنها كانت دائماً مع الرسول - ﷺ - في سلمه وحره. في غزواته وتقلاته.

ما تخلفت عن غزوة قط كما تقول عن نفسها.

وكانت مهمتها هي وأخواتها المؤمنات في تلك الغزوات ليست سهلة دائماً. فهي تسقى الجرحى، وتحمل قرب الماء للمقاتلين، وتضمد الجروح، وتستعمل خنجرها المعكوف إن كان هناك ما يدعو لذلك.

يقول أنس بن مالك- رضى الله عنه:

لما كان يوم أحد والهول يحيط بالمسلمين من كل جانب رأيت عائشة أم المؤمنين وأم سليم، وأنها مشمرتات أرى خزم سوقهما ينقلان القرب على متونهما، ثم تفرغانها في أفواه القوم، وترجعان فتملأنها ثم تجيئان فتفرغان في أفواه القوم.

وتمر الأيام وتكر الليالي ويتجه عشرة آلاف مقاتل إلى الكعبة بيت الله الحرام لتطهيرها من الشرك والكفر، وأصنام الجاهلية، وتم الفتح الأكبر، وتقف أم سليم تردد مع الإخوة المؤمنين خلف الرسول ﷺ وهم يطهرون الكعبة ويحطمون آخر معاقل الكفر والطغيان.

لا إله إلا الله.

صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، لا إله إلا الله. ويتجه الرسول - ﷺ - إلى غزوة حنين بجيش لا يبلغ مدده البصر، واغتر المسلمون بكثرتهم حتى قال قائلهم: «لن نهزم اليوم عن قلة».

وكان لابد من درس لهذه الفئة المؤمنة التي تجاهلت أن النصر لن يكون بالقلّة ولا بالكثرة، ولكن النصر من عند الله، ففروا هاربين، وطارت قلوبهم شعاعاً.

فأين أنت يا أم سليم في هذا الهول الكبير؟

لقد خرجت مع الخارجين تبتغي أجر الجهاد مع النبي - ﷺ - وكان معها خنجرها وقد حزمته على وسطها - وهي يومئذ حامل بعبد الله بن أبي طلحة المجاهد الثائر، ولما رآها أبو طلحة فقال لهما هذا معك يا أم سليم؟ قالت: خنجر أخذته معي.

وجاء أبو طلحة للرسول - ﷺ - وهو يضحك وقال يا رسول الله ألم تر أم سليم معها خنجر؟

فقال: أردت أن دنا أحد المشركين مني طمعتة^(١).

من هذا وصفها أبو نعيم بأنها الطاعنة بالخناجر في الوقائع والحروب فأعظم بهذا الوصف للمجاهدة المؤمنة.

وهكذا حظيت الصحابية الجليلة - رضوان الله عليها - بشرف الجهاد ولعلمها بمكانة الجهاد وثوابه، سألت النبي - ﷺ - ذات مرة عندما برئت من مرض ألم بها فقالت:

«يا رسول الله ﷺ - ما أفضل الجهاد؟»

فقال ﷺ: عليك بالصلاة فإنها أفضل الجهاد، واهجرى المعاصي فإنها أفضل الهجرة. وظلت أم سليم - رضى الله عنها - تلتزم بما قاله الرسول ﷺ

(١) راجع كتاب صفة الصفوة ٢: ٦٦.

إلى أن لقيت ربها. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (١٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَمُوتُونَ عَنْهَا حَوْلًا﴾ (١).

هذه هي الصحابية الجليلة أم سليم - رضي الله عنها - كانت من فضيلات النساء اللواتي تركن أثراً خالداً في تاريخ الإسلام قال عنها الإمام النووي - رحمه الله - لقد كانت من فاضلات النساء (٢).

هذه الصحابية الجليلة: كانت زوجة صالحة وصابرة. وداعية إلى دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة. ومربية فاضلة أدخلت ابنها أنساً في مدرسة النبوة فكان من الصفوة المختارة حول خاتم الرسل والأنبياء. ونال أعلى الدرجات عند خالق الأرض والسموات.

وكانت مع ذلك حافظة واعية لأحاديث الرسول - ﷺ - فقد روت عن النبي - ﷺ - أربعة عشر حديثاً (٣).

وممن روى عنها ابنها أنس بن مالك - رضي الله عنه وأرضاه وعبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - وهو فقيه الأمة - بدعوة الرسول - ﷺ - الذي قال داعياً له: (٤) «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» (٥).

(١) سورة الكهف الآيتان ١٠٧ - ١٠٨.

(٢) تهذيب الأسماء واللغات ٢: ٣٦٢.

(٣) راجع سير أعلام النبلاء ٢: ٣١١.

(٤) راجع الإصابة في معرفة الصحابة ٤: ٤٤٢.

(٥) سبق تخريج هذا الحديث قريباً من هنا.

بشارة النبی لها بالجنة..

نعم لقد بشرها الرسول - ﷺ - بجنة الفردوس عند ملك مقتدر وزفها إليها ابنها أنس - رضى الله عنه .

قال أنس:

قال رسول الله ﷺ:

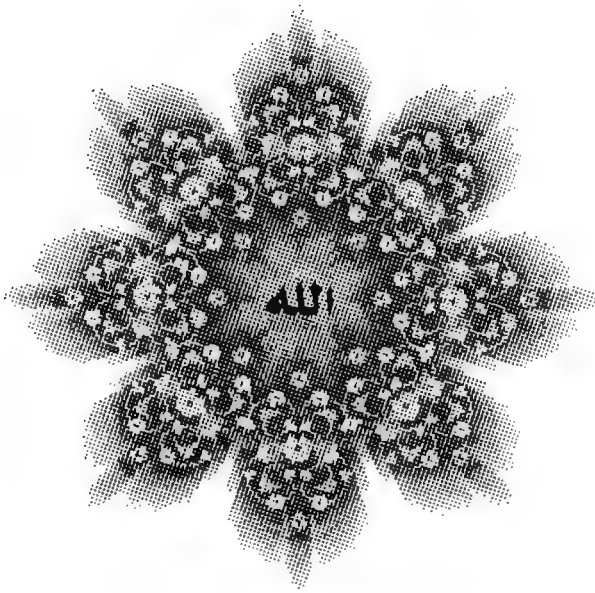
دخلت الجنة فسمعت خشفة بين يدي. فإذا أنا بالغميصاء بنت ملحان^(١).

ثم ماذا؟ رضى الله عنها وأرضاها وأحقق لها ربها ما ذكره في كتابه بقوله:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾^(٢).

(١) رواه البخاري في فضائل أصحاب النبي - ﷺ - والنسائي.

(٢) سورة القمر الآيتان ٥٤ - ٥٥.





وقفة مع حفيدات الأنصار بالمدينة

عبر رحلة مقدارها ألف ميل قطعتها السيارة بنا إلى مسجد الرسول ﷺ اتجه فكرنا إلى رحلة أخرى متأنية عبر التاريخ حيث هجرة الرسول ﷺ متخيلاً المواقف الجياشة، والبذل السخي الذي قام به الأنصار، وأبنائهم، ونساؤهم إزاء إخوانهم المهاجرين.

وتمادى الحنين الطاغى لدينا، واللهفة الصادقة لرؤية الأرض الطيبة فجسم أمامنا صور الاستقبال الحار، والحفاوة البالغة، التي قام بها هؤلاء الرجال للرسول وصحبه، حتى كأن هذه الصور حاضرة شاهدة أمام أعيننا، إن ما فعله الأنصار يكاد يكون فريداً ليس له نظير في دنيا الناس، لقد تسابقوا إلى إيواء المهاجرين، والترحيب بهم، حتى ليذكر التاريخ أنه لم ينزل مهاجر في بيت من بيوت الأنصار إلا بقرعة، لأن عدد الراغبين في الإيواء المتزاحمين عليه من الأنصار أكثر بكثير من عدد المهاجرين الفارين بدينهم.

ولقد سجل القرآن الكريم هذه المواقف الصادقة، والعاطفة النبيلة، والإيثار الكبير بقوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١).

ولم يكتف الأنصار بما قدموه من بذل وإيثار، ولكنهم كانوا دائماً في الصفوف الأولى في المعارك التي خاضها الإسلام يشدون أزر إخوانهم، ويدفعون عن نبيهم ويحملون مبادئ الدين، وتعاليم الإسلام إلى

(١) سورة الحشر آية رقم ٩.

الأصقاع البعيدة، والبلاد النائية حتى قال الرسول ﷺ بعد إحدى المعارك مخاطباً الأنصار:

«هو الذي نفسى بيده لو أن الناس سلكوا شعباً وسلكت الأنصار شعباً
لسلكت شعب الأنصار، ولولا الهجرة لكانت امرأاً من الأنصار، اللهم ارحم
الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار».

نساء الأنصار رضى الله عنهن

ولم تكن نساء الأنصار أقل من الرجال سواء في استقبال هؤلاء
المهاجرين أو التزامهن بأوامر الدين، وطاعتهم لكل ما جاء به القرآن الكريم
أو أمر به الرسول ﷺ وكتب السنن والتاريخ خير شاهد على ذلك.

عن صفية بنت شيبة قالت: بينما نحن عند عائشة أم المؤمنين - رضى
الله عنها - قالت:

فذكرن نساء قريش وفضلهن فقالت عائشة:

إن لنساء قريش لفضلاً وإنى والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار
أشد تصديقاً لكتاب الله وإيماناً بالتزويل، لما نزلت في سورة النور: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ
بِخُمْرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾^(١)

انقلب رجالهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهن فيها، يتلو الرجل على
امراته وبنته وأخته، وعلى كل ذى قرابته، فما منهن امرأة إلا قامت إلى
مرطها المرحل فاعتجرت به تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله من كتابه فأصبحن
وراء رسول الله ﷺ معتجرات كأن على رؤوسهن الغربان.

(١) سورة النور آية رقم ٣١.

الاستجابة الفورية

لقد تلقت نساء الأنصار هذا الأمر وقلوبهن مشرقة بنور الله سبحانه وتعالى، لم يتلكن في الطاعة، ولم يخالفن أمر ربهن، بل سارعن كما يسارع الجندي في سكنته أو في ميدانه لتنفيذ أمر القائد.

ليست الاستجابة الفورية لأمر الله فحسب، ولكن نساء الأنصار كن حريصات على التفقه في دينهن، ومعرفة أوامر ربهن، وأمره في الصغيرة والكبيرة، وفي كل شأن من شئون الحياة.

حسن السؤال

ولقد ذهبت أسماء بنت السكن الأنصارية إلى مجلس الرسول ﷺ وقالت:

«يا رسول الله إني رسول من ورائي من جماعة نساء المسلمين كلهن يقلن بقولي وعلى مثل رأيي: إن الله بعثك إلى الرجال والنساء فأما بك واتبعناك، ونحن معشر النساء مقصورات مخدرات قواعد بيوت، ومواضع شهوات الرجال وحاملات أولادهم، وإن الرجال فضلوا بالجمعات، وشهود الجنائز، والجهاد، وإذا خرجوا للجهاد حفظنا لهم أموالهم، وربينا أولادهم أفنشاركهم في الأجر؟»

فالتفت رسول الله ﷺ بوجهه إلى أصحابه فقال:

«هل سمعتم مقالة امرأة أحسن سؤالاً عن دينها من هذه؟».

قالوا: نعم والله يا رسول الله.

فقال رسول الله ﷺ: انصرفي يا أسماء وأعلمي من وراءك من النساء إن حسن تبعل إحداكن لزوجها وطلبها لمرضاها، واتباعها لموافقته يعدل ما ذكرت للرجال.

فانصرفت أسماء وهي تهلل وتكبر استبشاراً بما قال لها رسول الله ﷺ

نساء مجاهدات

وعندما كان يدعو داعى الجهاد كن يتسابقن إليه لتضميد الجرحى، وإرواء العطشى، وتحريض الرجال، والاشتراك فى القتال إن لزم الأمر، كما فعلت أم عمارة المجاهدة الصابرة، والتي جلست بعد معركة أحد تروى لمن لم يحضرن المعركة من نساء الأنصار ما حدث فيها فقالت:

«انحزت إلى رسول الله ﷺ فقممت أباشر القتال، وأذب عنه بالسيف، وأرمى عنه بالقوس حتى خلصت الجراح إلى».

تقول أم سعد بنت سعد بن الربيع:

فرايت على عاتقها جرحاً أجوف له غور فقلت لها من أصابك بهذا؟ قالت: ابن قمته أقماء الله. ولما ولى الناس عن رسول الله ﷺ أقبل يقول:

دلونى على محمد لا نجوت إن نجا، فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير وأنا ممن ثبتوا مع الرسول ﷺ فضرينى هذه الضربة، ولقد ضربته على ذلك ضربات، ولكن عدو الله كان عليه درعان، مرعى يا أم عمارة، هنيئاً لك جنة الخلد، وشهادة رسول الله ﷺ لك بقوله:

«ومن تطيق ما تطيقين يا أم عمارة».

نساء عابدات

وأخرجنا من تأملاتنا هذه وصولنا إلى مدينة الرسول عندما لاحت أمام أعيننا مآذنه العملاقة وكأنها طريق معبد ينقل المصلين من ترابية الأرض إلى شفافية السماء.

ولقد رأينا حفيدات الأنصار في مدينة الرسول حفيدات عبادة بن الصامت وسعد بن الربيع، وأُسَيْدُ بن حُضَيْرٍ، وغيرهن، حفيدان خنساء بنت خدام التي أنزل الله بشأنها تشريعاً وحكماً، وحفيدات حميدة الأنصارية التي تحب الرسول ﷺ وتحب الصلاة معه والذي بهر عقولنا وأعادنا إلى مجد الإسلام وعزه رؤيتنا هؤلاء الحفيدات وهن يتسابقن إلى الصلاة، ويسرعن الخطا إلى مسجد الرسول ﷺ ليس هذا التسابق في صلاة المغرب أو العشاء فقط، أو صلاة الظهر والعصر، فحسب، ولكن أكثر ما يكون ذلك في صلاة الفجر، حيث الإغفاءة الطويلة والنوم العميق ووعورة الطريق وغبش الظلام.

ولقد رأينا أعداداً كثيرة، والوفاء مؤلفة حتى يخيل إليك أنه لم تبق في بيوت المدينة امرأة لم تسع إلى الصلاة، ولم تلب داعي الله.

والسؤال الذي نطرحه ونوجهه إلى بناتنا وأخواتنا في العقيدة:

لماذا تحاولن تغيير زيكن الإسلامى ٩٩٠٠ وتقلدن قوماً لا يخافون الله ولا يخشون عقابه ٩٩٠٠ وكان لما أخذن أنفسهن به من تبرج وعرى أسوأ الأثر على سلوكهن وأخلاقهن وتفتيت أسرهن ٩٩٠٠ وإذا كانت هذه الظاهرة، ظاهرة تقليد الغرب في زيه ومظهره، قد انتشرت بين بعض النساء في بلادنا الإسلامية فإننا نرجو من الله سبحانه وتعالى أن يحمى لنا هذا البلد الطيب الآمن من هذا الوياء.

ومما يلفت النظر ويدعو إلى الإعجاب أن كثيراً من النساء في بعض بلدان العالم على الرغم مما حل بها من كوارث، وما نزل بساحتها من دمار

وتخريب ولا زالت تحتفظ بمظهرها الإسلامى وزياها .

فما بال بعض النسوة فى البلاد العربية يرين فى تقليد المرأة الغربية المعاصرة صورة من صور التقدم التى تتطلبها وتسعى إليها . ٩٩٠

مجتمع إسلامى متكامل

إن الستر وحجب مفاتن المرأة أمر من الله سبحانه وتعالى:

﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ (١) .

وإذا قال الله سبحانه وتعالى فلا مجال لقائل ولا اجتهاد لمجتهد .

تم الكتاب بعون الله

فهرس المحتويات

5	مقدمة
	قال الله تعالى:
13	﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾
14	قال الرسول - ﷺ -: النساء شقائق الرجال
15	خديجة بنت خويلد أم المؤمنين - رضي الله عنها
16	البسملة
	قال الله تعالى:
17	﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾
18	أقوال العلماء في نزول هذه الآية
	يقول الرسول - ﷺ: أمرت أن أبشر خديجة ببيت من
	قصب لا صخب فيه ولا نصب. وقال ﷺ: يا خديجة هذا
19	جبريل يقرئك السلام من ربك
21	خديجة بنت خويلد - حياتها ونشأتها

- 21 خديجة بنت خوليد وفيل أبرهة
- 24 خديجة- رضى الله عنها- وتعرفها بمحمد ﷺ
- 25 رغبة خديجة فى الزواج من محمد ﷺ
- 26 حديث خديجة مع ورقة بن نوفل
- 27 حديث بنيان الكعبة وحكم رسول الله - ﷺ - بين قریش فى وضع الحجر
- 28 مبعث النبى- ﷺ
- 30 الرسول ﷺ وجبريل ﷺ
- رسول الله- ﷺ- يقص على خديجة ما كان من أمر
- 31 جبريل ﷺ
- 31 خديجة بين يدى ورقة تحدث عن رسول الله ﷺ
- 33 امتحان خديجة برهان الوحي
- 34 ابتداء تنزيل القرآن على الرسول- ﷺ
- 34 إسلام خديجة بنت خوليد ﷺ
- 35 تبشير خديجة ببيت من قصب.
- 36 وفاة خديجة ﷺ
- 39 تذييل: المرأة هذا الجهاز العجيب

قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا
مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمَّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ
وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِن
وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَكْحِهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ
الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ
لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾

47

48

أقوال العلماء والمفسرين في نزول الآيات

49

أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث - رضي الله عنها - حياتها ونشأتها.

56

عمرة القضاء والزواج من ميمونة - رضي الله عنها.

61

تذييل: قضية المهر

66

أقل المهر

67

أكثر المهر

68

المغالة في المهور

70

المستحب عدم المغالة في المهور

73

مارية القبطية - رضي الله عنها

قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ
مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾

75

أقوال العلماء والمفسرين في نزول هذه الآية

76

مارية القبطية - رضي الله عنها - حياتها ونشأتها

77

أسباب نزول الآيات

86

تذييل: الحياة الزوجية كيف تتحقق فيها المودة والرحمة

89

زينب بنت الرسول - رضي الله عنها 97

بسم الله الرحمن الرحيم 98

قال الله تعالى:

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ
وَأَتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ
الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾

99

أقوال العلماء والمفسرين في نزول هذه الآية

100

زينب بنت الرسول - رضي الله عنها - حياتها ونشأتها

101

تجهيز زينب للهجرة إلى يثرب

108

الرحيل

108

112	أسباب النزول
117	تذييل: الوفاء وأثره فى تحقيق السعادة فى الحياة الزوجية
123	أسماء ذات النطاقين - ﷺ
125	قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾
126	أقوال العلماء والمفسرين فى نزول هذه الآيات
127	أسماء بنت أبى بكر الصديق - ﷺ - حياتها ونشأتها
133	تذييل: نصيحة الأمهات إلى البنات قبل الزفاف
145	كبيشة بنت معن الأنصارية - ﷺ
147	قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضِلُوهُنَّ لِيَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾
148	أقوال العلماء والمفسرين فى نزول هذه الآية
149	كبيشة بنت معن الأنصارية - ﷺ - نشأتها وحياتها
157	تذييل: موقف البشرية من المرأة عبر التاريخ
159	موقف البشرية من المرأة عبر التاريخ
165	أم موسى نبي الله ﷺ

- 167 قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقَاهُ فِي الْقَيْمِ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾
- 168 أقوال العلماء والمفسرين في نزول هذه الآية
- 169 أم موسى ﷺ حياتها ونشأتها في مصر المحروسة
- 181 أسباب النزول
- 185 تذييل: المرأة في شريعة الإسلام
- 193 رقية بنت الرسول - ﷺ -
- 194 بسم الله الرحمن الرحيم
- قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ وَبَنَاتَكُمْ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾
- 195
- 196 أقوال العلماء والمفسرين في نزول هذه الآية
- 197 رقية بنت الرسول - ﷺ - حياتها ونشأتها
- 212 أسباب النزول
- 215 تذييل: حرص الإسلام على إيجاد المجتمع النظيف
- 223 زوجة موسى ﷺ

- 225 قال الله تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ عَلَيْكَ سَجْدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾
- 226 أقوال العلماء والمفسرين فى نزول هذه الآية
- 227 زوجة موسى ﷺ حياتها ونشأتها
- 236 الرحلة إلى مصر
- 240 أسباب نزول هذه الآية
- 243 تذييل، حلول الإسلام لمشكلة العنوسة
- 248 عمر بن الخطاب يخطب لابنته حفصة
- 251 امرأة لوط ﷺ
- 253 قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾
- 254 أقوال العلماء والمفسرين فى نزول هذه الآية
- 255 امرأة لوط ﷺ حياتها ونشأتها ودعوتها للفجور
- 261 بلقيس بنت شراحيل

قال الله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾

263

أقوال العلماء والمفسرين في نزول هذه الآيات

264

بلقيس بنت شراحيل - حياتها ونشأتها

265

تذييل: الزياء وجذيمة بن الأبرش

275

سفر جذيمة إلى الزياء

277

عمرو بن عدى والقصير

281

الزياء والقصير

282

مريم البتول - عليها السلام

287

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾

289

أقوال العلماء والمفسرين في نزول هذه الآية

290

قال الرسول - ﷺ: ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخاً من مس الشيطان إياه إلا مريم

- وابنها قال تعالى: ﴿وَأَنى أَعِىذها بك وذريتها من الشيطان
الرجيم﴾ 291
- مريم ابنة عمران- ﷺ- حياتها ونشأتها 292
- أقوال العلماء فى نزول الآيات 311
- امراة فرعون آسيا بنت مزاحم- ﷺ 313
- بسم الله الرحمن الرحيم 314
- قال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ
قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ
وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ 315
- أقوال العلماء والمفسرين فى نزول الآيات 316
- قال الرسول- ﷺ- كمل من الرجال كثير ولم يكمل من
النساء إلا آسية بنت مزاحم امراة فرعون، ومريم بنت
عمران وخديجة بنت خويلد. 317
- امراة فرعون آسيا بنت مزاحم حياتها ونشأتها 318
- زفاف آسيا إلى فرعون 322
- الطفل موسى بين يدى آسيا 324
- آسيا تتشفع لفرعون حتى لا يذبح موسى ﷺ 327
- موسى وأخوه هارون عليهما السلام يدعوان فرعون
للإيمان برب السموات والأرض 330

- 336 أسباب نزول الآيات
- 339 تذييل: يوم الزينة في مصر القديمة
- 355 أروى بنت حرب زوجة أبي لهب
- قال الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۚ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۚ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۚ (٣) وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾
- 357 358 أقوال العلماء في نزول الآيات
- 360 أم جميل زوجة أبي لهب حياتها ونشأتها
- 365 محمد - ﷺ - يدعو قومه إلى الإسلام
- 367 زوجة أبي لهب تعلن الحرب على محمد
- 367 أبو لهب يصرف الوفود عن لقاء محمد
- 370 أم جميل اسطورة الحقد ومنبعه
- 371 تذييل: المرأة وقيامها برسالة الشيطان
- 376 كيد المرأة وقتل زكريا ﷺ
- 377 قارون وحقده على موسى ﷺ
- 378 انتقام موسى ﷺ من قارون
- 381 زليخا زوجة عزيز مصر
- ﴿وَرَأَوْتَهُ الْبَاقِيَ هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ

- لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣)
وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ
السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿
- 383
- أقوال العلماء والمفسرين فى نزول هذه الآية
- 384
- زليخا زوجة عزيز مصر حياتها ونشأتها
- 385
- عزيز مصر يقدم لزوجته الفتى يوسف
- 386
- هل يوسف أحب زليخا ٩٠٠
- 388
- عزيز مصر يعلم أن زوجته تراود يوسف ﷺ
- 391
- الحياة فى القصور الاستقرائية
- 392
- خروج يوسف من السجن
- 396
- زواج زليخا من يوسف ﷺ
- 398
- تذليل: عفة الرجال والنساء وأثرها فى إصلاح المجتمع
- 399
- خولة بنت حكيم- (رضي الله عنها)
- 407
- قال الله تعالى: ﴿وَأَمْرًا مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ
النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا
فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ
حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾
- 409
- أقوال العلماء فى نزول هذه الآية
- 410

يقول الرسول - ﷺ: «دخلت الجنة فسمعت خشفه بين يدي

411 فإذا أنا بالمغيصاء بنت ملحان رضي الله عنها

412 خولة بنت حكيم - رضي الله عنها - حياتها ونشأتها

416 خولة تتعم بالحياة الزوجية

417 خولة تتعى زوجها

418 أمنية خولة: الزواج من الرسول ﷺ

419 خوله تهب نفسها للرسول - ﷺ.

423 أسباب نزول الآيات

425 تذييل: عقوبة إتيان الفاحشة والجهر بها

433 نسيبة بنت كعب أم عمارة - رضي الله عنها

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ
وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ
وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ
وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا
عَظِيمًا﴾

436 أقوال العلماء والمفسرين في نزول هذه الآية

قال الرسول - ﷺ: لما كان يوم أحد حضرته نسيبة بنت

437 كعب. ما التفت يميناً ولا شمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دوني.

- 439 نسيبة بنت كعب حياتها ونشأتها
- 440 إسلام نسيبة بنت كعب - رضي الله عنها
- 441 بيعة العقبة الأولى بين أهل يثرب والرسول - ﷺ.
- 442 نسيبة بنت كعب فى بيعة العقبة الثانية
- 444 نسيبة بنت كعب فى غزوة أحد
- 445 بيعة الرضوان
- 447 نسيبة بنت كعب وبيعة الرضوان
- 448 نسيبة بنت كعب فى غزوة خيبر
- 451 نسيبة بنت كعب فى غزوة حنين
- 452 نسيبة بنت كعب أم الشهيد
- 455 نسيبة بنت كعب أم عمارة بطلة معركة اليمامة
- 456 نسيبة مع الصديق والفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنهما
- 457 أم عمارة والقرآن الكريم
- 461 تذييل: وظيفة المرأة المسلمة
- 466 منهج القرآن فى معالجة مشكلة العنوسة
- 467 وصية الأم إلى ابنتها
- 469 نماذج من الحياة فى البيت المسلم

- 475 سهلة بنت ملحان
- 477 سهلة بنت ملحان مهرها الإسلام حياتها ونشأتها
- 485 بشارة النبي لها بالجنة- رضي الله عنها
- 487 تذييل: وقفة مع حفيدات الأنصار بالمدينة
- 490 نساء الأنصار- رضى الله عنهن
- 491 الاستجابة الفورية
- 491 حسن السؤال
- 492 نساء مجاهدات
- 492 نساء عابدات
- 493 مجتمع إسلامي متكامل
- 497 فهرس الموضوعات

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET